

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية

المذهب المالكي :

قضايا وأعلام

السنة الثالثة والستون - العدد 431 رجب 1441هـ / مارس 2020م

431

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الثالثة والستون - العدد 431 رجب 1441هـ / مارس 2020م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تعنى بصيغة خاصة بنامية الإصلاح الديني، كما نعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا عمالة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

في هذه المجلة الإسلامية
إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الدينية
للإسلامية في المغرب العربي والاندلس

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمنية - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس

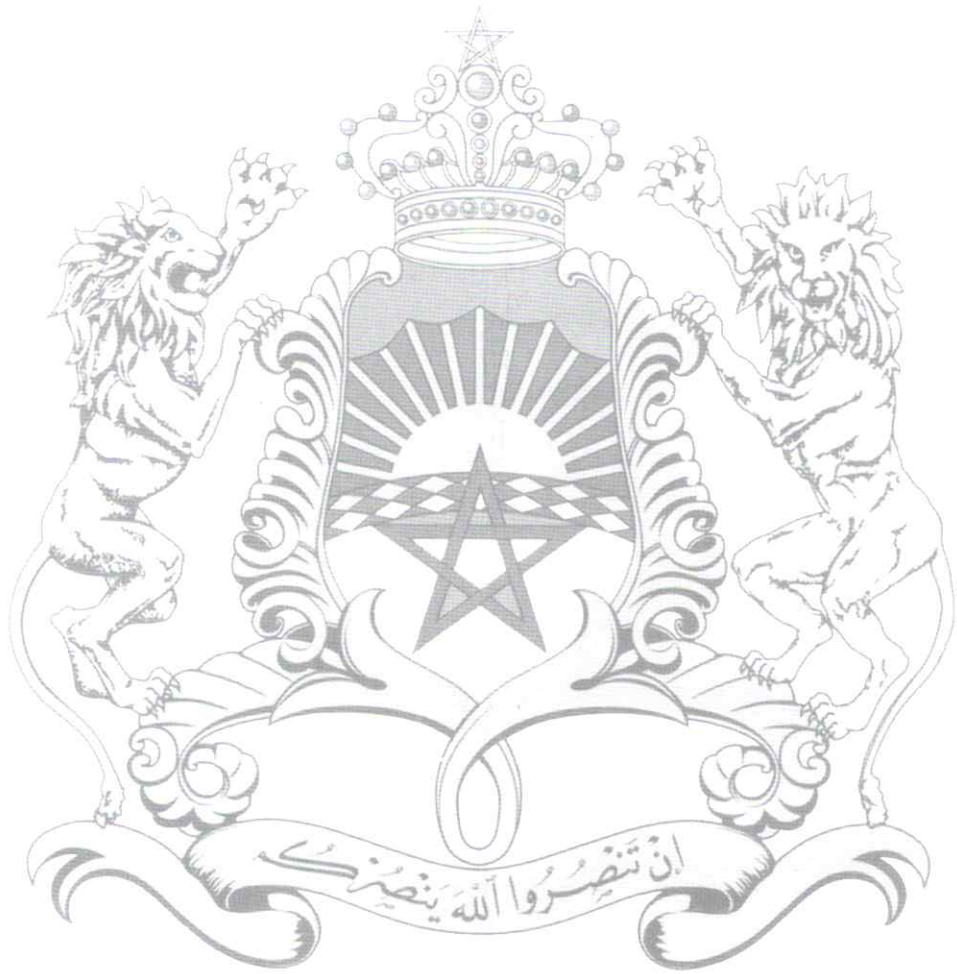


رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

إن الحديث عن المذهب المالكي يقتضي استعراض سيرة الإمام مالك رحمه الله بأبعادها العلمية والخلفية، فهو ابن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إله في رحابها نشأ وتعلم، وبها درس وعلم، فاستقى بذلك مرتبة الإمامة في الأحكام الفقهية والرئاسة في الفتاوى الشرعية. وعنه أخذ الأصحاب النقول العلمية والسماعات المروية، وبهذا كتب الله لمذهبه الذيوع والانتشار. وأصبح على عاتق الغلب الأخيار التعريف بما حوالة من اللصائب والأسرار، وبفضل ذلك اعتبر الكثيرون الإمام مالكا نجم العلماء وثرى النجباء؛ إله بهديه استنار حذاق الفقهاء، ونهل من فيض علمه أئمة المذاهب العظام. قال محمد حبيب الله الشنغيتي:

ومالك عنه الثلاثة رووا وعلومه تعلموا وارتووا.
بالشافعي لا زمه لحويلا ولم يعد عن نهجه سيلا...
ثم أبو حنيفة الإمام التابعي الحاذق الفوام.

وبه يعلم أن منهج الإمام مالك في الفقه والاعتناء بمنه على حريفة أهل السنة والجماعة، وكتاب الموهب ناصح بذلك. قال أبو طاهر أحمد الأصمعي:

أعم الكتب نفعاً للفتية موهباً مالكا لا شبيهه

ومن أقوال مالك رحمه الله: "إنما أهلنا الناس تأويل ما لا يعلمون".

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: "إنما رأيت الرجل يبغض مالكا، فأعلم أنه مبتدع".

إن ما حوالة الإمام مالك في الأصول، وما نهل عنه في الفروع، جعله فكلوة للباحثين، وموئلا للممارسين. واستطاعوا بفضل ذلك الإسهام في إرساء دعائم المدرسة المالكية، التي ذاع صيتها في المجال العلمية.

لذا يسعد إدارة مجلة الدعوة الحق أن تنص هذا العلماء لمجموعة من الأبحاث في المذهب المالكي، تقدم بها علماء مهتمون، وأساتذة باحثون.

نسأل الله تعالى أن تكون نافعة للممارسين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

مفالات العدد

سماعات المذهب المالكي وأسانيده إلى القرن السادس الهجري

ذ. عبد الحميد العلمي
جامعة القرويين بفاس.

من المعلوم أن فقهاءنا لا يصدر عن قول إلا وله أصل في كلام الأولين، والكل له استمداد من كتاب رب العالمين وسنة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام الشافعي: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن"⁽¹⁾ وقد اعتنى حذاق المتقدمين بذكر أسانيد فقههم، بعزو النقول إلى أهلها، وردها إلى أصولها، كما وجدنا من المتأخرين من نبه على أهمية الإسناد، ومنهم الإمام الخطاب الذي ذكر في مواهبه أن: "الإسناد خصيصة هذه الأمة، شرفها الله تعالى، فينبغي الاعتناء به، اقتداء بالسلف، وحفظاً للشرف، قال شيخ شيوخنا شيخ الإسلام ابن حجر الشافعي في أول فتح الباري: سمعت بعض الفضلاء يقول: الأسانيد أنساب الكتب، فأحببت أن أسوق هذه الأسانيد مساق الأنساب"⁽²⁾.

كما نقل عن الإمام النووي المتوفى عام 676هـ قوله: "وهذا من المطلوبات المهمات والنفائس الجليات التي ينبغي للفقيه والمتفقه معرفتها، ويقبح به جهالتها، فإن شيوخه في العلم آباء في الدين ووصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم والشكر لهم"⁽³⁾.

وقد وفي الخطاب بما وعد به مبتدئاً بموطأ الإمام مالك ثم كتب المدونة والمختلطة والتهذيب والموازية وغيرها.

1 - الحاوي للفتاوي للسيوطي: (160/1)

2 - فتح الباري: (5/1). وينظر مواهب الجليل: (8/1).

3 - مواهب الجليل: (6/1). وينظر تهذيب الأسماء واللغات، النووي، نسخة المطبعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت: (81/1).

والناظر في إيالة ظاهرة التسنيد عند من انتهى إليهم أمر الفقه لدى المتأخرين، فإنه لا يجد لها حضوراً مبرزاً في متونهم، كما لا يلحظ فيها ما يدل على اطراد مسألة التدليل على فقههم، متذرعين بقناعتهم بأن الذين سبقوا إلى تدوين الفقه بنوه على أصوله المقررة وأدلته المعتمدة، فكان الرجوع بكل مسألة إلى دليلها مما قد ينافي الأدب معهم.

ومع ذلك، فهذا لا يعني خلو هذه المختصرات عما يصلها بفقه السابقين، لذا سأعمل في هذا الموضوع على إسناد ما تقرر عندهم بالمنقول عن أئمة المذهب الأولين.

وإذا جاز لنا أن نعتبر الإمام مالكا رأس ذلك الإسناد فهذا لا يعفينا من التسليم بربطه بسلسلة الصحابة الكرام الموصولة برسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله عز وجل.

فقد ساق الكثيرون ومنهم الإمام التطيلي المتوفى عام 481 هـ في مواطن من كتابه⁽⁴⁾ ما يجلي وصل فقه مالك وأصحابه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، منها:

- "حدث عيسى بن موسى بقوله: "وروى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحبى أرضاً ميتة فهي له"⁽⁵⁾ ومنها:

- "حدث أصبغ عن ابن وهب عن عمر بن قيس المكي عن ابن أبي حمزة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من بنى في ربع قوم بإذنهم فأرادوا إخراجه فله قيمته"⁽⁶⁾ ⁽⁷⁾.

هذا وقد اعتنى جمهور العلماء برواية الموطأ وشرحه، وبيان غريبه وفتح مغلقه وتحرير فقه ومنهم:

- عبد الملك بن حبيب المتوفى عام 238 هـ له تفسير غريب الموطأ⁽⁸⁾.

- يحيى بن زكرياء بن إبراهيم بن مزين المتوفى عام 259 هـ له تفسير على الموطأ⁽⁹⁾.

4 - ينظر كتاب القضاء بالمرفق: (ص 152).

5 - الحديث أخرجه مالك وأصحاب السنن عدا ابن ماجة، وصححه بعض الأئمة وحسنه بعضهم، وهو مخرج في باب إحياء الموات، القسم (16)، فليُنظر هناك. وانظر القضاء بالمرفق: (ص 32).

6 - حديث في أخبار مكة للفاكهاني: (توفي 275 هـ)، أورده مرسلاً في: (259/3) بسنده عن شريح بن الحارث القاضي مقطوعاً. وأخرجه البيهقي: (91/6) من طريق آخر.

7 - القضاء بالمرفق: (ص 152)

8 - أصله نسخة مكة الحرم الشريف: (شريط رقم 2782)، وقد طبع الكتاب بتحقيق د. عبد الرحمن العثيمين.

9 - أصلها قطع مكتبة القيروان: (رقم 1354) وغيرها.

- خلف بن فرج الكلاعي المتوفى في عام 371 هـ له شرح على الموطأ⁽¹⁰⁾.
 - أبو المطرف القنازعي المتوفى عام 413 هـ له تفسير الموطأ⁽¹¹⁾.
 - أبو عبد الملك مروان بن علي البوني المتوفى عام 440 هـ⁽¹²⁾.
 - أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام الوقشي المتوفى عام 489 هـ⁽¹³⁾.
 - ابن عبد البر المتوفى عام 463 هـ له كتابا: التمهيد والاستذكار مطبوعان متداولان.
- ومن المصادر التي اعتنت بالموطأ وفقهه وتأصيل فروعها:

- المنتقى لأبي الوليد الباجي المتوفى عام 474 هـ الذي ذكر في مقدمة كتابه أن ما قدمه فيه من دليل أو تأويل هو محل اجتهد ونظر فقال: "فلا يعتقد الناظر في كتابي أن ما أوردته من الشرح والتأويل والقياس والتنظير: طريقه القطع عندي حتى أعيب من خالفها، أو أذم من رأى غيره، وإنما هو مبلغ اجتهادي، وما أدى إليه نظري"⁽¹⁴⁾.

- المسالك في شرح موطأ مالك لأبي بكر ابن العربي المتوفى عام 543 هـ الذي ذكر في مقدمته ردا على الظاهرية ما نصه: "فقلت لهم: اعلموا أن مالكا - رحمه الله - إمام من أئمة المسلمين، وأن كتابه أجل الدواوين، وهو أول كتاب ألف في الإسلام. لم يؤلف مثله لا قبله ولا بعده. إذ قد بناه مالك - رحمه الله - على تمهيد الأصول للفروع. ونبه فيه على علم عظيم من معظم أصول الفقه التي ترجع إليه مسائله وفروعه وأنا - إن شاء الله - أنبهكم على ذلك عيانا، وتحيطون به يقينا عند التنبيه عليه في موضعه إن شاء الله"⁽¹⁵⁾.

وباستحضار ما نحن فيه من محاولة وصل فقه المختصرين بالأوائل من الأئمة المعبرين، نجد أن المصدر الأساس لذلك الفقه ما روي عن الإمام مالك، وما دون أو نقل عنه من سماعات الأصحاب، وهي أكثر من أن تحصى.

10 - أصلها نسخة القيروان بتونس.

11 - أصلها الخزائن الوطنية بالرباط: (رقم 60 ج)

12 - أصلها نسخة القرويين: (رقم 175)، وقد طبع الكتاب بتحقيق أبي عمر عبد العزيز الصغير المسيلي.

13 - أصلها الاسكوريال: (رقم 1067)، وهو مطبوع بتحقيق د. العثيمين أيضا. وللتوسع يرجع إلى كتاب المسالك لابن العربي: 185/1.

14 - المنتقى: (3/1).

15 - المسالك في شرح موطأ مالك: (330/1).

يقول ابن عبد البر المتوفى عام 463 هـ: "وأما الذين رووا عنه الموطأ، والذين رووا عنه مسائل الرأي، والذين رووا عنه الحديث، فأكثر من أن يحصوا"⁽¹⁶⁾.

وقال في رياض النفوس: "كان مالك إذا سئل عن مسألة كتبها أصحابه، فيصير لكل واحد منهم سماع مثل سماع ابن القاسم"⁽¹⁷⁾.

وأورد صاحب النوادر والزيادات ما نصه: "نقل عنه إلى العراق نحو من سبعين ألف مسألة، قال شيوخ البغداديين: هذا غير ما زاد عليها أهل العراق ومصر والمغرب لأن أهل الآفاق كانوا يقصدون إليه رحلة وبحثا في الفقه والحديث"⁽¹⁸⁾.

وقول ابن عبد البر عن الذين رووا الفقه والحديث عن مالك أنهم: "أكثر من أن يحصوا" يدعونا إلى أن نجمل ذاك الذي لا يحصى بدءا بسماعات القرنين الثاني والثالث الهجريين. وبعده نعرض للمبسوطات والمختصرات التي تعهدت الأمهات بالشرح والتهذيب وجمع المتفرقات، ونعمل على وصلها بمختصرات المتأخرين لتتضح علاقة الإسناد لتلك الطبقات. وبه تصح دعوى أنساب كتبنا؛ إذ هي شرفنا ومرجعنا في معرفة أحكام ربنا. وصدق الإمام مالك إذ قال: "إن هذا الفقه دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"⁽¹⁹⁾.

وهذا عرض لسلسلة الفقه نبدؤه بالمنقول من السماعات مستهلين ب:

1- أهم سماعات القرن الثاني الهجري:

أصلها ما أخذ عن مالك مباشرة، قال صاحب الذخيرة: "وقد بلغ ما أملاه مالك في مذهبه نحو من مائة وخمسين مجلدا في الأحكام الشرعية، فلا يكاد يقع فرع إلا ويوجد له فتيا"⁽²⁰⁾.
وأشهر من يمثلون هذه الطبقة:

أ - بهلول بن راشد القروي المتوفى عام 182 هـ، قال عنه عياض: "دون الناس عنه جامعا وقام بفتياهم"⁽²¹⁾.

16 - الانتقاء: (ص 45).

17 - رياض النفوس: (256/1).

18 - النوادر والزيادات: (8/1).

19 - ترتيب المدارك: (136/1).

20 - الذخيرة: (33/1).

21 - ترتيب المدارك: (87/3).

- ب - علي بن زياد العبسي المتوفى عام 183 هـ. له كتاب: خير من زنته بكسر أوله وآخره وفتح وسطه. وأصله سماعته عن الإمام مالك في النكاح والطلاق والبيوع⁽²²⁾.
- ج - المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المتوفى عام 186 هـ. "له كتب فقه قليلة في أيدي الناس"⁽²³⁾.
- د - عبد الرحمن بن القاسم المتوفى عام 191 هـ. "له سماع عن مالك عشرون كتابا، وكتاب المسائل في بيوع الآجال"⁽²⁴⁾.
- هـ - عبد الله بن وهب المتوفى عام 197 هـ، قال ابن فرحون: "وَأَلَّفَ تَأْلِيفَ كَثِيرَةٍ حَسَنَةٍ، مِنْهَا: سَمَاعُهُ عَنْ مَالِكٍ ثَلَاثُونَ كِتَابًا"⁽²⁵⁾.
- 2 - أهم سماعات القرن الثالث الهجري: الغالب منها ما أخذ عن تلاميذ مالك، وتنسب لكثيرين نذكر منهم:
- أ - عبد الرحمن بن دينار المتوفى عام 201 هـ. "هو الذي أدخل الكتب المعروفة بالمدينة، سمعها منه أخوه عيسى ثم خرج بها فعرضها على ابن القاسم"⁽²⁶⁾.
- ب - أشهب بن عبد العزيز القيسي المتوفى عام 204 هـ. قال عياض: "وَأَلَّفَ أَشْهَبُ كِتَابَهُ الْمَدُونَةَ، رَوَاهَا عَنْهُ سَعِيدُ بْنُ حَسَّانٍ وَغَيْرُهُ... وَعَدَدَ سَمَاعَاتِهِ عَشْرُونَ كِتَابًا"⁽²⁷⁾.
- ج - عبد الملك بن الماجشون المتوفى عام 212 هـ، قال صاحب ترتيب المدارك: "سماعته كثيرة مبثوثة في كتب الفقه"⁽²⁸⁾.
- د - عيسى بن دينار المتوفى عام 212 هـ. "وهي عشرون كتابا عن ابن القاسم"⁽²⁹⁾.
- هـ - أصبغ بن الفرغ المتوفى عام 225 هـ: "سماعته عن ابن القاسم اثنان وعشرون كتابا"⁽³⁰⁾.

22 - الديباج: (ص 292).

23 - ترتيب المدارك: (3/3).

24 - ترتيب المدارك: (251/3).

25 - الديباج: (ص 214).

26 - ترتيب المدارك: (105/4). وانظر: جبهة تراجم فقهاء المالكية: (630/2).

27 - نفسه: (264/3-265).

28 - نفسه: (140/3).

29 - نفسه: (105/4).

30 - نفسه: (105/4).

و- عبد الرحمن بن أبي جعفر الدميّطي المتوفى عام 226 هـ. صاحب الدميّطية "بها سماعاته عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب"⁽³¹⁾.

د - سحنون بن سعيد التنوخي المتوفى عام 241 هـ، صاحب المدونة وأصلها الأسدية لابن الفرات المتوفى عام 213 هـ. قال عياض: "لما قدم أسد مصر أتى ابن وهب، فقال: هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيبه فيها على مذهب مالك، فتورع ابن وهب، فذهب إلى ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب"⁽³²⁾.

ك - محمد بن أحمد العتبي المتوفى عام 255 هـ، صاحب المستخرجة من الأسمعة أو العتبية، وهي سماعات أحد عشر فقيها، ثلاثة منهم أخذوا عن مالك مباشرة وهم: ابن القاسم، وأشهب، وابن نافع"⁽³³⁾.

ل - عبد الرحمن بن إبراهيم بن عيسى القرطبي المتوفى عام 258 هـ، صاحب الثمانية "وهي عبارة عن ثمانية كتب. وهي سماعات عن شيوخه المدنيين كابن الماجشون ومطرف ونظائرها"⁽³⁴⁾.

م - محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى عام 260 هـ صاحب المجموعة "وهي كتاب شريف على مذهب مالك وأصحابه كالمدونة في نحو خمسين كتابا"⁽³⁵⁾.

ن - محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المتوفى عام 269 هـ، قال في التوشيح "ما كان القول بالمغرب إلا على قول سحنون، كما كان العمل بالديار المصرية على قول ابن المواز"⁽³⁶⁾.

ح - القاضي إسماعيل بن إسحق الجهنّي المتوفى عام 282 هـ، له كتاب المبسوط وهو على طريقة البغداديين في الفقه والتأليف"⁽³⁷⁾.

ومن ينتمون لهذه الطبقة ولهم سماعات معروفة محفوظة في مصادر معلومة:

31 - طبقات الفقهاء: (ص 158)، والترتيب: (357/3).

32 - ترتيب المدارك: (296/3).

33 - معلمة الفقه المالكي: (ص 118).

34 - ترتيب المدارك: (258/4).

35 - نفسه: (222/4).

36 - توشيح الديباج: (ص 139).

37 - الذخيرة: (19/1).

- عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المتوفى عام 214 هـ، صاحب المختصرات الثلاث⁽³⁸⁾.
- عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى عام 238 هـ، صاحب الواضحة⁽³⁹⁾.
- أبو مصعب الزهري المتوفى عام 242 هـ، صاحب المختصر⁽⁴⁰⁾. قال القاضي عياض: "روى عن مالك الموطأ وغيره"⁽⁴¹⁾.
- الحارث بن مسكين المتوفى عام 250 هـ، قال عنه عياض: له كتاب دون فيه ما اتفق فيه رأي ابن القاسم وأشهب وابن وهب"⁽⁴²⁾.
- مالك بن قطن الأندلسي المتوفى عام 268 هـ، قال صاحب المعجم: "له مختصر على مذهب مالك"⁽⁴³⁾.
- أبو بكر محمد بن زكرياء الوقار المتوفى عام 269 هـ، صاحب المختصرين الكبير والصغير⁽⁴⁴⁾.
- أبو الربيع سليمان بن سالم القطان المتوفى عام 281 هـ، صاحب السليمانية قال عياض: "له تأليف في الفقه تعرف بالكتب السليمانية مضافة إليه"⁽⁴⁵⁾.
- والناظر في هذه الساعات يجد أن معظمها أصبح أصلاً لما يعرف في اصطلاح المذهب بالدواوين والأمهات. وهي عندهم سبعة كتب: المدونة، والمستخرجة، والموازية، والواضحة، والمختلطة، والمبسوط، والمجموعة.
- وأصبح مدار كلام اللاحقين عليها، وسنعرض لذلك المدار ضمن حلقتين:
- تبتدئ الأولى من القرن الرابع الهجري إلى السادس منه. والثانية من السابع الهجري إلى الثالث عشر منه، حتى تتضح لنا معالم السند المفضية إلى التحقق بالنسب. مكثفين بالحلقة الأولى في هذا الموضوع.

38 - توجد قطعة من الحجيم الكبير في خروم القرويين.

39 - توجد قطعة صغيرة في خزانة القريين وأخرى مطبوعة بتعليق ميكلوش موراني وأخرى مرقونة بدار الحديث الحسنية.

40 - نسخة القرويين.

41 - ترتيب المدارك: (347/3-349).

42 - ترتيب المدارك: (26/4).

43 - معجم المؤلفين: (1/3).

44 - ترتيب المدارك: (189/4).

45 - نفسه: (357/4).

1- الحلقة الأولى:

الغالب على مؤلفيها الاعتناء بتلك المدونات شرحا وجمعا وتلخيصا، قال ابن خلدون في مقدمته: "ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع، فكتب أهل إفريقية على المدونة ما شاء الله أن يكتبوا: مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز والتونسي وابن بشير وأمثالهم... وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر والزيادات، واشتمل على جميع أقوال المذهب وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب"⁽⁴⁶⁾.

ويمكن أن نميز في هذه المرحلة بين ثلاثة أنواع من التصانيف:

النوع الأول:

اهتم أصحابه بالمدونة شرحا أو اختصارا أو تعليقا منهم:

أ - عبيد الله بن فرج الطوطالقي المتوفى عام 386 هـ. "ألف كتابا متقنا في اختصار المدونة"⁽⁴⁷⁾.

ب - عبد الله بن عيشون المتوفى عام 341 هـ، "اختصر المدونة"⁽⁴⁸⁾.

ج - محمد بن رباح بن صاعد المتوفى عام 358 هـ، "له في المدونة اختصار كان مشهورا بطليطلة"⁽⁴⁹⁾.

د - أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الخولاني المتوفى عام 364 هـ، قال عياض: "له في المدونة اختصار مشهور"⁽⁵⁰⁾.

هـ - خلف بن سعيد الأزدي القيرواني الشهير بالبراذعي المتوفى عام 438 هـ، له تهذيب على المدونة مطبوع.

و - أبو القاسم بن عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المتوفى عام 440 هـ، له ملخص على اختصار المدونة⁽⁵¹⁾.

46 - المقدمة، ابن خلدون، تحقيق: ذ. درويش جويدي، ط2، 2000م، المكتبة العصرية، بيروت: (ص 422).

47 - الصلة: (300/1).

48 - ترتيب المدارك: (173/6).

49 - نفسه: (177/6).

50 - نفسه: (20/7).

51 - نفسه: (255/7).

ز - أبو القاسم خلف بهلول المتوفى عام 444هـ، له مختصر على المدونة "حسن جمع فيه أقوال أصحاب مالك وهو كثير الفائدة" (52).

ك - أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري المتوفى عام 460 هـ، له تعليق على المدونة (53).

ل - أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى عام 474 هـ، له اختصار المدونة (54).

م - أبو محمد عبد الحميد بن الصائغ القيرواني المتوفى عام 486 هـ، قال صاحب الشجرة: "له تعليق مهم على المدونة معروف كامل فيه الكتب التي بقيت على التونسي" (55).

ن - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المتوفى عام 520 هـ، له كتاب: "المقدمات المهمات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمّهات مسائلها المشكلات" مطبوع متداول.

ح - إبراهيم بن عبد الصمد بن بشير المتوفى بعد عام 526 هـ، له كتاب: التنبيه على مبادئ التوجيه (56). قال في المقدمة: "لما انتهض خاطري إلى شرح كتاب المدونة أردت أن أسلك فيه الإيجاز والاختصار، تجنبت فيه التطويل والإكثار ورغبت في حذف التكرار" (57).

النوع الثاني:

اعتنى أصحابه بشرح بعض المختصرات أو أحد كتب الأمّهات، ومنهم:

أ - محمد بن أحمد المعروف بالوراق المتوفى عام 329 هـ، له شرح على مختصر ابن عبد الحكم الصغير (58).

52 - الصلة (169/1).

53 - ترتيب المدارك: (65/8).

54 - نفسه: (124/8).

55 - شجرة النور الزكية: (ص 117).

56 - نسخة القرويين: (رقم 1132)، وحققه قسماً منه د. محمد بلحسان، دار بن حزم، 2007 م.

57 - نفسه، من المقدمة.

58 - ترتيب المدارك: (20/5).

ب - أبو إسحاق بن شعبان القرطبي المتوفى عام 355 هـ، له كتاب مختصر ما ليس في المختصر، وعنوانه الكامل: "كتاب مختصر قول مالك ابن أنس مما ليس في المختصر الكبير لابن عبد الحكم" (59).

ج - أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري المتوفى عام 375 هـ، له "شرح المختصر الكبير لابن عبد الحكم" (60).

د - عبد الله بن فتوح بن موسى له كتاب اختصار المستخرجة (61).

هـ - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المتوفى عام 520 هـ، له: "البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة" مطبوع متداول.

النوع الثالث:

اعتمد أصحابه على النقول، والأسمعة الموثقة بالدواوين والأمهات، ومنهم:

أ - محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة المتوفى عام 330 هـ، له كتاب المنتخب (62).

ب - أبو الفرج عمر بن محمد الليثي المتوفى عام 331 هـ، له كتاب الحاوي في مذهب مالك (63).

ج - أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي المتوفى عام 392 هـ، "ألف كتابا كبيرا في الدلائل على المسائل فما قصر" (64).

د - عبيد الله بن الحسين بن الجلاب المتوفى عام 378 هـ، له كتاب التفریع، قيل إن فيه ثمانية عشر ألف مسألة عن مالك وأصحابه (65).

هـ - أبو بكر محمد بن ييقى بن زرب القرطبي المالكي المتوفى عام 381 هـ، له كتاب الخصال (66).
بني فقهه على أبواب المدونة ونقل عن ابن نافع المتوفى عام 186 هـ، وابن القاسم المتوفى عام 191 هـ،

59 - دراسات في مصادر الفقه المالكي: (ص 105).

60 - ترتيب المدارك: (184/6).

61 - اصطلاح المذهب: (ص 294).

62 - ترتيب المدارك: (86/6).

63 - نفسه (23/5).

64 - تراجم المؤلفين التونسيين: (144/3).

65 - التفریع، مقدمة التحقيق نقلا عن التتائي: (125/1).

66 - دراسة وتحقيق، د. عبد الحميد العلمي.

وعلي بن زياد المتوفى عام 193هـ، وابن وهب المتوفى عام 197هـ، وأشهب المتوفى عام 204هـ، وابن عبد الحكم المتوفى عام 210هـ، وعيسى بن دينار المتوفى عام 212هـ، وأصبغ المتوفى عام 255هـ، ويحيى بن يحيى المتوفى عام 234هـ، وسحنون المتوفى عام 240هـ⁽⁶⁷⁾.

و- عيسى بن موسى بن أحمد التطيلي المتوفى عام 386هـ، له كتاب القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر، جمع فيه أقوال مالك وأصحابه⁽⁶⁸⁾.

ذ - الشيخ ابن أبي زيد القيرواني المتوفى عام 386هـ. قال عياض: "له كتاب النوادر والزيادات مشهور... وكتاب مختصر المدونة مشهور، وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب في التفقه"⁽⁶⁹⁾.

قال الشيخ في مقدمة نوادره: "رغبت في اختصار ما افترق من ذلك في أمهات الدواوين... وذكرت ما في كتاب محمد بن إبراهيم بن المواز، والكتاب المستخرج من الأسمعة استخراج العتبي، والكتب المسماة "الواضحة"، والسمع المضاف إليها المنسوبة إلى ابن حبيب. والكتب المسماة المجموعة المنسوبة لابن عبدوس، والكتب الفقهية من تأليف: محمد بن سحنون"⁽⁷⁰⁾.

ك - القاضي عبد الوهاب البغدادي المتوفى عام 422هـ، له كتاب التلقين مطبوع متداول، وله أيضا كتاب المعونة على مذهب عالم المدينة.

ل - أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي المتوفى عام 451هـ، له كتاب الجامع لمسائل المدونة والأمهات يعرف بمصحف المذهب.

ذكر في المقدمة أنه اعتمد على المدونة والمستخرجة والموازية والنوادر والزيادات ومختصر ابن أبي زيد القيرواني⁽⁷¹⁾.

م - يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، المتوفى عام 463هـ، له كتاب: الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الآثار، مطبوع متداول.

67 - ينظر كتاب الخصال: (ص 38).

68 - مطبوع بتحقيق ذ. محمد النمينج.

69 - ترتيب المدارك: (217/6) وتراجم التونسيين: (447/2).

70 - مقدمة النوادر والزيادات: (9/1)، بتصرف.

71 - مقدمة الجامع، لابن يونس الجزء المحقق: (ص 2-3)، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الفقه، إعداد إبراهيم سامي مطاعن شبيبة، سنة 1999م، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

وله كتاب: الكافي في فقه أهل المدينة ومصادره فيه: "سبعة دواوين دون ما سواها وهي: الموطأ والمدونة وكتاب ابن عبد الحكم والمبسوط للقاضي إسماعيل والحاوي لابن الفرغ ومختصر أبي مصعب وموطأ ابن وهب، وفيه من كتاب ابن المواز ومختصر الوقار ومن العتبية والواضحة فقر صالحة، وعلى هذه الكتب خاصة اعتمدت ومنها اقتضبت"⁽⁷²⁾.

ن - أبو الحسن علي بن محمد الربيعي المعروف بالرخمي المتوفى عام 478 هـ، له كتاب التبصرة اعتمد فيه على المنصوص عليه في الأمهات.

ح - عياض بن موسى اليحصبي المتوفى عام 544 هـ، له كتاب: التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة⁽⁷³⁾.

هذا بالإضافة إلى الكتب التي اهتمت بالموطأ وفقهه كالمتمقى لأبي الوليد الباجي والمسالك في شرح موطأ مالك لأبي بكر بن العربي المتوفى عام 543 هـ.

كما أن هناك كتباً اهتمت بأدب القضاة والحكام منها:

- كتاب الاستغناء في أدب القضاة والحكام لخلف بن مسلمة بن عبد الغفور المتوفى عام 440 هـ⁽⁷⁴⁾.

- كتاب النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام لأبي الحسن علي بن عبد الله الميطي المتوفى عام 570 هـ⁽⁷⁵⁾.

واعتمدت أخرى على الذب والانتصار للمذهب المالكي ومنها:

- كتاب الذب عن المذهب لابن أبي زيد القيرواني المتوفى عام 386 هـ⁽⁷⁶⁾.

- كتاب تهذيب المسالك في نصره مذهب مالك لأبي الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المتوفى عام 543 هـ⁽⁷⁷⁾.

72 - الكافي: (ص 9-10)، طبعة دار الكتب العلمية.

73 - نسخة القرويين: (رقم 371)، وهو مطبوع بتحقيق د. محمد الوثيق و د. حميتي: في دار ابن حزم.

74 - نسخة عثرنا عليها في خروم خزانة القرويين.

75 - أصله من نسخة القرويين.

76 - مطبوع بتحقيق الدكتور محمد العلمي، طبعة: الرابطة المحمدية للعلماء.

77 - مطبوع دراسة وتحقيق د. أحمد البوشيخي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

- كتاب الانتصار لأهل المدينة لابن الفخار المتوفى عام 419 هـ⁽⁷⁸⁾.

ومن الكتب ما اهتم أصحابها بالقواعد والفروق.

ككتاب النكت والفروق لمسائل المدونة لعبد الحق بن محمد بن هارون الصقلي المتوفى عام

466 هـ⁽⁷⁹⁾.

وكتاب الفروق لشهاب الدين القرافي المتوفى عام 684 هـ.

ومنها ما اهتم بعلم الخلاف وأصول الاحتجاج ككتاب المنهاج في ترتيب أدلة الحجاج لأبي

الوليد الباجي توفي عام 474 هـ.

وكتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد الحفيد المتوفى عام 595 هـ.

وبعد، فإن ما تضمنته الحلقة الأولى بفروعها الثلاثة من عرض نماذج من كتب الأعلام وما

حوته من نصوص الفقهاء الأعيان، يدل على أن مرحلة ما بين القرن الثالث الهجري والسادس منه تميزت بثلاثة سمات:

- أولاهما: اعتماد الأكثرين على المدونة شرحا واختصارا وتهذيبا.

وقد ذكر المقرئ أن المتقدمين تعاملوا معها بمنهجين:

- أحدهما لأهل العراق الذين جعلوا مصطلحات المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول

المذهب بالأدلة والقياس... على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين.

والثاني لأهل القيروان الذين عنوا بالبحث في ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن

الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان أوجه الاحتمالات⁽⁸⁰⁾.

- والسمة الثانية: اهتمام الآخرين بمصادر أخرى كما فعل ابن الوراق، وأبو بكر محمد بن عبد

الله الأبهري مع مختصرات ابن عبد الحكم.

وكذا صنيع عبد الله بن فتوح. وأبي الوليد بن رشد مع المستخرجة وقد تقدم الكلام عن هذا.

78 - مطبوع دراسة وتحقيق د. محمد التمساني، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب.

79 - أصلها نسخة مكتبة مدريد الوطنية: (رقم 78)، رسالة نوقشت بكلية الشريعة بفاس، 2008م، دراسة وتحقيق محمد رمح.

80 - أزهار الرياض: (22/3)، بتصرف.

-أما السمة الثالثة: فهي كالجامعة بين الأوليين؛ إذ الغالب على من عرضنا لهم في هذه الحلقة أنهم تمسكوا بألفاظ الكتاب وتعلقوا بها حوته بواطن الأبواب فاعتمدوا على المنقول إليهم من الساعات وبمجموع ما وصلهم من الأقوال والروايات. فأفضى التزامهم بما تعلقوا به إلى التمسك بالمكرورات واستظهار الراجحات مع الإبقاء على المرجوحات حرصاً منهم على الوفاء لما أخذوه. وعرضه كما تعلموه. وتدوينه كما حفظوه مع بيان المعتمد. والإعراب عن السند.

من الإمام سحنون (ت. 240هـ/854م) إلى الإمام ابن عرفة (ت. 803هـ/1401م)

ذ. نجم الدين الهنتاقي
جامعة الزيتونة - تونس.

ينتسب هذان الإمامان إلى المذهب المالكي. وقد عاش سحنون في العهد الأغلبي بالقيروان وتوفي سنة 240هـ/854م، بينما عاش ابن عرفة في العهد الحفصي بمدينة تونس وتوفي سنة 803هـ/1401م، ويفصل بين تاريخي وفاتيها حوالي 547 سنة.

هَدَفْنَا من هذا المقال تحليل قول لسعد غراب. فعند مقارنته بين هذين الإمامين، ذكر أنَّ "إسهام ابن عرفة في تعميق الدراسات المالكية لم يكن دون شَبِّه بإسهام سحنون في نشر المذهب المالكي..."¹ فاسم سحنون يرتبط بنشر المذهب المالكي، بينما يرتبط اسم ابن عرفة بتعميق الدراسات المالكية. فهل اقتضت علاقة هذين العالمين بالمذهب بهذين الجانبين لا غير؟ أم أنَّه كانت لهما إسهامات أخرى في تاريخ المذهب؟ إن كان ذلك ما هي؟

من جهة أخرى، يرمز هذان العالمان إلى مدرستين مالكيتين متميزتين: هما المدرسة المالكية القيروانية بالنسبة إلى سحنون، والمدرسة المالكية التونسية (نسبة إلى مدينة تونس)² فيما يخص ابن عرفة.

1 - Ghrab, S., *Ibn Arafat et le malikisme au VIIIe/XIVe siècles*, Manouba 1992 - 1996, I, p. 179.

2 - المدارس المالكية هي الاتجاهات الفقهية المختلفة داخل المذهب المالكي، والتي ترى أنَّ نهج مالك ومذهبه هو ما تسير عليه. وقد تحدّث عدد من الباحثين عن مدرسة مالكية قيروانية وأخرى تونسية مثل روبر بارنشفيك، وأخرى فاسية.

Brunschvig, R., *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle*, Paris 194.-1947, II, 297 ;

وسعد غراب Ghrab, S., *op. cit*, I, p. 382

والشيخ محمد الشاذلي النيفر، مقدّمة تحقيقه لقطعة من موطأ ابن زياد، الدّار التّونسية للنّشر - تونس د. ت. ص 26. فيما تحدّث هواري التّواتي عن مدرسة مالكية بقسنطينة، معتمدا في ذلك على العمل القضائي بقسنطينة، Houari Touati, *Entre Dieu et les hommes. Lettrés, saints et sorcières au Maghreb (17 siècle)*, Paris 1994, p. 95, 97, 99.

لذلك سنحاول في عنصر أول أن نقارن بين هذين الإمامين من ناحية إسهامهما في تاريخ المذهب المالكي، ثم سنتحدث في عنصر ثان عن المدرسة المالكية القيروانية، ثم نتطرق في عنصر ثالث للمدرسة المالكية التونسية.

1- المقارنة بين الإمامين

تستوجب المقارنة الحديث عن وجوه الشبه بين الإمامين، ووجوه للاختلاف بينهما.

يختلف هذان العالمان في جوانب:

سحنون قيرواني نشأة ووفاة، فيما ولد ابن عرفة بمدينة تونس وتوفي بها.

تكوين الإمام سحنون إفريقي أي تونسي تمّ دعمه برحلة علمية إلى الشرق دامت حوالي أربع سنوات من 186هـ/802م إلى 191هـ/806م، فيما كان تكوين ابن عرفة إفريقيا محضا وهو دليل على تطوّر مكانة إفريقية العلمية، حيث أصبحت مركزا علميا مشعا، بل يبدو أنّ هذه المكانة كانت بلغت إفريقية منذ النصف الثاني من القرن 3هـ/9م. فعندما خرج ابن عرفة إلى الشرق كان ذلك للحجّ ولإلقاء الدّروس، فيما رحل سحنون لأخذ العلم عن علماء المدينة ومصر خاصة منهم الثّالث المصري وعلى رأسهم عبد الرّحمان بن القاسم (ت. 191هـ/806م).

الإمام سحنون عربي، وقد كان لانتهاه العربي إسهام في جعل عرب إفريقية السّنين يتبنّون المذهب المالكي، فيما كان ابن عرفة بربريا من ورغمة المقيمة بجنوب إفريقية، وهو دليل على التّطوّر الذي عرفه المذهب في العهد الحفصي حيث توسّع انتشاره بين البربر، بل أصبح البعض من كبار علمائه من ذلك الشعب.

واكب الإمام سحنون لحظات بداية انتصار المذهب المالكي بإفريقية بما أنّه يُعدّ من العوامل الهامة في نشره بها وانتصاره هناك، فيما عايش ابن عرفة فترة الانتصار النهائي للمذهب المالكي إثر ذبول المذهب الموحدّي لاسيما عند تحلّي السّلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني (711-717هـ/1311-1317م) عن بعض مظاهر هذا المذهب.³

يُعدّ سحنون وابن عرفة من العناصر الفاعلة في تطوّر المذهب المالكي من النّاحية الفقهيّة، على مستوى البلاد الإسلامية، لكنّ كلّ طرف منهما حسب الظّرف الذي عايشه: فقد ساهم سحنون في

3 - Brunschvig, R., *op. cit.*, II, p. 291-292.

بلورة دور تدوين المسائل الفقهية النظرية، أتى ذلك مع تأليف المدونة، فيما يقابل ابن عرفة دور "التّفقه"⁴، برز ذلك من خلال تأليفه للمختصر الفقهي. فقد مرّ المذهب المالكي، في تطوّره من النّاحية الفقهية، بأدوار مختلفة وهي:

- دور بداية التّأصيل الذي يقابل تأليف الموطأ بالمدينة.
- دور التّوسّع في تجميع فروع المذهب، يقابل تأليف المدونة بالقيروان، والواضحة والمستخرجة بالأندلس.
- دور تبسيط المذهب واختصاره وشرحه، يقابل ظهور رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت. 386هـ/996م) ومختصرات المدونة مثل التّهذيب للبرازعي (القرن 4هـ/10م) ثمّ الشّروح على المختصرات وعلى رسالة ابن أبي زيد.
- دور التّنقيح والاختيار افتتحه أبو الحسن اللّخمي (ت. 478هـ/1085م) في التّبصرة. فقد اعتمد في هذا المؤلّف طريقة نقدية، ونصّب نفسه حكماً على الأقوال المختلفة، ففضى بأنّ هذا مقبول وهذا ضعيف... وهي الطّريقة التي درج عليها تلميذه أبو عبد الله المازري (ت. 536هـ/1141م)، وكذلك ابن رشد الجدّ (ت. 520هـ/1126م)، وابن بشير (ت. 526هـ/1131م)، والقاضي عياض (ت. 544هـ/1149م).
- دور الاختصار والاقتصار: همّ مصر أساساً، خلال القرن 7هـ/13م. لقد لقي هناك كتاب الوجيز للغزالي (ت. 505هـ/1111م) نجاحاً، فقلّده علماء مثل ابن الحاجب (ت. 646هـ/1249م). قلّده كذلك من علماء إفريقية ابن راشد القفصي (ت. 736هـ/1335م) في كتابه لباب اللباب. وقد اقتصر أبو حامد الغزالي (ت. 505هـ/1111م) على القول الرّاجح وترك جانباً الأقوال الضّعيفة.
- دور التّفقه، به واجه ابن عرفة ظاهرة الاقتصار.⁵

تجمّع بين الإمامين عدّة جوانب نذكر منها:

4 - مصطلح "التّفقه" استعمله أصحاب ابن عرفة أو هو الذي استعمله بنفسه (ابن عاشور، الشّيخ محمّد الفاضل، المحاضرات المغربية، جمع وإعداد عبد الكريم محمّد، الدّار التّونسية للنشر - تونس 1394هـ/1974م، ص 85).

5 - ابن عاشور، الشّيخ محمّد الفاضل، المحاضرات، ص 76-82. على أنّنا تصرّفنا جزئياً في هذا التّحقيق، انظر كتابنا، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس، تبرّ الزّمان - تونس 2004، ص 188-224.

كان كلاهما من كبار علماء المالكية، فلقباً بالإمام، وهو لقب يُعدّ من أعلى المراتب العلمية، بخلاف مثلاً: ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م) ومحمد بن عبد السلام (ت. 749هـ/1348م) اللذان لُقبا بالشيخ، وهي رتبة أقلّ من رتبة الإمام. فقد بلغ سحنون وابن عرفة درجة الاجتهاد داخل المذهب، بل إنّ ابن عرفة كان يعتبر نفسه أرفع من ذلك إذ كان يرى في نفسه محيياً للعلم،⁶ وهو ما اعترف له به مثلاً السيوطي (1505هـ/911م) إذ قال إنّ ابن عرفة هو المبعوث على رأس المائة الثامنة.⁷

تولّى كلاهما مناصب دينية رفيعة: قضاء الجماعة بالنسبة إلى سحنون منذ سنة 234هـ/849م، فيما كان ابن عرفة مفتي إفريقية الكبير، ومعه ارتفع كثيراً شأن هذا المنصب،⁸ إذ أصبح من الممكن للمفتي التّدخل في تعيين القضاة وعزلهم،⁹ وهذا يعني أنّه أصبح للإمامين نفوذ كبير في الحياة السياسية وكذلك في المجتمع.

إثراؤهما في آخر حياتهما وموقفهما الحذر من التّصوّف، رغم أنّ التّصوّف كعلم لم يتبلور بعد في عهد سحنون.

لكليهما مؤلّفات مشهورة: المدوّنة بالنسبة إلى سحنون، التي يقابل تأليفها، في إطار تطوّر المذهب المالكي من النّاحية الفقهية، دورَ جميع المسائل الفقهية النّظرية؛ والمختصر الفقهي بالنسبة إلى ابن عرفة، والذي يقابل تأليفه دور "التّفقه" بعد أن مرّ المذهب المالكي بدور الاختصار والاقْتصار حيث كان فقهاء المالكية يقتصرون على المشهور من الأقوال في المذهب، بينما سعى ابن عرفة من خلال مختصره إلى الرّجوع إلى الأقوال المتروكة أو المحكوم عليها بالضعف، أو المحكوم عليها بالمرجوحية، إلى جانب الأقوال المشهورة، وذلك بهدف توسيع آفاق الفقه وهو ما تمّ التعبير عنه "بالتّفقه"، فيما تحدّث سعد غراب عن تعميق الدّراسات الفقهية مع ابن عرفة.¹⁰

6 - Ghrab, S., *op. cit*, II, p. 760.

7 - التّنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، على هامش الدّيباج المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية - بيروت د. ت.، ص 274.

8 - Brunschvig, R., *op. cit*, II, p. 139.

9 - انظر مثلاً ابن ناجي (ت. 839هـ/1435) الذي تحدّث عن إشراف القاضي على تعيين المفتي بجامع عقبة بالقيروان في العهد الأغلبي، بخلاف ما أصبح عليه الوضع بمدينة تونس في العهد الحفصي (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمّد الأحدي أبو النّور ومحمّد ماضور، المكتبة العتيقة - تونس 1993، ج 2 ص 332-333).

10 - Ghrab, S., *op. cit*, I, p. 179.

تميّز كلاهما بطول العمر حيث بلغ سحنون الثمانين فيما عاش ابن عرفة 85 سنة، فطالت فترة تدريسهما. كان سحنون يدرّس أساسا المدوّنة وكذلك الموطّأ، فيما كان ابن عرفة يدرّس عديد المؤلّفات بما فيها مختصراته. وبذلك كان للعالمين عدد كبير من التلاميذ المشهورين، مثل محمّد بن سحنون (ت. 256هـ/870م)، وعبدالله بن طالب (ت. 275هـ/888م)، ويحيى بن عمر (ت. 289هـ/901م) بالنسبة إلى سحنون؛ وأبي العباس أحمد بن القنفذ (ت. 810هـ/1407م)، وأبي مهدي عيسى الغبريني (ت. حوالي 815هـ/1412م)، وأبي عبد الله محمّد الأبي (ت. حوالي 828هـ/1425م)، وأبي الفضل قاسم بن ناجي (ت. 839هـ/1435م)، وأبي القاسم البرزلي (ت. 841هـ/1438م)، بالنسبة إلى ابن عرفة. وبفضل هؤلاء التلاميذ، تبلورت مدرسة مالكية قيروانية يتزعمها سحنون، ومدرسة مالكية تونسية يتزعمها ابن عرفة.

2- المدرسة المالكية القيروانية

تحدّث ابن خلدون عن ثلاث طرق¹¹ في المذهب المالكي:

- الطريقة القرطبية وكبيرها عبد الملك بن حبيب (ت. 238هـ/852م)، صاحب الواضحة.¹²

- الطريقة العراقية وكبيرها القاضي إسماعيل¹³ وأصحابه.

- الطريقة القيروانية وكبيرها سحنون الآخذ عن عبد الرّحمان بن القاسم

(ت. 191هـ/806م).¹⁴

لئن كانت الطريقة القرطبية أو المدرسة القرطبية تعتمد على العتبية وشروحاتها، فإنّ المدرسة القيروانية تعتمد على مدوّنة سحنون وشروحاتها ومختصراتها، وأشهر هذه المختصرات التّهذيب للبراذعي (القرن 4هـ/10م)، هذا إلى جانب تبصرة أبي الحسن اللخمي (ت. 478هـ/1085م). فأهميّة دور المدوّنة في المدرسة المالكية القيروانية، تُعطينا فكرة عن مدى أهميّة دور مؤلّفها، نعني سحنون، في

11 - ترتبط الطريقة باختلاف الشيوخ في كيفية نقل المذهب، وهي لا تختلف كثيرا عن المدرسة.

12 - ذكر ابن خلدون (808هـ/1406م) أنّ ابن حبيب أخذ عن مالك (المقدّمة، دار ومكتبة الهلال - بيروت 1983م، ص 285)، وهو مستبعد، لأنّ رحلته إلى الشرق كانت سنة 208هـ/823م، أي بعد وفاة مالك سنة 179هـ/795م (القاضي عياض، ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكير، بيروت - طرابلس 1967م، ج 3، ص 31).

13 - هو على الأرجح القاضي إسماعيل بن إسحاق (ت. 282هـ/895م)، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، تحقيق محمّد الطالبي، تونس 1968م، ص 171؛ ميكوش موراني، دراسات في مصادر الفقه المالكي، ترجمة جماعية من الألمانية إلى العربية، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1409هـ/1988م، ط 1، ص 163.

14 - المقدمة، ص 285.

تأسيس المدرسة المالكية القيروانية. بل إنَّ محمد الطَّالبي، مع شيء من المبالغة، ذكر أنَّ سحنون هو مؤسس المذهب المالكي بالغرب الإسلامي.¹⁵ فسحنون، فيما يبدو لنا، لم يكن مجرد ناشر للمذهب المالكي، بل يمكن القول إنَّه كان أيضا مؤسساً للمدرسة المالكية القيروانية التي يمكن نعتها أيضا بالإفريقية، بما أنَّ بعض المصادر، فيما يبدو، كانت تُطلق على القيروان اسم إفريقية.¹⁶

تعتمد هذه المدرسة أيضا على العمل القيرواني الذي يقوم بدوره على جانبين: العرف المحلي، والأقضية والأحكام المشهورة هناك، بما فيها أقضية سحنون وكذلك فتاويه. فمن أشهر أعراف القيروان الصَّدَاق القيرواني المتمثل في حق المرأة في تطليق الثانية إن تزوج عليها زوجها ثانية، وهو ما يُذكر بالزَّواج على الشُّروط، وقد قاومه بعض قضاة القيروان مثل سحنون وتلميذه عبد الله بن طالب (ت. 275هـ/888م)،¹⁷ لكنَّ ذلك العرف ظلَّ قائم الذات بتلك المدينة. فعندما رغب البرزلي (ت. 841هـ/1438م)، القيرواني الأصل، في الانتقال من القيروان إلى تونس، تحيَّل على زوجته، برسم استرعاء، حتَّى يتمكن من الزَّواج بثانية.¹⁸

ومن جهة أخرى كانت أقضية سحنون معروفة بالصَّرامة والثبات على الحق، سواء مع الأمراء أو مع عامة الخصوم. أمَّا فتاويه الكثيرة والمشتتة في بطون الكتب، فهي تميل إلى التصلُّب وتقديم الآراء الأكثر صرامة. نلاحظ ذلك في مواقفه مثلا من الأحباس، أو الجهاد أو الدِّميين¹⁹ أو غيرهم. وربما يعود ذلك التصلُّب إلى طبيعة شخصيته الشديدة التَّأثر بشخصية الإمام مالك.²⁰

15 - "Les courtiers en vêtements en Ifriqiya au IXe-Xe siècle d'après les Masa'il al-samasira d'al-Ibyani », dans *Etudes d'histoire ifriqiyenne et de civilisation musulmane médiévale*, Tunis 1982, p. 233.

16 - يمكن ملاحظة ذلك من خلال عنوان كتاب أبي العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس (تحقيق علي الشَّاذلي ونعيم حسن اليافي، الدَّار التونسية للنشر - تونس 1968م). إفريقية هنا، فيما يبدو، تعني القيروان. انظر أيضا أطروحة سعد غراب حول ابن عرفة المذكورة، ج 1، ص 25، هامش 5. ربَّما لهذا السَّبب ذكر الشَّيخ محمَّد الشَّاذلي النِّيفر أنَّ "المدرسة المالكية الإفريقية الكبرى هي المدرسة السَّحنونية..." انظر "علماء قفصة بين مدرستين"، ملتقى ابن منظور، 1971م، ضمن تاريخ قفصة وعلمائها، ص 107.

17 - تراجع أغلبية، ص 224-225.

18 - انظر مقدِّمة محمد الحبيب الهيلة، محقِّق جامع مسائل الأحكام للبرزلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، 2002م، ج 1، ص 18. انظر أيضا في الونشريسي، المعيار المعرب، أشرف على تخريجه محمَّد حججي، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1981م، ج 8، ص 178، مثالا آخر يخصَّ عمل القيروان في المغارسة، حيث يشترك المغارس في الثَّار دون الأصول إلى أن تبلى الشَّجرة.

19 - تناولنا مختلف هذه الجوانب في مقالات مستقلة حرصنا فيها على التعريف بموقف سحنون منها.

20 - الإمام مالك معروف بنوع من الصَّرامة في تطبيق بعض الأحكام القضائية، وتبرز تلك الصَّرامة أيضا من خلال رفضه للحيل الشرعية والفرضيات، انظر كتابنا المذهب المالكي، ص 34-35.

من جهة أخرى، كان سحنون، أيام طلبه، يحرص على تتبع العلم كما "خرج من دماغ مالك". من ذلك أنه كان من أهدافه، عند رحلته إلى الشرق، تصحيح ما أخذه من علم عن علي بن زياد التونسي (ت. 183هـ/799م)، لاسيما روايته لموطأ الإمام مالك بن أنس (ت. 179هـ/795م). ففي رحلته إلى الشرق، أخذ علي بن زياد عن الإمام مالك وعن أهل العراق أيضا، وهو ما لم يرق لسحنون، فتوجه هذا الأخير إلى عبد الرحمن بن القاسم (ت. 191هـ/806م) وأخذ منه رواية أخرى للموطأ، وهي رواية ابن القاسم، وهي التي أدخلها سحنون إلى إفريقية وأصبحت أكثر شهرة هناك. رحل سحنون أيضا إلى الشرق لتصحيح الأسدية التي كان أخذها أسد بن الفرات (ت. 213هـ/828م) عن ابن القاسم، وتم تصحيحها تحت إشراف هذا الأخير ذاته، لتبرز المدونة، وهنا نلاحظ أهمية الرافد المصري في تكوين المدرسة المالكية القيروانية.

ولئن سعى سحنون وراء آراء الإمام مالك كما خرجت من دماغه، فهذا لا يعني أنه لم تكن له آراء خاصة به، نلاحظ ذلك في المدونة ذاتها، عندما يسوق أحيانا أثرا أو حديثا لرد رأي لمالك أو لابن القاسم، ونلاحظ ذلك أيضا من خلال عدد من فتاويه، إلى حد أن أبا الحسن القابسي (ت. 403هـ/1012م) كان يقول في سحنون والإمام مالك: "لا أقدر أن أخالفهما وأهاب ذلك هبة عظيمة".²¹ فكأننا بالقابسي يضع سحنونا في مستوى الإمام مالك، بل كأننا به يؤكد نوعا من الاستقلالية تمتع بها سحنون تجاه الإمام مالك، وهذا يسمح لنا بالحديث عن شخصية مالكية إفريقية أو قيروانية داخل المذهب المالكي، وهو ما يميز الحديث عن مدرسة مالكية قيروانية.

واعتمادا على عمر الجدي، كان عمل القيروان، أحد أسس المدرسة المالكية القيروانية، يُطبّق في البلاد التونسية، فيما كان عمل فاس يُطبّق في المغربين الأقصى والأوسط.²² على أن المدرسة القيروانية تراجعت أهميتها إثر سقوط القيروان أمام زحف بني هلال في منتصف القرن 5هـ/11م، لاسيما أن علماءها هجروها وتوجهوا نحو فاس أو بعض المدن الساحلية التونسية مثل المهدية، وصفاقس وتونس.

فهذه المدينة الأخيرة تُعتبر أهم وريث لعلم القيروان ولمدرستها الفقهية.

21 - المالكي، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت 1983م، ج 1، ص 353.

22 - عمر الجدي، العرف والعمل في المذهب المالكي، المغرب 1404هـ/1984م، ص 376-377.

3- المدرسة المالكية التونسية

تعود هذه المدرسة في الأصل إلى علي بن زياد التونسي (ت. 183هـ/799م) الذي يُعتبر رائداً في إدخال موطأ الإمام مالك إلى المغرب حوالي سنة 150هـ/767م. وبابن زياد وبروايته للموطأ، وبفتاويه وفتاوي زملائه التونسيين الذين لقوا مالكا، مثل أبي مسعود بن أشرس الأنصاري، وعبد الملك بن أبي كريمة الأنصاري، وعيسى بن شجرة،²³ وبفتاوى تلاميذهم جميعاً، تكوّن ما يمكن التعبير عنه بالمدرسة المالكية التونسية. كانت هذه المدرسة متميزة عن المدرسة المالكية القيروانية. وقد كان علماء القيروان يعترفون بها على الأقل خلال القرن 3هـ/9م. فعندما أجاب محمد بن سحنون (ت. 256هـ/870م) عن مسألة الراعي الذي لا يأتمر بأوامر صاحب الغنم، عرّف في الأوّل برأي ابن القاسم ثم قال: "وقال التونسيون عن علي بن زياد وغيره".²⁴ على أنّ هذا التميّز سنلاحظ آثاره في العهد الحفصي.

فقد أشار روبر بارنشفيك إلى نوع من التنافس آنذاك بين أتباع المدرسة المالكية التونسية وأتباع المدرسة المالكية القيروانية.²⁵ وهذا طبعاً لا يعني أنّ إشعاع المدرسة التونسية على مستوى إفريقية قد تواصل طويلاً بعد وفاة علي بن زياد وطبقته.

فقد توجّهت تلك المدرسة شيئاً فشيئاً نحو الذبول والتهميش وذلك لفائدة المدرسة المالكية القيروانية. وقد كان لهذا التحوّل مظاهر كثيرة. فبعد أن كان أسد بن الفرات (ت. 213هـ/828م) وسحنون يرحلان من القيروان إلى تونس للسمع عن علي بن زياد، أصبح الطلبة يرحلون من تونس إلى القيروان للسمع عن علمائها. مثلاً سمع عبد الله بن غافق (ت. 275هـ/888م) وأحمد بن زيدون عن سحنون.²⁶ بل إنّ أحد تلاميذ علي بن زياد وهو شجرة بن عيسى (ت. 262هـ/875م) ألف أيام قضائه على مدينة تونس، كتاباً في مسائله لسحنون.²⁷ لم يصلنا ذلك الكتاب، بل وصلتنا منه مسائل كثيرة

23 - أبو العرب، طبقات، ص 215-217، 223؛ المالكي، رياض النفوس، ج 1، ص 252-253، 323-324؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، تحقيق مأمون بن محيي الدين الجتّان، دار الكتب العلمية - بيروت 1417هـ/1996م، ط. 1، ص 208.

24 - محمد بن سحنون، الأجوبة، تحقيق حامد العلوي، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس 2000م، ص 436. ولمزيد التوسّع حول هذه المدرسة، انظر مقالنا "مذهب - المذهب المالكي"، في توفيق بشروش (مشرف)، موسوعة مدينة تونس، المطبعة الرسمية - تونس 1999م، ص 417-423.

25 - Brunschvig, R., *op. cit.*, II, p. 297.

26 - تراجم أغلبية، ص 309، 335.

27 - تراجم أغلبية، ص 151. ولي شجرة قضاء تونس أيام قضاء سحنون، وقبله (ابن فرحون، الديباج، ص 208).

مرفوعة بأجوبتها موزعة على أبواب الفقه في النوادر والزيادات ابن أبي زيد القيرواني (ت. 386هـ/996م)²⁸. وصلت تلك المسائل إلى ابن أبي زيد عن طريق "كتاب ابن سحنون"، يعني أن ابن أبي زيد نقل تلك المسائل من كتاب ابن سحنون أو "كتبه". وهنا يطرح سؤال هل استعمل

28 - في كتاب الصلح ورد ما يلي: "ومن كتاب ابن سحنون: وكتب شجرة إلى سحنون، فيمن صالح على نفسه، وعلى أطفال في حق يدعيه..." (ابن أبي زيد القيرواني، النوادر والزيادات، تحقيق جماعي، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1999م، ج. 7، ص 178). وفي كتاب الأفضية، وردت مسألة حول ضيعة سمح فيها سحنون للحاكم ببيعها (ج. 8، ص 178، انظر أيضا ص 369)، وأخرى حول "قوم ادعوا أرضا في مرسى بتونس..." (ج. 8، ص 207)، وأخرى حول خلاف بين ورثة (ج. 8، ص 213)، وأخرى حول توكيل نصراني على ضيعة أبناء مسلم غائب (ج. 8، ص 219)، وأخرى حول عدم قبول الوكيل من المطلوب (ج. 8، ص 237)، ومسألتيان حول الغائب عن ممتلكاته (ج. 8، ص 219، 242)، وأخرى حول اغتصاب الأراضي عند دخول أبي فهر تونس ثم أبي خفاجة (ج. 8، ص 241)، وأخرى حول اغتصاب مقبرة وحرث أرضها (ج. 8، ص 242)، وأخرى حول فريقين من اليهود يتخاصمان على كنيسة (ج. 8، ص 242)، وأخرى منع فيها سحنون ركوب البحر للصيد وربما للجهد البحري أيضا (ج. 8، ص 244-245، 271). وفي كتاب الشهادات، مسألة حول عبيد يغرسون أرضا (ج. 8، ص 369). وفي كتاب الدعوى والبيئات، مسألة حول غصب أرض واعتداء الجند "في هذه الفتنة" (ج. 9، ص 32). وفي كتاب المديان والتفليس في الدين، مسألة حول إمكانية شراء العامل لما يبيعه على غائب أو مفلس (ج. 10، ص 9)، وأخرى حول رجل مُدان يدعي الفقر (ج. 10، ص 11). وفي كتاب اللقطة والضوال والإباق، وردت مسألة حول أربعة دنائير ضائعة (ج. 10، ص 475). وفي كتاب القضاء في الكلا والأبار والأودية والبرك والأنهار توجد مسألة حول واد فاض على أرض قوم وغر مجراه (ج. 11، ص 34). وفي كتاب القضاء في نفى الضرر توجد مسألة حول خلاف بين جارين في بئر أضرت بحائط أحدهما (ج. 11، ص 40)، وأخرى حول توسع مكثري حوانيت محبسة على جامع الزيتونة، شرقه، على حساب الطريق العمومية، وأخرى مشابهة تم أهل حوانيت خاصة (ج. 11، ص 52-53). وفي كتاب الأرحية، وردت مسألة حول خلاف بين صيادين وفلاحين حول مياه واد (ج. 11، ص 73). وفي كتاب القضاء في البنيان، خلاف بين جارين حول حائط، وأخرى حول غرفة مائلة (ج. 11، ص 102، 110). وفي كتاب الشفعة خلاف حول دار مشتركة (ج. 11، ص 147). وفي كتاب القسّم، خلاف حول قسمة دارين بين ورثة (ج. 11، ص 220)، وآخر حول كنز عُثر عليه في مسكن تم اقتسامه (ج. 11، ص 242)، وآخر حول أرض تُباع على ميت لدفع دين (ج. 11، ص 252). وفي كتاب الحبس، خلاف بين بني ليث وبني قريش حول مرعى، وحول إمكانية استلاف السلاح بين رباطين (ج. 12، ص 123). وفي كتاب الصدقات والهبات، مسألة حول وصية رجل لابنيه الصغيرين (ج. 12، ص 156-157)، وأخرى حول بيع ربع تبلغ قيمته 100 دينار، فسمح سحنون للحاكم بالنظر فيها (ج. 12، ص 171-172)، وأخرى حول جدّ دفع لأبناء ولده رقيقا ورثما مقابل دين لهم عليه (ج. 12، ص 236). وفي أبواب الأيمان والعق، خلاف بين أختين حول جارية، نظر فيه الحاكم (ج. 12، ص 501، 504). وفي كتاب المكاتب، وصية بعثت عبيد وهم تجار، وقد نظر الحاكم فيها (ج. 13، ص 102). وفي كتاب أمهات الأولاد، مسألة حول إلحاق ابن جارية أهداها رجل لزوجته في صداقها (ج. 13، ص 138-139)، وأخرى مماثلة (ج. 13، ص 145-146). وفي كتاب القذف، مسألة حول قذف رجل بابن الزانية (ج. 14، ص 364)...

أبرز ما يُستنتج من هذه الفتاوى تنوع المسائل التي تعطينا أخبارا طريفة حول تاريخ مدينة تونس في العهد الأغلبي، وقد كان محمد الطالبي نبّه إلى ذلك عندما حلّل إحدى الفتاوى المأخوذة من نوادر ابن أبي زيد والخاصة بالحرب بمدينة تونس، انظر «Intérêt des œuvres juridiques traitant de la guerre pour l'historien des armées (d'après le Kitab al-Nawadir d'Ibn Abi Zayd), dans Etudes d'histoire ifriqiyenne et de civilisation médiévale, Tunis 1962, p. 105-110.

كما يُستنتج من تلك الفتاوى أهمية حضور وظيفة الحاكم بمدينة تونس، فهو يقضي في قضايا تمّ أحيانا ممتلكات معتبرة مثل الدور والأرضين والعبيد وغيرهم. مع أن سحنون يُقرّ ذلك. وقد اختلف الباحثون في تحديد وظائف الحاكم انظر مقالنا «Pluralisme judiciaire en Occident musulman médiéval et place du cadi dans l'organisation judiciaire», dans Bulletin d'Etudes Orientales, no 63, 2014, p. 57-78, p. 62, note 21.

ابن سحنون كتاب شجرة لينقل منه مباشرة؟ لا تُسَعِّفنا النّوادر بالإجابة عن ذلك. وبالمقابل يرى ميكلوّش موراني أنّ تلك "المسائل الفقهية لم تتوفّر لابن أبي زيد مباشرة، بل من خلال رواية ابن سحنون الذي قد دوّنّها في حلقة أبيه".²⁹ بعبارة أخرى إنّ ابن سحنون لم يستعمل كتاب شجرة بل إنّّه جمع تلك المسائل من فم أبيه وهو يجيب عنها. وبالمقابل، يبدو أنّ محمّد بن عبدوس (ت. 260هـ/873م)، تلميذ سحنون، كان يستعمل كتاب شجرة، بما أنّ ابن أبي زيد عندما نقل منه، قال: "قال ابن عبدوس ومن كتاب شجرة إلى سحنون".³⁰

على أنّ مسائل شجرة لسحنون ربّما تمثّل نوعاً من التّنكّر، من طرف شجرة، لذاتية المدرسة المالكية التّونسية.

من جهة أخرى تنسب المصادر نَشْرَ المذهب المالكي بإفريقية إلى سحنون دون علي بن زياد، وهي في هذا على حقّ. ورواية الموطأ التي عرفت نجاحاً واسعاً هناك هي رواية ابن القاسم التي أدخلها سحنون إلى إفريقية دون رواية ابن زياد. فقد رأينا أنّ هذا الأخير، في رحلته، سمع بالمدينة وكذلك بالعراق، حيث أخذ عن سفيان الثوري (ت. 161هـ/777م)، فبدأ علمه متأثراً بالمنهج العراقي، وهو ما لم يُرقّ لسحنون الذي توجّه إلى الشّرق لإصلاح ذلك، وهو ما ساهم جزئياً في تهميش دور علي بن زياد في تطوّر المذهب المالكي بإفريقية، وبالتالي تهميش المدرسة المالكية التّونسية لفائدة المدرسة القيروانية.

لكنّ هذه الأخيرة تراجعت أهمّيّتها إثر زحف بني هلال، كان ذلك أساساً لفائدة المدرسة المالكية التّونسية.

بدأت أهميّة مدينة تونس في البروز منذ أن أصبحت عاصمة لإفريقية في العهد الموحدّي. إلّا أنّ ذلك لم يرافقه إحياء للمذهب المالكي، لأنّ الموحّدين سعوا إلى نشر مذهبهم الموحدّي على حساب ذلك المذهب، فدخل المذهب المالكي في فترة خمول من منتصف القرن 6هـ/12م إلى منتصف القرن 7هـ/13م. وفي مرحلة لاحقة عرف ذلك المذهب تجديداً نتيجة لتزوّد من روافد متنوّعة نذكر منها:

29 - دراسات في مصادر الفقه، ص 167.

30 - ابن أبي زيد القيرواني، النّوادر، ج 11، ص 34.

- الرّافد المشرقي: ثلاثة علماء استقرّوا بمدينة تونس وكانت لهم رحلة إلى الشرق، وأخذوا أساسا عن علماء شافعيين ومحدّثين، وساهموا في إحياء الدّراسات المالكية، وهم محمد بن شعيب الهسكوري (ت. 664هـ/1265م) الذي ساهم في إصلاح التّعليم المالكي بإفريقية، وأبو علي ناصر الدّين المشدالي (ت. 731هـ/1330م) الذي أدخل مختصر ابن الحاجب إلى إفريقية ونشره بها، وخاصّة أبو القاسم بن زيتون (ولد سنة 621هـ/1224م) الذي أخذ عن الشّافعية وجدّد معارفه في الأصول والحديث، ونشر أعمال فخر الدّين الرّازي بمدينة تونس. واعتمادا على تلك الأصول، جدّد ابن زيتون دراسات الفقه المالكي.³¹

- الرّافد الأندلسي: منذ القرن 7هـ/13م وخاصّة منذ سقوط إشبيلية سنة 646هـ/1248م، بدأ الأندلسيون في التّوافد على إفريقية خاصّة مدينة تونس، وكان ضمنهم عدد من العلماء. ساهم ذلك في دعم النّزعة المعتدلة في المذهب المالكي،³² وفي تجديد الدّراسات المالكية، إلى جانب تنشيط دراسة الحديث.

- الرّافد الإفريقي: المتأّقي من مدينتين: القيروان والمهدية. فالمهدية هي وريثة علم الإمام أبي عبد الله المازري (ت. 536هـ/1141م) المتميّز بانفتاحه على الأدب والشّعر وبمعارضته للتّيّار الصّوفي. وكان من ممثلي ذلك العلم ابن الخبّاز وقاضي الجماعة أبو محمّد عبد الله بن البراء (ت. 737هـ/1336م)، وأبو العبّاس أحمد الليّاني الفقيه الأديب الشّاعر صاحب تقييد المدوّنة (ت. 659هـ/1260م). وقد انتقل أعلام المالكية من المهدية إلى تونس بعد أن تركت الأولى مكانتها كقاعدة للبلاد،³³ وكان من ضمنهم عبد السّلام البرجيني (ت. 630هـ/1232م) الذي أتى من المهدية ليلي قضاء تونس في عهد الوالي الموحد عبد الواحد بن أبي حفص. نفس العملية وقعت بالنّسبة إلى عدد من علماء القيروان الذين انتقلوا إلى مدينة تونس إثر الزّحف الهلالي، أو في فترات لاحقة، مثل البرزلي (ت. 841هـ/1438م) وابن ناجي (ت. 839هـ/1435م).

31 - Brunschvig, R., *op. cit.*, II, p. 289.

32 - انظر كتابنا المذهب المالكي، ص 235-236.

33 - التّجاني، الرّحلة، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدّار العربية للكتاب - ليبيا تونس 1981م، ص 366-381؛ ابن عبد الرّفيق، مُعين الحكّام على القضايا والأحكام، تحقيق محمّد بن قاسم بن عياد، دار الغرب الإسلامي - بيروت 2011، ط. 2، انظر مقدّمة المحقق، ج 1، ص 48-54؛ محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس 1999م، ج 2، ص 695.

-تأثير التجربة الموحدية التي فتحت آفاقا جديدة أمام المذهب المالكي، لاسيما عند تأكيد المذهب الموحد دراسة أصول الفقه من حديث وقرآن، واعتمادهما في الإفتاء.

ورغم أن هذا المنزع التجديدي في المذهب المالكي كان يتدعم بخطى ثابتة، فقد لقي معارضة من بعض العلماء. وبذلك أمكن الحديث، بالنسبة إلى تلك الفترة، عن مجدددين في المذهب المالكي مثل ابن زيتون، وتقليديين مثل القاضي ابن عبد الرّبيع (ت. 733هـ/1333م) وقاضي الجماعة عبد الحميد ابن أبي الدنيا (ت. 680هـ/1286م) الذي كان متمسكا بمدرسة القيروان في الفقه.³⁴ على أن المذهب المالكي خرج من هذا التنافس منتصرا ومدعما، خاصة إثر تربّع علماء المالكية منذ القرن 8هـ/14م على أهمّ المناصب الدينية من إفتاء وقضاء وإمامة صلاة وغيرها، وبذلك أصبحت تونس مركزا هاما للمذهب المالكي مثل تلمسان وفاس.³⁵ وفي هذا الإطار برزت شخصية ابن عرفة.

مثّل ابن عرفة أهمّ حلقة في نقل سند العلم المالكي في عصره، بما أن الطّاعون الجارف قضى على جلّ شيوخه وزملائه، وقد اعترف له معاصره ومنافسه ابن خلدون (ت. 808هـ/1406م) بذلك الدور.³⁶ كما دعم ابن عرفة النزعة التجديدية في المذهب المالكي، ويبرز ذلك من خلال ما يلي:

-انفتاح ابن عرفة على مختلف العلوم من منطق وأصول دين وأصول فقه وتفسير، بل إنّه كان يدرّس هذه العلوم، ويؤلف فيها.

-كانت له اجتهادات مثل اعتراضه على عقد الخماسة الذي يقرّه العمل القيرواني، أو إمكانية دفع زكاة الفطر لأعوان السلطان في أوّل رمضان، بينما يقول التقليد بجمعها في آخر رمضان أو يوم العيد، كما قال بإمكانية إلغاء زكاة الفطر إن لم يوجد فقير ليأخذها.³⁷

ومن جهة أخرى، اعترض ابن عرفة على أقوال عدد من العلماء مثل عبد الرّحمان بن القاسم (ت. 191هـ/806م) وأبي الحسن اللّخمي (ت. 478هـ/1085م) والقاضي عياض (ت. 544هـ/1149م) وغيرهم.³⁸ على أنّه كان في آرائه يميل إلى نوع من التّصلّب، وكان "في نفس الوقت متمسكا بالأورثدوكسية الصّارمة ومحترما للأعراف المحليّة"،³⁹ من ذلك قبوله بالأخذ بزواج القصعة.⁴⁰

34 - محمد حسن، المدينة، ج 2، ص 698-699؛ Brunshvig, R., *op. cit.*, II, p. 290

35 - Brunshvig, R., *op. cit.*, II, p. 291-292.

36 - Ghrab, S., *op. cit.*, II, p. 766.

37 - Idem, II, p. 740-741, 748.

38 - Idem, II, p. 751-754.

39 - Brunshvig, R., *op. cit.*, II, p. 297.

40 - Ghrab, S., *op. cit.*, II, p. 709.

- حرصه الشديد في مختصره الفقهي على ضبط المصطلحات الفقهية وتحديد مفاهيمها، وهو ما يقابل الحدود التي جمعها أبو عبد الله محمد الرّصاع (ت. 894هـ/1489م) في كتاب مستقلّ سمّاه حدود ابن عرفة.

مع ابن عرفة، دخل المذهب المالكي، من جهة تطوّره من النّاحية الفقهية، في دور جديد وهو دور "التّفقه"، ويبرز ذلك من خلال مختصره الفقهي. وبهذه الطّريقة أخذ تلاميذه، مع توسّع فيها، فجاءت نوازل البرزلي (ت. 841هـ/1438م) وشرح ابن ناجي على المدوّنة.⁴¹ وبذلك أمكن لعلماء مدينة تونس وعلى رأسهم ابن عرفة تجديد المذهب المالكي، ولهذا السّبب ميّزهم روبر بارنشفيك من علماء العصر المرابطي، هؤلاء الذين أغرقوا في التّقليد.⁴²

== هذا لم يمنعه من الاعتراض على عمَل جَار بمدينة تونس يتمثّل في عدم تمكين الشّاهد عند إمضاء عقد زواج من رؤية شخص العروس إن كانت من عائلة رفيعة، إذ يقع الاعتماد على شهادة الذين يعرفونها، فيقتصرون على وصفها (Ghrab, S., *op. cit.*, I, p. 332).

من جهة أخرى، عرّفنا الشّيخ محمّد العزيز جعيّط ببعض نماذج من العمل القضائي بمدينة تونس، مثلاً في العمل الفاسي يُتخذ إجراء العُقلة على الشّيء المختلف فيه مباشرة بعد قيام الدّعوى، بخلاف العمل التّونسي الذي لا يقتصر على ذلك (الطّريقة المرضية في الاجراءات الشّرعية على مذهب المالكية، تونس 1940م، ج 1، ص 64). عرّفنا البرزلي أيضاً ببعض أعراف جارية بمدينة تونس، مثل جعل أجرة الشّهود على الزّوج خاصّة (نوازل، ج 3، ص 146)، أو عدم اعتراف القاضي بادّعاء الرّجل الفقير وعليه دين التزم في وثيقته بعدم ادّعاء الفقر (نوازل، ج 4، ص 478). كما اعتبر الشّيخ محمّد الشاذلي النّيفر كتاب ابن ناجي شرح تهذيب المدوّنة للبرادعي، "من أنفس ما كُتب في الفقه المالكي لتحريره العمل التّونسي مع بسطات تاريخيّة" ("تراجم خليل لعظوم والطّرق التّقريبية للفقه"، النّشرة العلميّة بالكلّيّة الرّيتونيّة، عدد 1، 1971م، ص 97-168، ص 121).

41 - يقول الشّيخ محمّد الفاضل ابن عاشور: "إذا كان ابن عرفة قد وقف بهذه الطّريقة عند حدّ التّفقه لا الفقه بحيث إنّه لم يُعطيها أثراً عملياً، فإنّ تلاميذه من بعده، الذين نشأوا على طريقتة، قد جعلوا من هذا التّفقه فقهاً إذ أدخلوا في فتاويهم أو في أحكامهم - ولاسيما الذين تولّوا منصب القضاء منهم - الاختيارات والترجيحات التي كان ابن عرفة يسير عليها كما نرى ذلك في نوازل البرزلي وفي شرح ابن ناجي على المدوّنة..." (المحاضرات، ص 86).

42 - Brunschvig, R., *op. cit.*, II, p.297.

خاتمة

إلى جانب نقاط الشّبه بين سحنون وابن عرفة التي ذكرناها أعلاه، يمكن أن نستنتج نقطة أخرى ترتبط بميلهما إلى نوع من التّصلّب في فتاويهما. ربّما يعود ذلك إلى تقواهما وكذلك إلى نوعية شخصيتيهما. على أنّ سعد غراب فسّر ذلك التّصلّب لدى ابن عرفة بتأثيرات من المذهب الخوارجي الذي كان منتشرًا بالجنوب التّونسي، بما أنّ أصول ابن عرفة تعود إلى تلك المنطقة⁴³.

يمكن اعتبار سحنون مؤسسًا للمذهب المالكي بالقيروان وبالتالي المدرسة المالكية القيروانية. ربّما استفاد في ذلك من مكتسبات المدرسة المالكية التّونسية، على أساس أنّ الشّيخ محمد الشّاذلي النّيفر جعل هذه الأخيرة أصلاً لمدرسة القيروان.⁴⁴ أسّس سحنون تلك المدرسة في بلد كان يسيطر فيه المذهب الحنفي. أمّا ابن عرفة فقد ساهم في دعم تجديد المذهب المالكي، وهو عمل كان سبقه إليه عدد من علماء المالكية منذ بداية العهد الحفصي مثل ابن زيتون.

نشر سحنون المذهب المالكي بإفريقية، بل بالغرب الإسلامي نتيجة لكثرة تلاميذه الأندلسيين،⁴⁵ وكان من العوامل الفاعلة في انتصاره بإفريقية على حساب المذهب الحنفي، وهذا بخلاف ابن عرفة. فقد عاش هذا الأخير في فترة كان المذهب المالكي فيها غالباً بالبلاد، وكلّ ما فعله أنّه ساهم في مزيد تهميش المذهب الموحد الذي بادر الحفصيون بنفسهم في التّخلّي عن بعض مظاهره لاسيما مع السّلاطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني (711-717هـ/1311-1317م). من ذلك أنّه يبدو أنّ ابن عرفة هو أوّل من أسقط عبارة المهدي المعصوم عندما أصبح خطيباً بجامع الزيتونة منذ 772هـ/1370م، ويُحتمل أنّه غيّرّها لتصبح المهدي المعلوم.⁴⁶ ثمّ إنّ المدارس التي بناها الحفصيون، في نظر الأفراد بل، هي مجعولة لتدريس الفقه المالكي إلى جانب العلم النظري للأصول (القرآن والحديث)، فيما رأى روبر بارنشفيك أنّها كانت مخصّصة لتدريس المذهب الموحد.⁴⁷

43 - Ghrab, S., *op. cit.*, II, p. 734.

44 - محمد الشّاذلي النّيفر، "علماء قفصة"، ص 107.

45 - هناك من ذهب إلى أنّ المدرسة المالكية القيروانية أثّرت في المدرسة المالكية الأندلسية وهو غير مستبعد، مثل خليفة بابكر حسن (دراسات في تاريخ المذهب المالكي، مكتبة الزّهراء - مصر 1422هـ/2001م، ط. 1، ص 27) وه. ر. إدريس «) Quelques juristes ifriqiyens de la fin du Xe siècle », dans *Revue Africaine*, 1956, p. 369 (349-373).

46 - Ghrab, S., *op. cit.*, II, p. 646-647.

47 - الفراد بل، الفرق الإسلامية في الشّمال الإفريقي من الفتح العربي حتّى اليوم، ترجمة عبد الرّحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي - بيروت 1981م، ط 2، ص 307.

رغم إسهام ابن عرفة في تطوّر المذهب المالكي من الناحية الفقهية، بإدخاله في دور "التّفقه"، فإنّه لم يُخرج المذهب من بوتقة الاختصار: فمؤلّفات ابن عرفة أتت كلّها تقريبا على شكل مختصرات: المختصر الفقهي، ومختصر الحُوفية، والمختصر في المنطق، والمختصر الشّامل في أصول الدّين، والمختصر في أصول الفقه... هذا طبعا إذا تركنا جانبا تفسيره الذي وصلنا على شكل روايات كتبها تلاميذه مثل أبي عبد الله محمد الأبي (ت. حوالي 828هـ/1425م)، والشّريف السّلاوي، وأبي العباس أحمد البّسيلي (ت. 830هـ/1425م). إذا أضفنا إلى هذا صعوبة أسلوب ابن عرفة في الكتابة، وميل هذا العالم إلى التعقيد خاصّة في حدوده،⁴⁸ يمكن فهم عدم تداول مؤلّفاته لفترة طويلة بعد وفاته.⁴⁹

كلّ هذه العوامل جعلت التقليد يسارع بالعودة إلى المذهب المالكي. ومن مظاهر ذلك أنّ مختصر خليل (ت. 776هـ/1374م)، فرض نفسه بقوة في بلاد المغرب، بل إنّ النّاس تهافتوا عليه "وانقطعوا إليه حتّى جعلوه مرجعهم الأساس لا يتجاوزونه إلى غيره".⁵⁰ كما أنّ دراسة الفقه المالكي خلال القرن 9 هـ/15 م أصبحت محتكرة من قبل بعض العائلات، مثل عائلة القلشاني والرّصاع بتونس، وعائلة عظوم بالقيروان،⁵¹ كلّ هذا يعني أنّ نتائج محاولات ابن عرفة لتجديد المذهب كانت محدودة.

أمّا مدوّنّة سحنون، فقد تبوّأت مرتبة رفيعة، إذ صُنّفت ضمن أمّهات المذهب المالكي، ومثلت حجر الأساس لكلّ المنظومة الفقهية ببلاد المغرب على اختلاف ردهاتها.

كلّ هذه المعطيات، تسمح لنا بالقول إنّ عناصر المقارنة بين الإمام سحنون والإمام ابن عرفة تبدو قليلة التّكافؤ، لأنّ إسهام سحنون في تاريخ المذهب المالكي كان أكثر أهميّة من إسهام ابن عرفة

48 - ذكر محمد الحجوي مثالا يخصّ تحديد مفهوم الذّباح (الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلميّة - بيروت 1995/1416هـ، ج 2، ص 454). بل إنّ أصبح من الصّعب أحيانا على ابن عرفة، في آخر عمره، فهم بعض المواضع من مختصره، كما وقع له في تعريف الإجارة (الحجوي، الفكر، ج 2 ص 293-294).

49 - قال المغربي محمّد القّباب (ت. حوالي 1375هـ/1778م) لابن عرفة فيما يخصّ مختصره الفقهي: "لم تفعل شيئا"، فسأله ابن عرفة عن سبب ذلك، فقال: "لا يفهمه المبتدئ ولا يحتاج إليه المتّهي". (Ghrab, S., *op. cit*, I, p. 380-382) أبدى سعد غراب بعض الاحترازاات حول صحّة هذه الرّواية معتمدا في ذلك أساسا على حجّة التّناسل التّقليدي بين علماء المدرسة المالكية التّونسية وعلماء المدرسة المالكية الفاسية.

50 - عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، منشورات عكاظ - الدّار البيضاء 1987م، ص 136. انظر أيضا Mohamed Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age (XIVe -XVe siècle)*, Paris 1986, p. 284.

51 - Brunschvig, R., *op. cit*, II, p. 297.

في ذلك، وهذا يعني أنّ علاقة سحنون بالمذهب المالكي لم تقتصر فحسب على نشره كما ذكر سعد غراب، بل إنّها كانت أخطر من ذلك، بما أنّ سحنون أسّس المدرسة المالكية القيروانية. أمّا بالنسبة إلى ابن عرفة، فقد ساهم في الانتصار النهائي للمذهب المالكي كما عمّق الدّراسات المالكية ودعّم النزعة التّجديدية في المذهب. إلّا أنّ مفعول هذا الإسهام برز أساساً عن طريق تلاميذه، لاسيّما البرزلي في نوازلهِ وابن ناجي في شرحه على المدوّنة.

التعليل المقاصدي

عند الإمام أبي عبد الله المازري المالكي (ت536هـ)

د. عبد الرزاق وورقية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

الحمد لله الذي أحكم الأحكام وجعلها في مصالح الأنام، والصلاة والسلام على محمد الإمام وعلى آله وأصحابه أهل المحبة والوثام، أما بعد فإن علم المقاصد بما هو علم يبحث فيه عن الغايات والأسرار والمصالح والحكم التي توخاها الشرع من وراء تشريع أحكامه فهو يعتبر الأفق الرحب الذي في إطاره تطور الاجتهاد المصلحي، إذ عبّره استوعبت الألفاظ المتناهية العدد الوقائع غير المتناهية، وعن طريقه استمر الفقه العملي وتطور مواكبا للواقع، مؤطرا وموجها له.

وقد حصّل الأوائل من الصحابة والتابعين الحظ الوافر من هذا العلم، إذ كانوا مقاصديين بالسليقة حيث "عرفوا مقاصد الشريعة فحصلوها وأسسوا قواعدها وأصلوها وجالت أفكارهم في آياتها وأعملوا الجد في تحقيق مبادئها وغاياتها"¹.

وجاء بعدهم الأئمة المجتهدون فاستثمروا ألفاظ الشريعة ما أسعفهم ذلك حتى إذا كثرت الوقائع، وامتد الزمان واحتاجوا إلى عقل المعاني وسبر المقاصد فلاذوا إلى اعتبار المصالح وأسسوا البراهين الشرعية على أساس مصلحي كلي دون مراعاة لأحاد الأدلة عند التعارض.

وقد أسهم أئمة المالكية بقسط وافر في التأسيس لاعتبار المصالح بناء على مذهب إمامهم المقاصدي، وقد درج أغلب الباحثين في علم المقاصد إلى نسبة التأسيس فيه لأصولي الشافعية، وإذ إننا لا ننكر إسهام أصحاب الشافعي في التأسيس للمقاصد بالإشارة العرضية والتأليف الجزئي،

1 - الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان دار ابن عفان الطبعة الأولى 1417هـ/1997م: (7/1).

ولكن ينبغي التنبيه على أن إثارة الشافعية لمباحث المقاصد لم يكن لأجل التوسع فيها وإنما لأجل الضبط والحد والتقييد، كما ظهر من صنيعهم في الدرجة المعتمدة من المصلحة عندهم²، وهذا خلاف ما رآه المالكية من علم المقاصد من توسع وتأسيس للكلية الحاكمة على الجزئيات.

وبإزالة النظر في تطور مباحث المقاصد عند السادة المالكية نجد أنها بنيت عندهم لبنة بعد لبنة فمن الإمام مالك المؤسس والمتوسع في الأدلة المقاصدية من مصلحة مرسلات وسد الذرائع وغيرها، إلى تلامذته الذين خرجوا الأحكام على تلك الأصول المقاصدية مروراً بالباقلاني الذي ميز بين نوعي القصد فجعل منه التكويني والتشريعي، وبالقاضي عبد الوهاب صاحب التعليقات القياسية النوعية، ثم إلى الإمام أبي عبد الله المازري (ت 536هـ) الذي أسهم بلبنة نفيسة في بناء علم المقاصد كما استقلت مباحثه مع الشاطبي مروراً بالقرافي.

وسوف نلاحظ بعد دراسة إسهام المازري أن أغلب المسائل المنهجية التي اكتملت صورتها عند الشاطبي، قد أثارها المازري وناقش فيها أبا المعالي الجويني بنفس مقاصدي تعليلي عز نظيره. حتى أشاد به الشاطبي دون غيره من أقرانه من أئمة المذهب، واعتبره محققاً وإماماً في الفتوى، فبعد ذكر ضرورة معرفة المجتهد مواقع الاختلاف وأقوال الفقهاء في ذلك قال أبو إسحاق في الموافقات: "وكلام الناس هنا كثير وحاصله معرفة مواقع الخلاف لا حفظ مجرد الخلاف ومعرفة ذلك إنما تحصل بما تقدم من النظر فلا بد منه لكل مجتهد وكثيراً ما تجد هذا للمحققين في النظر كالمازري وغيره"³.

وفي هذا المقال سوف أعرض لتلك المسائل حسب الترتيب الآتي:

1. نبذة عن الإمام أبي عبد الله المازري ومكانته العلمية
2. المقصود بالتعليل المقاصدي
3. تسليم المازري بمبدأ التعليل القياسي منه والمقاصدي والعمل بهما
4. إثارة المازري لقضايا منهجية في التأسيس لعلم المقاصد

1. نبذة عن الإمام أبي عبد الله المازري ومكانته العلمية

ترجم صاحب الديباج للإمام المازري معرفاً به قائلاً: "هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري يكنى أبا عبد الله ويعرف بالإمام، نزل المهديّة من بلاد إفريقية. أصله من مازر: مدينة في

2 - هذا الاستنتاج تحصل لدي من طول مقارنة بين المدرستين في التأسيس لعلم المقاصد، ويحتاج إلى بيان مفصل ليس هذا مقامه.

3 - الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تعليق عبد الله دراز، ط: د. ت، دار الفكر العربي: 162/4.

جزيرة صقلية على ساحل البحر وإليها نسب جماعة منهم: أبو عبد الله، هو إمام أهل إفريقية وما وراءها من المغرب وصار الإمام لقباً له رضي الله تعالى عنه فلا يعرف بغير الإمام المازري.⁴

أخذ عن اللخمي وأبي محمد: عبد الحميد السوسي وغيرهما من شيوخ إفريقية، وأخذ عنه بالإجازة: القاضي أبو الفضل: عياض رحمه الله تعالى كتب له من المهدية يحيز له كتابه المسمى بالمعلم في شرح مسلم وغيره من تأليفه.

وفي مكانته العلمية ذكر صاحب الديباج أنه كان آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر، ودرس أصول الفقه والدين وتقدم في ذلك فجاء سابقاً لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه، ولا أقوم لمذهبهم، وسمع الحديث وطالع معانيه، واطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والأدب وغير ذلك فكان أحد رجال الكمال في وقته في العلم وإليه كان يفرع في الفتوى في الطب في بلده كما يفرع إليه في الفتيا في الفقه.⁵

وله مؤلفات نوعية كثيرة، منها: المعلم في شرح صحيح مسلم، وشرح التلقين للقاضي عبد الوهاب، الذي قال عنه صاحب الديباج: "وليس للمالكية كتاب مثله ولم يبلغنا أنه أكمله"⁶، وشرح البرهان لأبي المعالي الجويني وسماه: "إيضاح المحصول من برهان الأصول"، وغيرها في العقائد والأصول...

وتوفي الإمام المازري رحمه الله تعالى سنة ست وثلاثين وخمسمائة وقد نيف على الثمانين.⁷

2. المقصود بالتعليل المقاصدي:

"التعليل: تبين عليّة الشيء"⁸، أي الكشف عن علته، والعلة تطلق في اللغة على المرض والضعف.⁹

4 - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (المتوفى: 799هـ)، تحقيق وتعليق: محمد الأحدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة: (250/2).

5 - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: (251/2).

6 - المصدر نفسه.

7 - نفسه.

8 - معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد إبراهيم عباد، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2004م، مكتبة الآداب - القاهرة، مصر: (ص: 78).

9 - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط 1399هـ - 1979م، دار الفكر: (14/4).

وفي الاصطلاح الأصولي والفقهية يطلق التعليل غالبا على بيان علة الحكم، أي بيان الوصف الذي يناط به الحكم¹⁰، وقد يطلق على الاستدلال في بعض كتب الفروع الفقهية.

ونعني بالتعليل في هذا المقال ما يعنيه أهل الأصول والفقه أي الكشف عن علل الأحكام، والأوصاف الظاهرة المنضبطة الصالحة لترتيب الحكم عليها، ونقله من الأصول المنصوص عليها إلى الفروع غير المنصوص عليها، فإذا كانت العلة جزئية كالتي يبنى عليها القياس عند الأصوليين سمي التعليل قياسيا، أما إذا كانت العلة أو المصلحة كلية أي مقصدا كليا فيسمى التعليل مقاصديا أو مقصديا.

وعلى هذا فالتعليل المقاصدي هو بيان المصلحة الكلية المقصود جلبها من وراء تشريع الحكم، بناء على الأصل في ذلك أن الأحكام شرعت لمصالح العباد.

ولا يمكن الخوض في علم المقاصد عموما إلا بالتسليم بالمقدمة التعليلية التي بموجبها يسلم المقاصدي بأن الله تعالى شرع التكاليف لمصالح العباد تفضلا منه لا وجوبا، على مذهب الأشاعرة.

3. التعليل عند المازري بين القياسي والمقاصدي:

بعد تسليم المازري بمبدأ التعليل وفقا للأشاعرة والمالكية في أصول الفقه، خاض في اعتبار العلل والمقاصد وبناء الأقيسة عليها، وبأقي الاجتهادات المصلحية.

• الانتقال من التعليل القياسي إلى التعليل المقاصدي

كان المازري من الأوائل الذين برهنوا على قاعدة "الشرعية جاءت لمصالح العباد"، حيث قرر أن الشرع ورد بالنظر في مصلحة الناس¹¹. وقد راعى هذا الأصل كثيرا في أحكام المعاملات ومن أمثله: تجويز البيوع والعقود ذات الغرر اليسير مراعاة لقصد الشارع في رفع المشاق عن الناس، كبيع الجزاف والبيع على البرنامج، وإجارة الدار، وحجته الرجوع إلى قصد الشارع في تجويز يسير الغرر وليس كثيره لرفع المشاق عن الناس، قال المازري: "قد ورد الشرع بالنهي عن بيع الغرر، والمراد به كل ما كان فيه تغرير وخطر، لكن الشرع قد عفا عن عقود فيها غرر كما عفا عن عقد إجارة الدار

10 - معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، الطبعة: الثانية، 1408 هـ - 1988 م، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع: (ص: 137).

11 - شرح التلخين، أبو عبد الله المازري المالكي، تحقيق: محمد المختار السلامي، الطبعة الأولى، 2008 م، دار الغرب الإسلامي: 1028/2.

شهرًا مع إمكان كون الشهر تسعة وعشرين يوما أو ثلاثين، وعن الشرب من السقاء مع كون السقاء لا يقف على الحد الذي ينتهي إليه شارب الماء منه، ولم يعف عن بيع الطير في الهواء والسماك في الماء، وما ذاك إلا أن الغرر إذا كان يسيرا غير مقصود فإنه يعفى عنه. وكذلك إذا كان القصد به الارتفاق ورفع المشاق فعفي عن ذكر الدار لأجل أن زيادة يوم على تسعة وعشرين يوما أو عدمه لا يلتفت إليه المتعاقدان. وكذلك أجزنا بيع البرنامج لما في ذلك من الارتفاق ورفع المشاق بنشره وحله وطيه.¹²

وبهذا سينقل المازري التعليل من البناء على المصلحة الجزئية التي يقوم عليها القياس، إلى البناء على المصلحة الكلية التي يقوم عليها التعليل المقاصدي، ومن أمثلة انتقاله من التعليل القياسي إلى التعليل المقاصدي: إبطاله قياس أبي حنيفة بجواز القصر في سفر المعصية على جواز أكل الميتة بناء على مراعاة كلي النفس وهو من الكليات المقاصدية الضرورية، حيث قال: "ونمنع أبا حنيفة من قياسه جواز القصر على جواز أكل الميتة بأن الله سبحانه فرض على الإنسان إحياء نفسه وفرض على العاصي النزوع عن معصيته، فيؤمر المسافر ها هنا بالفرضين جميعا، التوبة والأكل، فإن أبا فعل أحدهما والقيام به فلا يمنعه من القيام بالفرض الآخر، فإن لم يتب هذا المسافر وامتنع من قيام بفرض التوبة فلا يمنعه من القيام بفرض إحياء النفس..."¹³.

• اعتبار المازري التعليل المقاصدي من الأصول إذا اندرج في قوانين كلية

لم يكتف المازري باعتبار التعليل مبحثا كباقي المباحث ذات الثمرة الفقهية، وإنما نقله إلى دائرة الأصول العلمية، مما جعل الشاطبي يعتمد قوله في الرد على الجويني والقاضي الباقلاني في عدم اعتبار تفاصيل العلل... وتفاصيل أحكام الأخبار وغيرها من الأصول، قال في الموافقات: "قال المازري: وعندي أنه لا وجه للتحاشي عن عد هذا الفن من الأصول وإن كان ظنيا على طريقة القاضي في أن الأصول هي أصول العلم لأن تلك الظنيات قوانين كليات وضعت لا لأنفسها، لكن ليعرض عليها أمر غير معين مما لا ينحصر قال: فهي في هذا كالعوم والخصوص، قال: ويحسن من أبي المعالي أن لا يعدها من الأصول لأن الأصول عنده هي الأدلة، والأدلة عنده ما يفضي إلى القطع، وأما القاضي فلا يحسن به إخراجها من الأصول على أصله الذي حكينا عنه هذا ما قال"¹⁴.

12 - شرح التلحين: 17/2.

13 - شرح التلحين: 934/1.

14 - الموافقات: 31/1.

وعلى رد المازري هذا بنى الشاطبي الجواب قائلا: "والجواب أن الأصل على كل تقدير لا بد أن يكون مقطوعا به، لأنه إن كان مظنونا تطرق إليه احتمال الإخلاف، ومثل هذا لا يجعل أصلا في الدين عملا بالاستقراء والقوانين الكلية، لا فرق بينها وبين الأصول الكلية التي نص عليها، ولأن الحفظ المضمون في قوله تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾¹⁵ إنما المراد به حفظ أصوله الكلية المنصوصة وهو المراد بقوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾¹⁶ أيضا لا أن المراد المسائل الجزئية إذ لو كان كذلك لم يتخلف عن الحفظ جزئي من جزئيات الشريعة، وليس كذلك لأننا نقطع بالجواز ويؤيده الوقوع لتفاوت الظنون وتطرق الاحتمالات في النصوص الجزئية ووقوع الخطأ فيها قطعا، فقد وجد الخطأ في أخبار الآحاد وفي معاني الآيات، فدل على أن المراد بالذكر المحفوظ ما كان منه كليا وإذ ذاك يلزم أن يكون كل أصل قطعيا هذا على مذهب أبي المعالي وأما على مذهب القاضي فإن إعمال الأدلة القطعية أو الظنية إذا كان متوقفا على تلك القوانين التي هي أصول الفقه فلا يمكن الاستدلال بها إلا بعد عرضها عليها واختبارها بها، ولزم أن تكون مثلها بل أقوى منها لأنك أقمتها مقام الحاكم على الأدلة بحيث تطرح الأدلة إذا لم تجر على مقتضى تلك القوانين فكيف يصح أن تجعل الظنيات قوانين لغيرها".¹⁷

4. إثارة المازري لقضايا منهجية في التأسيس لعلم المقاصد:

مما لا حظته في تفحص كثير من مباحث المازري في مسلكه التعليلي ألفيته قد أثار الكثير من القضايا المنهجية التي شكلت الأسس العلمية لتقعيد الشاطبي لعلم المقاصد، منها: التواتر المعنوي، وما انبنى عليها من العموم المعنوي، وكذلك الدلالة الاستعمالية... وغيرها من المسائل ذات الأثر المنهجي في مشروع الشاطبي.

• مسألة التواتر المعنوي:

قد قرر المازري أن معجزات النبي مثلا ثبتت بالتواتر المعنوي: "ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم ضروب، فأما القرآن فمنقول تواترا، وأما مثل هذه المعجزة فلك فيها طريقتان: أحدهما: أن تقول تواترت على المعنى كتواتر جود حاتم وحلم الأحنف فإنه لا ينقل قصة بعينها في ذلك تواترا

15 - سورة الحجر، الآية: 9.

16 - سورة المائدة، الآية: 4.

17 - الموافقات: 32/1.

ولكن تكاثرت القصص من جهة الأحاد حتى صار محصولها التواتر بالكرم والحلم، وكذلك تواترت معجزات سوى القرآن حتى ثبت انخراق العادة له صلى الله عليه وسلم بغير القرآن.¹⁸

• مسألة عموم المعاني

من القضايا التي سوف يتأسس عليها الدليل الاستقرائي المقاصدي عند الشاطبي قضية عموم المعاني حيث اعتبره الطريق الثاني للعموم بالإضافة إلى عموم الألفاظ، وكان الإمام المازري من المالكية الأوائل الذين أثاروا هذه المسألة في شرح البرهان في سياق إيراد أوجه العموم: "وأما الوجه الخامس وهو تصور العموم في المعاني" وبعدها أقر أن المسألة خلافية بين الأصوليين، وضح موقف القائلين به وغير القائلين به، ومما أورده في رأي القائلين به قوله: "وتخيل الآخرون العموم (أي في المعاني)، لأن معاني الكلام مستفادة من ألفاظه، فكأن عموم المحذوفات مستفاد من ناحية الألفاظ المسند إليها الحذف، ومن هذا أيضا قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة¹⁹﴾، فإن نفس الميتة لا تحرم وإنما تحرم أفعالنا فيها، وأفعالنا فيها شتى، من بيع، وأكل، واستصباح، وطلاء سفن، إلى غير ذلك مما في معناه، فهل يدعى العموم في هذه المحذوفات حتى يقال: إن الأكل والبيع والاستصباح وطلاء السفن، حرام بعموم: حرمت عليكم الميتة وهذه الأحكام وإن كانت شتى، وهي محذوفة فالعموم مستفاد فيها من ناحية اللفظ.²⁰

فبالرغم من أن المازري لم يستثمر المسألة كما استثمرها الشاطبي فيما بعد، ولكن يكفيه أنه أثارها وبين وجهها، فقبله كان الأصوليون يحسمون الأمر بقولهم المشهور: "العموم من عوارض الألفاظ"، فيسدون الباب أمام عموم المعاني.

• العموم بين الوضعي والاستعمالي:

تعتبر ثنائية العموم الوضعي والعموم الاستعمالي المقصود، من المسائل اللغوية التي بنيت عليها مباحث المقاصد الإلهامية عند الشاطبي، حيث ميز بين العموم الوضعي والعموم الاستعمالي الذي يقصد في معهود النزول، قال في "الموافقات": "إن للعموم الذي تدل عليه الصيغ بحسب الوضع نظرين، أحدهما: باعتبار ما تدل عليه الصيغة في أصل وضعها على الإطلاق...

18 - المَعْلَم بفوائد مسلم، أبو عبد الله المازري، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الطبعة: الثانية، 1988 م، الدار التونسية للنشر: 414/2.

19 - سورة المائدة، الآية: 30.

20 - إيضاح المحصول من برهان الأصول، أبو عبد الله المازري، تحقيق: عمار الطالبي، الطبعة: الأولى، دار الغرب الإسلامي: 271-272.

والثاني: بحسب المقاصد الاستعمالية التي تقضي العوائد بالقصد إليها، وإن كان أصل الوضع توثيق على خلاف ذلك" ²¹.

وقد عرض المازري لهذه الثنائية قبل الشاطبي وأورد الخلاف الواقع في الترجيح بين طرفيها، قال المازري: "تنازع الأصوليون في إجراء الخطاب على ما ليس مقصود فيه، وإن كان بحكم العموم داخلا في اللفظ، هل يحتج به من ناحية شمول اللفظ له، أو لا يحتج به من ناحية عدم القصد إليه..." ²²

ومن الأمثلة التي أوردها المازري: قوله تعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة²³﴾ "هل يحتج بها في زكاة أموال من الذهب والفضة اختلف في زكاتها لأجل دخولها في هذا العموم، أو لا يحتج بذلك؟ لأن القصد ذم من منع حق الله، لا بيان ما يجب فيه حق الله سبحانه مما لا يجب" ²⁴.

ومن الأمثلة أيضا: "تنازع الأصوليين في تعليق الحكم بأسماء الأجناس كقوله عليه السلام: "في الرقة ربع العشر" ²⁵ هل يحتج به في مقادير اختلف في زكاتها أم لا؟ فمن احتج به تعلق بعموم اللفظ، ومن منع الحجة به تعلق بأن القصد ذكر الجنس الذي تعلق به الحكم، لا تفاصيل الحكم" ²⁶

• فك الالتباس في مسألة اشتغال شيء واحد على مصالح ومفاسد:

من القواعد المسلمة عند المقاصديين قاعدة اختلاط المصالح والمفاسد، وتلبسهما، ووجوب فك هذا الالتباس، قال المازري في تقرير قاعدة فك الالتباس في الأشياء المختلطة المنافع بين الممنوع والمباح منها، وبين المقصود منها وغير المقصود: "وربما وقع في هذا النوع مسائل تشكل على العالم فيلحظ المسألة بعين فكرته فيرى المنفعة المحرمة ملتبسا أمرها هل هي مقصودة أم لا؟ ويرى ما سواها منافع مقصودة محللة فيمتنع من التحريم لأجل كون المقصود من المنافع محللا ولا ينشد لإطلاق الإباحة لأجل الإشكال في تلك المنفعة المحرمة هل هي مقصودة أم لا؟ فيقف ها هنا المتورع، ويتساهل آخر فيقول بالكراهة ولا يمنع ولا يحرم ولكنه يكره لأجل الالتباس، فاحتفظ بهذا

21 - الموافقات : 171/2.

22 - إيضاح المحصول: 311-312.

23 - سورة التوبة : الآية 34.

24 - إيضاح المحصول: 312.

25 - أخرجه البخاري حديث رقم : 1454.

26 - إيضاح المحصول: 312.

الأصل فإنه من مذهب العلم ومن قتله علما هان عليه جميع مسائل الاختلاف الواردة في هذا الباب وأفتى وهو على بصيرة من دين الله²⁷.

ولبيان مسلكه في فك هذا الالتباس المحتمل الوقوع بين المصالح والمفاسد في الشيء الواحد، أورد المازري، أمثلة توضيحية، حيث قال: "ويكفيك من أمثلة هذا الباب على اتساعها وكثرتها ما وقع لأصحابنا من الاختلاف في بيع كلب الصيد فإنه من لم يسمع فيه حديث بالنهي عن بيعه واستعمل هذا الأصل خرج له حكمه منه، فيقول: في الكلب من المنافع كذا وكذا، ويعدد سائر منافعه ثم ينظر هل جميعها محرم فيمنع البيع أو محلل فيجيز البيع أو مختلفة فينظر هل المقصود المحرم أو المحلل؟ ويجعل الحكم للغالب على ما بسطناه، أو تكون منفعة واحدة محرمة خاصة، وهي مقصودة فيمنع على ما بيناه، أو ملتبس كونها مقصودة فيقف أو يكره على ما بيناه. والعرض على هذا الأصل هو سبب اضطراب أصحابنا فيه²⁸.

وقد أورد الشاطبي مسلك المازري في معالجة مسألة اجتماع المصالح والمفاسد في شيء واحد وتوجه الأمر والنهي للشيء نفسه، ورد عليه وناقشه قائلا: "ولا يقال إن الذي يساعد عليه الدليل هو الأول فإنه إذا ثبت تأثير الاجتماع وأن له حكما، لا يكون حالة الانفراد فقد صار كل واحد من الأمرين بالنسبة إلى المجموع كالتابع مع المتبوع، فإنه صار جزءا من الجملة وبعض الجملة تابع للجملة، ومن الدليل على ذلك ما مر في كتاب الأحكام من كون الشيء مباحا بالجزء مطلوبا بالكل، أو مندوبا بالجزء واجبا بالكل، وسائر الأقسام التي يختلف فيها حكم الجزء مع الكل وعند ذلك لا يتصور أن يرد الأمر والنهي معا، فإذا نظرنا إلى الجملة وجدنا محل النهي موجودا في الجملة فتوجه النهي لما تعلق به من ذلك، ووجه ما تقدم في تعليل المازري وما ذكر معه لأننا نقول إن صار كل واحد من الجزئين كالتابع مع المتبوع فليس جزء الحرام بأن يكون متبوعا أولى من أن يكون تابعا، وما ذكر في كتاب الأحكام لا ينكر وله معارض، وهو اعتبار الأفراد كما مر، وأما توجيه المازري فاعتباره مختلف فيه وليس من الأمر المتفق عليه في مذهب مالك ولا غيره، فهو مما يمكن أن يذهب إليه مجتهد ويمكن أن لا²⁹.

27 - المعلم بفوائد مسلم: 241/2.

28 - المصدر نفسه: 241/2.

29 - الموافقات: 197/3-198.

خاتمة:

إن الإمام المازري خاض في التعليل المقاصدي والفقهية بخلفية أشعرية مالكية، حيث سلم بأصل التعليل المصلحي، واستنبط مسالك مقاصدية منهجية كالتواتر والعموم المعنويين، وبناء على ذلك خاض في بناء الأصول والفروع الفقهية، مما مهد الطريق العلمي لأعلام المقاصد المالكية لتقعيد العلم، وضبط مباحثه كما هو صنيع الشاطبي في الموافقات الذي استفاد من قواعد المازري كثيرا، وما ورد في هذا المقال مجرد إشارات، وإلا فنظرية التعليل المقاصدي عند المازري تحتاج إلى دراسات موسعة تكشف عن الإسهام المالكي في تأسيس علم المقاصد وترتيب مسأله.

مناهج الفقه المالكي في معالجة قضايا الأسرة

د. فوزية احصاد

صفرو.

لا مرأ أن للمذهب المالكي أهمية تدفع كل باحث لاستحضاره تراثا تشريعيا وفكريا بصم تاريخ الحضارة الإنسانية سواء من حيث بعده التاريخي¹، أو حاضره ومستقبله التشريعي². لذلك، فهو يمثل مرحلة تاريخية هامة في المسيرة التشريعية للمملكة المغربية، بل وعاملا أساسا في الدراسات التاريخية والسوسيولوجية لتاريخ المغرب³. وبذلك، فهو يؤسس لفكر تشريعي متوازن ومعتدل، يوازي بين ما جاءت به النصوص الشرعية من أحكام، وبين ما جادت به آراء الفقهاء من اجتهادات تواكب تطور الأحوال والأوضاع، تحقيقا لخصيصة صلاحية الدين الإسلامي لكل زمان ومكان، وتصديقا لقوله تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»⁴.

وبذلك كان الاجتهاد الفقهي أهم الركائز التي ضمنت المرونة والتطوير لأحكام الفقه الإسلامي عموما، والمالكي على وجه التخصيص، في ظل واقع يشهد تطورات متلاحقة، وما قضايا الأسرة إلا واحدة من المواضيع التي نالت حظها من هذا الاجتهاد، فقعدت لها القواعد وسطرت من أجل حلها الأحكام، وألفت في دراستها النوازل، حيث أصبح الفقه المالكي مؤهلا لاحتضان

1 - فمن حيث البعد التاريخي يمكن القول: إن الفقه المالكي - ومنذ استقراره كمذهب رسمي بالمغرب - شكّل القاعدة التشريعية المحكمة في كافة المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث ظل هو المعتمد في الفتوى والقضاء؛ من خلال الرجوع إلى كتب الفقه المشهورة والاجتهاد وفق أصوله وقواعده. بل حتى مع دخول الاستعمار إلى المغرب، ظل هو المعتمد ولو بشكل جزئي. [لمزيد من التفصيل يراجع كتاب (المذهب المالكي بالغرب الإسلامي)، ذ. نجم الدين الهنتاتي، (مطبعة بئر الزمان - تونس، ط: 2004م)].

2 - أما من حيث حاضره ومستقبله التشريعي: فالفقه المالكي شكل أحد المصادر الأساسية للعديد من النصوص القانونية بالمغرب، سواء كمصدر مادي معتمد في إنتاج القاعدة القانونية وتشكيلها (كمدونة الأحوال الشخصية، مدونة الأسرة، ظهير الالتزامات والعقود، مدونة الحقوق العينية...)، أو كمصدر رسمي تكميلي كالمادة 400 من مدونة الأسرة.

3 - لمزيد من التعمق حول أهمية النوازل في الدراسة التاريخية يرجى مراجعة كتاب (الفتاوى والتاريخ)، ذ. محمد المختار ولد السعد، (دار الغرب الإسلامي، ط: 1: 2000م).

4 - سورة النحل، الآية 89.

ورعاية أحكام الأسرة ونوازلهما، رغم تطور الأوضاع والأحوال، فاحتل بذلك مكانة الصدارة ضمن مصادر القانون والاجتهاد القضائي بالمغرب؛ سواء باعتباره مصدرا ماديا لنصوص المدونة أو مصدرا تكميليا لها. فالراجح والمشهور، وما جرى به العمل من آراء فقهاء المذهب، هي مصدر ومرجع القضاء المغربي قبل إبرام وثيقة الحماية مع فرنسا 1912م.⁵ أضف إلى ذلك أنه فقه غني بأصوله ومصادره وكتبه وقواعده وفروعه ونوازله؛ وتاريخ المذهب بالمغرب ومصادره خير دليل على ذلك.⁶

وإذا كان العديد من مصادر الفقه المالكي قد نال نصيبه من الكشف والتحقيق، فإن منهج هذا الفقه في التعاطي مع قضايا الأسرة خصوصا، لم ينل بعد حظه من البحث والدراسة والتحليل.

من هنا يكتسب موضوع "مناهج الفقه المالكي في معالجة قضايا الأسرة" أهميته وراهنيته، إذ تجد هذه المقالة مبرراتها من أهداف واقعية عملية وعلمية:

❖ فأما الأهداف الواقعية، فترجع إلى ضبط مصالح المسلمين، وتنظيم أوضاعهم مع ما نلاحظه من أوبة شعبية مباركة للاحتكام إلى الشريعة عموما.

❖ وأما العملية، فترجع إلى الإسهام في تطور التشريع، وازدهاره بصفة عامة، عبر معرفة الإضافة النوعية التي سيضيفها الفقه المالكي إلى الاجتهاد القضائي المغربي كحل ناجع للمشاكل الملازمة للتشريع، والمتمثلة في عدم الملاءمة والغموض والقصور.⁷

❖ وأما العلمية، فترجع إلى إيجاد خيط ناظم لمنهج الفقه المالكي في دراسة قضايا الأسرة ومعالجة إشكالاتها، بما يضمن وضع إطار تؤسس على منواله أحكام جديدة مواكبة لتطور المجتمع وفق ضوابط الشريعة التي لا محيد عنها.

ورغم أن قضايا الأسرة لم تكن مستقلة من حيث التجميع والتبويب داخل مؤلفات السادة المالكية⁸، إلا أن المتتبع لها يلحظ أن هناك منهجا ناظما يؤثر معالجتها، ويضمن وحدتها. وهو منهج

5 - دسترة المذهب المالكي لدى المغاربة والفائدة منه، د. أبو عمران البوطيبي، مجلة المذهب المالكي، العدد 12، (صيف 1432هـ- 2011م)، ص 21.

6 - إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، أبو العباس الونشريسي، دراسة وتحقيق أحمد بوطاهر الخطابي، (مطبعة فضالة-المحمدية، ط: 1400هـ-1980م)، ص: 5 في التقديم.

7 - المختصر المفيد: نظرية القانون، عبد الواحد شعير، (مطبعة النجاح، ط: 4: 2004م)، ج 1، ص 140.

8 - حيث يزعم العديد من المتتبعين للحقل الفقهي والقانوني، أن التعامل مع كتب النوازل يتسم بالكثير من الصعوبات، ولزيد من التوضيح يرجى مراجعة كتاب (النوازل الفقهية قيمتها التشريعية والفكرية)، د. الحسن الزين الفلاي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-فاس، ص 55 وما بعدها.

ينبع أساسا من خصائص الفقه المالكي التي تميز بها من جهة، ومن حساسية قضايا الأسرة وأهميتها في بناء المجتمع من جهة أخرى.

وإذا كان مصطلح المنهج أو المنهاج يطلق لغة لوصف الطريق الواضح والبين، فإنني أعني به في هذا المقال، السياق المؤطر لخصوصية تعامل السادة المالكية مع إشكالات ونوازل الأسرة المسلمة. وبذلك، وبعد استقصاء مختلف المؤلفات المالكية، فإن معالجة نوازل الأسرة تتمحور حول المناهج الآتية:

أولا: منهج التجديد والحيوية

الفقه المالكي فقه حي ومتجدد باستمرار، ولعل ما أكسبه هذه الخصيصة هو كثرة أصوله وتنوعها؛ فمن جهة يستند الفقه المالكي على أصول متمثلة في: الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وعمل أهل المدينة، والقياس، والاستحسان، والاستقراء، وقول الصحابي، وشرع من قبلنا، والاستصحاب، والمصالح المرسل، وسد الذرائع، والعرف، والأخذ بالأحوط، ومراعاة الخلاف. بالإضافة إلى القواعد العامة المتفرعة عنها والتي عدت في ألف ومائتي قاعدة تغطي جميع أبواب الفقه ومجالاته. ومن جهة أخرى فإن الفقه المالكي يتميز بتنوع هذه الأصول والمصادر، فهي تتراوح بين النقل الثابت، والرأي الصحيح المستمد من الشرع، والمستند إليه كالقياس. وهذا ما جعل العديد من الفقهاء والمفكرين يصنفون الإمام مالك في سلك مجتهدي أهل الرأي⁹. وتكمن أهمية منهج أهل الرأي في هذا الباب في قوة الإقناع، وضبط مجال الخلاف في المذهب، والقدرة على إلحاق المجهول بالمعلوم عند المساواة في العلة، وهو ما يساعد على استيعاب القضايا المستجدة في مجال العلاقات الإنسانية بمفهومها الواسع¹⁰.

هذه الكثرة، يقول العلامة التاويل¹¹ رحمه الله، أغنت الفقه المالكي وأعطته قوة وحيوية، حيث وضعت بين أيدي علمائه من وسائل الاجتهاد وأدوات الاستنباط ما يؤهلهم لبلوغ درجة الاجتهاد ويمكنهم من ممارسته.

9 - كابين قتيبة في كتاب (المعارف)، (مطبعة ذخائر العرب)، ص 494، وابن رشد وآخرون، تفاصيل ذلك تجدونها في كتاب (المدخل للتشريع الإسلامي)، د. محمد فاروق النبهان، (وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت-لبنان)، ص 254.

10 - مقال بعنوان من (خصائص المذهب المالكي الأصولية)، د. صهيب مصباح، جريدة المحجة، العدد 411، بتاريخ 3 يناير 2014م، الموقع الرسمي لجريدة المحجة على الرابط: www.almahajjafes.net بتصرف.

11 - جاء ذلك في مقال له على الموقع الإلكتروني الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، على الرابط: www.habous.gov.ma، بتاريخ الأربعاء 16 ربيع الآخر 1437هـ الموافق لـ 27 يناير 2016م.

كما أن خصيصة التجديد والحيوية تتمظهر أيضا في أخذه بمبادئ العادة الحسنة والمصلحة المرسلة وسد الذرائع والعرف، فإن هذه الأمور تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، وتسعف على الاجتهاد واستفراغ الوسع لتحصيل الحكم الملائم لتطور المجتمع. وهو ما أبدع فيه المغاربة المالكيون، إذ صنفوا على أساسه ما يسمى فقه العمليات أو ما يعرف بما جرى به العمل¹²: إذ قسم المالكية هذا النوع من الفقه إلى قسمين¹³: "أحدهما سمي تسمية مطلقة ذات شمولية وتعميم لا تحدد بيئة محصورة حيث ظهر مصطلح (العمل المطلق)، وثانيهما العمل المحدود بمكان معين أو مدينة محددة مثل (عمل أهل فاس)، و(أهل سوس)، و(عمل أهل الرباط وسلا) و(عمل أهل مراكش)".

وهكذا، فإن رواد هذا الفقه التجديدي استندوا على المصالح المرسلة وسد الذرائع والعادات الحميدة، لاعتماد أقوال مرجوحة لكن تتناسب مع اختلاف الظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانوا يعيشونها، فأضعفهم ذلك في المحافظة على الهوية الإسلامية والطابع المالكي داخل تشريعاتهم وقضائهم؛ وكمثال على ذلك: قراءة القرآن جماعة، وشهادة اللفيف.

ولأن الفقه المالكي فقه متجدد وحي، فإن هناك من الباحثين من يجد لنظرية الأخذ بما جرى به العمل امتدادا على مستوى القضاء المغربي، حيث يرى الدكتور عبد السلام العسري في مؤلفه "نظرية الأخذ بما جرى به العمل" أن هناك عدة أوجه للتشابه بين قاعدة الأخذ بما جرى به العمل والاجتهاد القضائي¹⁴. وهو رأي يمكن مجارته بالنظر للقيمة العلمية والفكرية والثقافية التي يتميز بها قضاة المجلس الأعلى، وإن كنت أجد أن بصمة المجلس العلمي الأعلى وجب أن تكون حاضرة في اجتهادات محكمة النقض¹⁵، خصوصا في قضايا الأسرة، لما لها من علاقة وطيدة مع محاذير النظام والأمن والسلم الاجتماعي.

12 - هو نوع من أنواع الاجتهاد داخل المذهب مبني على اختيار قول ضعيف لأحد المجتهدين أو المفتين المؤهلين، اختاره مجتهد أو مفت آخر في مقابل قول راجح أو مشهور، ويستند هذا الاختيار إلى أدلة تقوي هذا القول الضعيف. [لمزيد من التفصيل يرجى مراجعة كتاب (التشريع الإسلامي أصوله ومقاصده)، د. عمر الجدي، (منشورات عكاظ، ط1: 1987م)، ص 165].

13 - اصطلاح المذهب عند المالكية، د. محمد إبراهيم علي، (دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث - الإمارات العربية المتحدة، الطبعة 1: 1421هـ-2000م)، ص 397.

14 - نظرية الأخذ بما جرى به العمل في المغرب في إطار المذهب المالكي، د. عبد السلام العسري، م. س، ص 144.

15 - مركز الفقه المالكي في الاجتهاد القضائي الأسري المغربي، د. فوزية احصاد، تقديم د. سعيد المغناوي ود. أنس سعدون، (مركز البصائر للبحوث والدراسات، ط: 2019)، ص 237.

ثانيا: منهج التععيد.

لعل المتتبع والمتصفح لمختلف مؤلفات المالكية يلحظ الجهد الذي بذله السادة المالكية في تععيد أحكام الأسرة بل ونظمها حتى يسهل استعمالها ويتيسر تنزيلها على مختلف الأحوال والنوازل المشابهة. وفي ذكر أهمية القواعد الفقهية يقول العلامة الروكي¹⁶: "وأنها أهم ما أنجزه الفقهاء في كتبهم، وهي لب الفقه وسره، وخلاصته الدالة على عقلية الفقهاء وسعتها وعمقها، وقد بذل الفقهاء من أجلها جهدا كبيرا، وشملوا في ذلك جميع مضامين الفقه، ولذلك فإننا نمتلك ثروة خصبة في هذه القواعد".

ورغم ما يوحى به المصطلح من كون كتب القواعد أشد عناية وأكثر غنى بالقواعد والضوابط، فإن كتب الأقضية والنوازل تعتبر تطبيقا حيا وملموسا لهذه القواعد، بصور حقيقية وواقعية استنجد فيها الفقهاء النوازليون بالقواعد فأبدعوا في التطبيق والتنزيل، وهو ما يسعف على الاجتهاد وفق ضوابط شرعية مبسطة تسمح بمواكبة تطورات المجتمع وما يقتضيه ذلك من سرعة في حل قضايا الأسرة ونوازلها.

وتجدر الإشارة إلى أن قواعد الأسرة تشمل القواعد العامة التي تدخل فيها أحكام الأسرة وإن كانت لم تخصص لها، والقواعد المتعلقة بالعقود (وقد تضمنت جملة من أحكام الأسرة كذلك)، ثم قواعد تتعلق خاصة بباب من أبواب الأسرة مثل النكاح والحضانة والأهلية ونحوها. وبالإضافة إلى أمهات القواعد الفقهية المعتمدة في القضاء مثل: العادة محكمة، اليقين لا يرفع بالشك والمشقة تجلب التيسير، هناك قواعد أخرى تعتمد في القضاء منها¹⁷: حكم الشيء إنما يعتبر بأصله لا بعوارضه، وقرر فيها أن حكم الزواج تعثره الأحكام الخمسة كما قرره الفقهاء إلا أن حكمه الأصلي النذب، وهذه القاعدة قد يطبقها القاضي في معرض دراسة نوازل زواج القاصر، أو المجنون أو المعتوه والسفيه.

16 - القواعد الفقهية لعقد النكاح، د. محمد الروكي، وذلك في مداخلة له خلال الدورة التكوينية في "قواعد فقه الأسرة في المذهب المالكي"، تنظيم مركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي التابع للرابطة المحمدية للعلماء بشراكة مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ومركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة، يومي 01-02 جمادى الثانية 1434هـ، الموافق 12 و13 أبريل 2013م، بمقر مركز البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية بوجدة، تقرير الموقع الرسمي لمركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي، التابع للرابطة المحمدية للعلماء على الرابط <http://www.alfiqh.ma/>. وبحوث هذه الدورة التكوينية مطبوعة في كتاب بعنوان (قواعد فقه الأسرة في المذهب المالكي)، مركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي، (دار الأمان للنشر والتوزيع-الرباط، ط1: 1436هـ-2015م)، ص 191 وما بعدها.

17 - قواعد فقه الأسرة في المذهب المالكي، مركز البحوث والدراسات في الفقه المالكي، م. س، ص 198، وما بعدها.

ثالثا: منهج المرونة والشمول والملاءمة

تتميز الأحكام والقواعد الفقهية المالكية، بعدة مميزات أهمها التزام منهج المرونة والشمول والملاءمة: فمرونتها تبرز في معالجة كثير من القضايا الشائكة والحالات المستعصية، والعمل على حل الإشكالات الطارئة بفضل مبدأ مراعاة الخلاف الذي اتخذته المالكية أصلا من أصولهم الفقهية، ناهيك عن اعتمادهم كثرة الأصول التي سبق الإلماع إليها، والتي كانت ضامنا أساسيا لمرونة أحكامه ومسايرتها لتطورات المجتمع، وهو ما عبر عنه د. أبو زهرة قائلا¹⁸: "فكانت كثرة الأدلة من شأنها أن تجعل المذهب المالكي مرنا في التطبيق".

وأما الشمول، فيتمظهر حول توسعهم في استثمار الأصول المتفق عليها توسعا كبيرا، مما ساعد ويساعد على سد الفراغ الذي يمكن أن يحس به المجتهد عند ممارسة عملية الاجتهاد والاستنباط. وهكذا نجده يستقي من الكتاب والسنة ما يسعفه على إيجاد حلول عقلية وواقعية للنوازل المستحدثة، فلا يكتفي بالنص والظاهر، بل يقبل مفاهيم المخالفة والموافقة وتنبيه الخطاب، كما يقبل دلالة السياق ودلالة الاقتران والدلالة التبعية.

وأما الملاءمة، فتتجلى في ملاءمة أحكام وقواعد الفقه المالكي لظروف المجتمع، وهو منهج انبثق من الأصول المرنة التي بني عليها الفقه المالكي والمرتبطة أساسا بالعادة الحسنة والمصلحة المرسلة وسد الذرائع والعرف الذي لا يخالف الشرع. لذلك نجد أن لكل قاعدة فقهية عامة قواعد تتفرع عنها، تبرز الحكم الفقهي للجزئيات التي يفرزها الواقع المتغير باستمرار، والتي تسمح بتغير الحكم وملاءمته مع هذا الواقع، ولعل أبرز مثال على ذلك، حق الكد والسعاية الذي أبدعت فيه المدرسة المالكية المغربية، فواكبت بذلك تطورات المجتمع المغربي بما يتناسب من أحكام تضمن حقوق جميع الأطراف المساهمة في تكوين أموال الأسرة.

رابعا: منهج الوسطية والاعتدال

لا خلاف أن الوسطية والاعتدال منهج إسلامي أصيل، ينطلق من خصوصية خلق الإنسان المزدوجة (مادة/روح) مصداقا لقوله تعالى: ﴿إني خالق بشر من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾¹⁹. وإذا كان الأمر كذلك فإن كل أمر يلحد عن هذا المنهج يصبح نشازا غير مقبول، لذلك اعتمد الفقه المالكي في جميع أحكامه وقواعده التوسط

18 - مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه، د. محمد أبو زهرة، (دار الفكر العربي - القاهرة)، ص 383.

19 - سورة الحجر، الآية 28-29.

والاعتدال، كيف لا وهو الفقه الغني بأصوله، المتشبه بمقدساته، والمنفتح على الاجتهاد والرأي، قال العلامة التاويل رحمه الله²⁰: "هذا التنوع في الأصول والمصادر والمزاوجة بين العقل والنقل والأثر والنظر، وعدم الجمود على النقل أو الانسياق وراء العقل، هي الميزة التي ميزت المذهب المالكي عن مدرسة المحدثين ومدرسة أهل الرأي وهي سر وسطيته وانتشاره والإقبال الشديد عليه وضرب أكباد الإبل إلى إمامه في أيام حياته".

ومن مخرجات هذا المنهج التوسطي، أن نجد في أحكام الفقه المالكي وقواعده وفروعه فكرا متزنا، لا غلو فيه ولا تنطع ولا تكفير، ولا تفريط ولا تقصير ولا تمرد. إنها ثروة تشريعية لا جمود فيها ولا تعقيد، تنبني على قوله تعالى: «وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»²¹. وهو المنهج الصحيح في الدين الحقيقي بالاتباع في خضم ما يسود العالم اليوم من مظاهر التفسخ والغلو.

خامسا: منهج تعدد الأبعاد ومحورية البعد المقاصدي

لعل أهم ما يميز الفقه المالكي، إضافة إلى ما سلف ذكره، ارتكازه على تعددية فكرية ذات أبعاد مختلفة، منها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو علمي معرفي، ومنها ما هو حقوقي، وكل هذه الأبعاد تدور وجودا وعدما حول البعد المقاصدي الذي يعتبر حلقة وصل، ونقطة تقاطع بينها.

فأما الاجتماعي فيرتكز على حساسية قضايا الأسرة عموما وتقاطعها مع محاذير النظام الاجتماعي، باعتبار مركزيتها في بناء مجتمع سوي ومتوازن، وبناء حضارة إنسانية تنعكس فيها الخصائص الفكرية والوجدانية والسلوكية للمسلم، في إطار من القيم العليا والمبادئ المثلى لسعادة الإنسان. وهناك من الباحثين من تفتن لهذا البعد الاجتماعي في الفقه المالكي، فذكر أن²²: "الغاية الأساسية التي يسعى إلى تحقيقها الفقيه المغربي، هي الوصول إلى مجتمع تسوده الطمأنينة والرخاء والتآلف بين أفراده. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بفقه رصين مبني على أسس متينة، تنطلق من تنظير عالم متبصر بأحكام الشرع وظروف المجتمع، متشبع بالبعد الاجتماعي، تمهيدا لتطبيق حكيم لأحكام الشرع على الوقائع المستجدة."

20 - جاء ذلك في مقال له على الموقع الإلكتروني الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، على الرابط: www.habous.gov.ma، بتاريخ الأربعاء 16 ربيع الآخر 1437هـ الموافق لـ 27 يناير 2016م.

21 - سورة القصص، الآية 77.

22 - البعد الاجتماعي للفقه المالكي بالمغرب، د. محمد رفيق، (مشورات المجلس العلمي - سطات، ط 1: 1431هـ-2010م)، ص 19.

وأما العلمي المعرفي، فيدور حول مؤسس هذا الفقه، الإمام مالك، العلامة المؤسس الحافظ الفقيه والمحدث الذي اشتهر بغزارة علمه وقوة حفظه، ودرايته بنصوص الشريعة الإسلامية وروحها، كما يؤخذ من الحديث الشريف: "فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة".²³ والذي قال عنه الشافعي: "العلم يدور على ثلاثة: مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد".²⁴ فقد كان مثالا في الصبر والذكاء والهيبة والوقار والأخلاق الحسنة. كل هذه الصفات مكنته من صياغة فقه غني بمحتواه المعرفي والعلمي، وما كثرة الأصول التي اعتمدها في صياغة الأحكام وتقعيد القواعد إلا دليل على ذلك.

قال العلامة التاويل في ذلك²⁵: "ومن أجل هذا البعد العلمي المعرفي كان الفقه المالكي أقرب المذاهب الفقهية إلى الكتاب والسنة ... وكان أكثرها صوابا وأصحها قياسا كما قال الشافعي وأرجحها رأيا كما قال الإمام أحمد وأقلها خطأ كما قال ابن خويز منداد. وأحسنها تأويلا وأصوبها جمعا وتوفيقا بين النصوص المختلفة والأدلة المتعارضة. والحديث يشهد لهذا كله، فإن الأعلام والأفقه لا يكون علمه وفقهه إلا هكذا والمتتبع للفقه الإسلامي والفقه المالكي على مستوى الخلاف العالي لا يسعه إلا أن يؤكد صحة هذه الشهادات وصدقها".

وأما البعد الحقوقي فيتجلى واضحا في حفظ الحق، باعتباره اختصاصا يقرر به الشرع سلطة أو تكليفا²⁶، فكان الفقه المالكي بذلك وسيلة لحفظ حق الله، وحقوق النفس، وحقوق الغير، وهو بذلك يشكل مكنة لتحقيق مصلحة قدرها الشارع، وهذه المصالح - حسب د. حميد مسرار - تعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع معا، فإذا تعارضتا جعلت مصلحة الجماعة أولى من مصلحة الفرد.²⁷

ولعل مختلف الأبعاد التي سبق ذكرها، تدور وجودا وعدما حول مفهوم المقاصد الشرعية التي تتقاطع مع جميع الأحكام التي سطرها الفقه المالكي. وفي ذلك قال العلامة التاويل²⁸: "يعتبر

23 - عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة". قال أبو عيسى هذا حديث حسن. [سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (دار الكتب العلمية)، كتاب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، ح 2680، ج 5، ص 47].

24 - تنوير الحوالك على شرح موطأ مالك، السيوطي، (مطبعة إحياء الكتب العربية - مصر)، ج 1، ص 3.

25 - جاء ذلك في مقال له على الموقع الإلكتروني الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، على الرابط: www.habous.gov.ma، بتاريخ الأربعاء 16 ربيع الآخر 1437 هـ الموافق لـ 27 يناير 2016 م.

26 - المدخل الفقهي، مصطفى الزرقا، (دار الفكر)، ج 3، ص 10.

27 - نظرية الحق وتطبيقاتها في أحكام الأسرة، د. حميد مسرار، (دار الكتب العلمية)، ص 81.

28 - جاء ذلك في مقال له على الموقع الإلكتروني الرسمي لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، على الرابط: www.habous.gov.ma، بتاريخ الأربعاء 16 ربيع الآخر 1437 هـ الموافق لـ 27 يناير 2016 م.

الفقه المالكي من أعمق المذاهب الفقهية فهما لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها وأبعادها نظرا واعتبارا لمآلاتها، وأكثرها التزاما بمراعاة حكمها وأسرارها عند استنباط الأحكام من نصوصها، وتفرع الفروع عليها".

كما تعد النوازل المالكية المغربية تطبيقا لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها وأبعادها اعتبارا لمآلاتها، وخاصة فيما يتعلق بالضروريات الخمس: الدين والنفس والمال والعرض والعقل؛ فالنوازليون المغاربة يحرصون أشد الحرص عند تسويدهم للأجوبة والفتاوى على العناية بها. ومن الشواهد على ذلك ما سطره القاضي عياض في نوازله "في امرأة تدعي الغصب: قال بعض الشيوخ بقرطبة: إذا شكت المرأة عند القاضي أن رجلا اختدعها وافتضها، وشهد عند القاضي أن هذا الرجل ممن لا ينسب إليه شيء من هذا لطهارته وحسن حاله، وشهد عنده أنها منسوبة إلى الأذى، جلدت حد الفرية وحد الزنا لإقرارها به. وقال غيرهم: إن لم ترجع حتى جلدت"²⁹. ففي هذه النازلة حكمت القرائن على حساب القاعدة الفقهية: (البينة على المدعي واليمين على من أنكر)، تحقيقا لمقاصد الشرع.

خاتمة:

إن ما سبق بيانه في هذا المقال، يعطي لمحة خاطفة عن بعض المناهج الواجب اعتمادها عند القيام بعملية الاجتهاد باستفراغ الجهد لتحصيل حكم شرعي لنازلة أسرية مستحدثة. ولا أزعم أن هذه المناهج هي على سبيل الحصر، بل قد يجد الباحث العديد من المناهج الأخرى التي تؤثر عملية الاجتهاد باستقراء الأحكام والقواعد الفقهية وكتب الأقضية والنوازل والمختصرات وغيرها. وحسبي في هذا المقام التأكيد على أهمية التنزيل السليم لهذه المناهج في معالجة إشكالات الأسرة المغربية المعاصرة، ومن بينها: نفقة ابن الزنا، ومتعة طالبة التطلق للشقاق، وقضية إثبات النسب... وغيرها من النوازل التي ضاقت بها ردهات المحاكم، ولم يتجاوب معها الفقه المالكي بما يسعف السادة القضاة على تجاوز إشكالية تضارب الاجتهاد، ويحافظ على استقرار المراكز القانونية للأفراد وأمن المجتمع.

29 - مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، القاضي عياض، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، (دار الغرب - بيروت، ط 1: 1997م)، ص 81.

في ختام هذا المقال، أرجو أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه من إمطة اللثام حول موضوع له من الحساسية والفاعلية ما يؤهله لمزيد من الدراسة والتحليل، باعتبار ما يكتنزه الفقه المالكي من ثروة تشريعية مادية ومنهجية، تضفي عليه طابع الحيوية والتجديد، وتجعل منه فقها حيا ومواكبا لتطورات الأسرة، وتغيرات المجتمع.

واعتبارا لذلك، وعطفا على أصوات تنادي بفتح باب الاجتهاد من جديد، بما يتناسب وتغيرات العصر الذي نعيش فيه، وفي إطار الثوابت الدينية التي لا محيد عنها، فإني أجد من الضروري الإيضاء بضرورة تعميق الدراسة في الفقه المالكي، وإيلائه ما يستحق من عناية في البحث العلمي الأكاديمي، مع الاستفادة من مناهجه في التشريع الأسري وحل مشاكل الأسرة، بهدف إبرازه معيارا يؤطر مسألة التعاطي مع قضايا الأسرة، في سبيل الإسهام في تطوير التشريع الأسري وفق ضوابط وقواعد فقهية تمنع من الوقوع في الخطأ، وتحقيق الغاية التي من أجلها شرعت الأحكام والمتمثلة في رعاية مصالح الناس بجلب النفع لهم ودفع الضرر عنهم.

مراعاة ظاهر القرآن عند مفسري مالكية الغرب الإسلامي

ذ. سعيد الشوية
باحث في العلوم الشرعية
تازة.

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه أهل الوفاء والتابعين ومن بهداهم اقتفى. أما بعد، فقد شاءت حكمة الله تعالى أن اختار إنزال كتابه الحكيم بلسان عربي مبين، على أمة عربية أمية، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾¹. ولما كان هذا الاختيار كذلك، لم يخاطب سبحانه وتعالى هذه الأمة العربية إلا بما اعتادته في لغتها الفصيحة، وجرى مجرى المعروف من كلامها؛ ومن ثم وجب فهم هذا الخطاب وفق مقتضى لسانها، وكل فهم لا يوافق المعتاد من كلامها ولا يوجد دليل يقتضي هذا الفهم فهو مردود؛ لأن أخطر ما يهدد النصوص وأشد ما تتعرض له خطراً سوء تأويلها، أي: إخراجها عن معناها المعتاد الظاهر إلى غيره من غير دليل، مع أن الراجح في معناها هو المعتاد الذي يعرفه العرب.

قال الإمام الطبري: «كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذ من لغاتها، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهوماً ووجه معروف»². وقال كذلك: «توجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من اللغات، أولى من توجيهه إلى الأنكر، ما وجد إلى ذلك سبيل»³.

1 - سورة الشعراء، الآيات: 193 - 194 - 195.

2 - جامع البيان للطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ / 2000 م: 322/12.

3 - جامع البيان للطبري: 337/5.

وقال أيضا: «توجيه كلام الله إلى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه كتابه، أولى بنا من توجيهه إلى الأنكر من كلامهم»⁴.

فهذا الأفصح الأشهر هو ظاهر اللفظ المستعمل في الناس والمعروف عندهم، وهذا ما يفهم من كلام الإمام الطبري، فما كان يعبر عنه فيما سبق بالأفصح الأشهر عبر عنه في مناسبات أخرى بالظاهر المستعمل، قال رحمه الله تعالى: «توجيه معاني كتاب الله عز وجل إلى الظاهر المستعمل في الناس، أولى من توجيهها إلى الخفي القليل في الاستعمال»⁵.

ولما كان لسان العرب يعدم فيه النص أو ينذر كما قال الإمام الشاطبي⁶، كان الغالب الذي هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب ظواهر⁷؛ وجب مراعاة هذه الظواهر، أي: المعنى الأغلب والأشهر والأفصح دون الشاذ أو القليل عند تفسير القرآن بمقتضى اللغة؛ لأن القرآن نزل بأفصح لغات العرب وأشهرها، ولهذا امتنع في تفسيره الإعراض عن المعنى الأشهر والأفصح إلى غيره من المعاني الشاذة والقليلة في الاستعمال. وكل من صرف اللفظ عن ظاهره المفهوم منه في اللغة من غير دليل فقد حرفه، ومن حرف اللفظ عن معناه المقصود منه فقد حاد به عن مراد الشارع، وفوت بذلك المقصد الشرعي الذي يروم الشارع تحقيقه من خلاله.

وقصد معرفة كيف تعامل المفسرون مع ظاهر القرآن في تقرير معانيه؟ عقدت العزم بإذن الله تعالى على إنجاز هذه الدراسة التي اقتضت فيها على بعض مفسري مالكية الغرب الإسلامي، والتي قسمتها إلى مبحثين، وقسمت كل مبحث إلى مطالب، وذيلتها بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها. فأفردت المبحث الأول للتعريف بالظاهر وحكم العمل به، وخصصت المبحث الثاني للحديث عن نماذج تطبيقية لمراعاة مفسري مالكية الغرب الإسلامي لظاهر القرآن.

4 - جامع البيان للطبري: 357/8.

5 - جامع البيان للطبري: 309/6.

6 - ينظر: الموافقات للشاطبي، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م: 359/4.

7 - ينظر: أضواء البيان للشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1415هـ/1995م: 269/7.

المبحث الأول: تعريف الظاهر وحكم العمل به.

المطلب الأول: تعريف الظاهر.

لغة: الظاهر خلاف الباطن من كل شيء، وهو البادي والبارز والشاخص والمرتفع، والظهور: بدو الشيء الخفي. والظهور: الظفر بالشيء، والاطلاع عليه⁸.

اصطلاحاً: قسم الأصوليون - وخاصة الحنفية منهم - الألفاظ من ناحية وضوحها إلى أربعة أقسام مختلفة المراتب في قوة الوضوح، منها: الظاهر والنص. لكن بعض المالكية والشافعية والحنابلة جرى على عدم بيان الفرق بين النص والظاهر، فالظاهر عندهم بمعنى النص⁹. وقد أشار الإمام الغزالي إلى ما يفيد ذلك حين ذكر على أن النص اسم مشترك يطلق في تعارف العلماء على ثلاثة أوجه، أولها: ما أطلقه الإمام الشافعي رحمه الله، فإنه سمي الظاهر نصاً؛ وهو منطبق على اللغة ولا مانع منه في الشرع، والنص في اللغة بمعنى الظهور، تقول العرب: "نصت الظبية رأسها" إذا رفعت وأظهرته، وسمي الكرسي منصة إذ تظهر عليه العروس¹⁰. وكلام الإمام الغزالي هذا هو كلام شيخه الإمام الجويني من قبله، الذي نص على أن الإمام الشافعي يسمي الظواهر نصوصاً في مجاري كلامه وكذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، وهو صحيح في أصل وضع اللغة؛ لأن النص معناه في اللغة الظهور¹¹، وهذا ما أكده ابن برهان بدوره¹²، وهو ما ذهب إليه ابن قدامة المقدسي من الحنابلة حين قال على أن اسم النص قد يطلق على الظاهر ولا مانع منه¹³، وهو المختار عنده¹⁴. وهو كذلك مذهب ابن حزم الظاهري الذي قال: «النص هو اللفظ الوارد في القرآن أو السنة المستدل به على حكم الأشياء وهو الظاهر نفسه، وقد يسمى كل كلام يورد كما قاله المتكلم به نصاً»¹⁵.

8 - ينظر: العين للخليل، مادة: (ظهر)، ومقاييس اللغة لابن فارس، مادة: (ظهر)، ولسان العرب لابن منظور، مادة: (ظهر).

9 - أصول السرخسي، تحقيق رفيق العجم، دار المعرفة، بيروت: 163/1، وأصول الفقه لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، مصر، 1427هـ/2006م، ص: 113.

10 - الوجه الثاني: وهو الأشهر، يطلق على ما لا يتطرق إليه احتمال أصلاً لا عن قرب ولا عن بعد، والثالث: يعبر به عما لا يتطرق إليه احتمال مقبول يعضده دليل. ينظر: المستصفي للغزالي، ص: 196، والمنحول له، ص: 243.

11 - ينظر: البرهان للجويني، صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1418 هـ/1997م: 152/1.

12 - ينظر: تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة لابن برهان، تحقيق صالح بن ناصر بن صالح الخزيم، مكتبة الرشد، السعودية، الطبعة الأولى، 1422هـ/2001م، ص: 93.

13 - ينظر: روضة الناظر لابن قدامة المقدسي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1423هـ/2002م: 507/1.

14 - ينظر: مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر للشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة، 2001م، ص: 212.

15 - الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ: 42/1.

فلاشتراك حاصل إذاً في لفظة "النص" كما ذكر الإمام الغزالي¹⁶، وهذا ما أكدته كذلك محمد الأمين الشنقيطي بقوله: «واعلم أن النص قد يطلق على الظاهر أيضاً، ويطلق على الوحي، قد يطلق على كل ما دل»¹⁷، هذه الإطلاقات واردة عند المفسرين في تفاسيرهم، إذ كثيراً ما تتردد عندهم عبارات من قبيل: «نص القرآن»¹⁸، أو «نص الآية»¹⁹، أو «هذه الآية نص في...»²⁰. هذا الاشتراك الحاصل في "النص" لم يسلم منه كذلك "الظاهر"، فقد صار اسماً مشتركاً، كما قال ابن تيمية: «لفظة "الظاهر" قد صارت مشتركة؛ فإن الظاهر في الفطر السليمة واللسان العربي والدين القيم ولسان السلف غير الظاهر في عرف كثير من المتأخرين»²¹. وقال عبد العلي الأنصاري: «أما القدماء فلم يعتبروا التباين [أي: بين أقسام اللفظ المفرد] بل أخذوا في الظاهر مطلق الظهور سواء كان مع السوق أم لا»²².

وقد عرف الأصوليون الظاهر وكذا النص الذي يقابله بتعاريف عدة، منها:

أولاً: قول نظام الدين الشاشي (ت 344 هـ): «الظاهر اسم لكل كلام ظهر المراد به للسامع بنفس السماع من غير تأمل والنص ما سيق الكلام لأجله»²³.

ثانياً: قول أبي الوليد الباجي (ت 474 هـ): «الظاهر كالأوامر والنواهي وغير ذلك مما يحتمل معنيين فزائداً هو في أحدهما أظهر، فإذا ورد وجب حملة على ظاهره إلا أن يدل دليل على العدول عن ظاهره فيعدل إلى ما يوجب الدليل»²⁴.

16 - ينظر: المستصفى للغزالي، ص: 196.

17 - مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر للشنقيطي، ص: 212.

18 - أحكام القرآن لابن العربي: 32/1 - 456/1، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 384/2 - 237/5 - 371/5 - 280/6 - 146/8 - 236/8 - 263/10 - 176/15، والتحرير والتنوير لابن عاشور: 102/1 - 352/7...

19 - المحرر الوجيز لابن عطية: 370/1 - 185/2، وأحكام القرآن لابن العربي: 252/1 - 561/3، والجامع لأحكام القرآن: 351/2، والتحرير والتنوير لابن عاشور: 116/2، وأضواء البيان للشنقيطي: 469/5...

20 - المحرر الوجيز لابن عطية: 378/1 - 401/2، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 76/11، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الغرناطي: 125/1 - 193/1...

21 - مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416 هـ/1995 م: 175/33.

22 - فواتح الرحموت لعبد العلي الأنصاري بشرح مسلم الثبوت لابن عبد الشكور، تحقيق عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1423 هـ/2002 م: 23/2.

23 - أصول الشاشي، ضبط نصه وصححه الشيخ خليل الميس، دار الكتاب العربي، بيروت، 1402 هـ/1982 م، ص: 68.

24 - أحكام الفصول في علم الأصول للباجي، حققه وقدم له ووضع فهرسه عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1415 هـ/1995 م، ص: 196.

ثالثا: تعريف الإمام السرخسي (ت 490 هـ) الذي قال فيه: «الظاهر هو ما يعرف المراد منه بنفس السماع من غير تأمل وهو الذي يسبق إلى العقول والأوهام لظهوره موضوعا فيما هو المراد... وأما النص فما يزداد وضوحا بقرينة تقترب باللفظ من المتكلم ليس في اللفظ ما يوجب ذلك ظاهرا بدون تلك القرينة»²⁵.

رابعا: قال الإمام ابن العربي (ت 543 هـ): «اللفظ الصريح إذا احتمل الشيء وضده فلا يخلو أن يكون احتمالهما سواء أو يكون في أحد المحتملين أظهر فإن كان في أحد المحتملين أظهر فهو الظاهر فلا خلاف في صحة التعليق به في الأحكام»²⁶.

خامسا: تعريف الإمام أبي عبد الله التلمساني (ت 771 هـ) الذي قال فيه: «الظاهر هو اللفظ الذي يحتمل معنيين وهو راجح في أحدهما من حيث الوضع»²⁷.

فالظاهر عند الأصوليين هو كل لفظ احتمل أمرين أو أكثر وكان أحدهما أظهر، أو هو كل كلام ظهر المراد به للسماع بنفس السماع من غير تأمل، أو هو اللفظ الذي يحتمل التأويل. ولما كان الظاهر هو أحد أهم المسائل المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه فإنه لم يقتصر على تعريفه الأصوليون فقط بل عرفه كذلك علماء علوم القرآن، فعرفه الإمام السيوطي باللفظ الذي يقبل معنى ويحتمل غيره إلا أن دلالة على ذلك الغير أرجح، أما النص عنده فهو اللفظ الذي يقبل معنى لا يحتمل غيره²⁸. وقال بدر الدين الزركشي: «وقد يكون اللفظ محتملا لمعنيين وهو في أحدهما أظهر فيسمى الراجح ظاهرا والمرجوح مؤولا»²⁹.

وواضح أن تعريف الظاهر عند هذين العلمين لا يختلف عما دأب عليه جمهور الأصوليين، غير أن استعمال "الظاهر" عند المفسرين في تفاسيرهم قد يكون بمعنى أوسع مما عليه الأمر عند الأصوليين، فالظاهر عندهم «قد يكون تارة هو الظاهر في اصطلاح الأصوليين، وقد يكون أخرى

25 - أصول السرخسي: 163/1 - 164.

26 - المحصول لابن العربي، تحقيق حسين علي اليدري وسعيد فودة، دار البيقار، عمان، الطبعة الأولى، 1420 هـ/ 1999 م، ص: 37.

27 - مفتاح الوصول إلى علم الأصول للتلمساني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417 هـ/ 1996 م، ص: 55.

28 - الإتيان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون طبعة، 1394 هـ/ 1974 م: 9/3.

29 - البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه الطبعة الأولى، 1376 هـ/ 1957 م: 205/2.

هو النص في اصطلاحهم»³⁰، وهذا لا يعني أنهم لا يفرقون بين "الظاهر" و"النص" إطلاقاً، بل نجد منهم من يذكر عبارات تفيد وعيهم بهذا الفرق، فالإمام القرطبي مثلاً تردد عنده عبارة: «قلت: وهو ظاهر القرآن بل نصه»³¹ في أكثر من موضع، كذلك قوله في سياق رده على الإمام ابن العربي في إحدى القضايا الفقهية التي نفى فيها وجود نص ولا ظاهر: «قلت: بل فيه ظاهر يقرب إلى النص»³².

وفي مناسبة حديثه عن آية³³ بعث الحكمين عند حصول الشقاق بين الزوجين، تعجب الإمام القرطبي من قول الإمام الشافعي في هذه المسألة بقوله: «أعجب مرتين للشافعي فإنه قال: الذي يشبه ظاهر الآية أنه فيما عم الزوجين معا حتى يشتبه فيه حالهما...»³⁴، ثم قال مخطئاً هذا الرأي: «أما قوله: (الذي يشبه ظاهر الآية أنه فيما عم الزوجين) فليس بصحيح بل هو نصه، وهي من أبين آيات القرآن وأوضحها جلاء... وهذا إن لم يكن نصاً فليس في القرآن بيان. ودعه لا يكون نصاً، يكون ظاهراً، فأما أن يقول الشافعي: يشبه الظاهر فلا ندري ما الذي أشبه الظاهر؟»³⁵. وفي هذا إشارة إلى أن الإمام القرطبي يفرق هنا بين الظاهر والنص، وأن هذا الأخير عنده أقوى من حيث الدلالة مما قبله.

ونجد كذلك الإمام القشيري المفسر الشافعي يفرق بين الظاهر والنص أيضاً، فبعد أن أورد أبو إسحاق الزجاج تأويلات المفسرين واختلافهم في ذكر الميزان في القيامة في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾³⁶، علّق على هذه الأقوال بأنها كلها في باب اللغة والاحتجاج سائغة، إلا أن الأولى من هذا أن يتبع ما جاء بالأسانيد الصحاح من ذكر الميزان³⁷. وقد استحسن

30 - قواعد الترجيح عند المفسرين للدكتور حسين بن علي بن حسين الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م، ص: 138.

31 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ/1964م: 10/144 - 10/259 - 12/29.

32 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 2/402.

33 - سورة النساء، الآية: 35.

34 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 5/178.

35 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 5/179.

36 - سورة الأعراف، الآية: 7.

37 - ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1408هـ/1988م: 2/319.

الإمام القشيري ما قاله أبو إسحاق، ثم قال: «وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل. وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوفا»³⁸؛ فيستفاد من هذا القول أن الإمام القشيري يفرق بين الظاهر والنص من جهة، ويعتبر أن الظاهر ما يحتمل التأويل، والنص ما لا يحتمله من جهة أخرى.

المطلب الثاني: حكم العمل بالظاهر:

إن المقرر عند العلماء أن الأصل في اللفظ أن يحمل على ظاهره؛ لأنه هو المتبادر إلى الذهن من المعاني، وهو مراد الشارع، ولا يخرج عنه إلى غيره إلا بدليل معتبر، وإن عدم الدليل لزم حمل اللفظ على ظاهره ولا يجوز تجاوزه؛ لأن في مخالفة الظاهر من غير دليل تحريفا للفظ وتفويتا لمقاصده التي يروم الشارع تحقيقها من خلاله؛ لأن «لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع، ولسان العرب يعدم فيه النص أو يندر؛ [لأن] النص إنما يكون نصا إذا سلم عن احتمالات عشرة»³⁹، وهذا نادر أو معدوم، فإذا ورد دليل منصوص وهو بلسان العرب؛ فالاحتمالات دائرة به، وما فيه احتمالات لا يكون نصا على اصطلاح المتأخرين؛ فلم يبق إلا الظاهر والمجمل، فالمجمل الشأن فيه طلب المبين أو التوقف؛ فالظاهر هو المعتمد إذن، فلا يصح الاعتراض عليه؛ لأنه من التعمق والتكلف»⁴⁰.

فالقاعدة عند الأصوليين والمفسرين والفقهاء أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل معتبر يجب الرجوع إليه، وأن حمل اللفظ على ما يطابق الظاهر أولى من حمله على ما يوجب ترك الظاهر؛ لأن في القول بجواز صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل فتح لأبواب الانحرافات والتأويلات الباطلة على مصراعيه، ومعلوم أن ذلك يفضي إلى رفع الشرائع وفساد الدين والدنيا، والتاريخ والواقع يشهدان على أن الظاهر هو أحد أهم المسائل التي زلّ من حاد عن العمل بها من غير دليل معتبر كالمؤولة والمشبهة والمعطلة وغيرهم؛ ولهذا، فلا يصار إلى تأويل الظاهر إلا بعد قيام

38 - كلام الإمام القشيري هذا لم أجده في تفسيره "لطائف الإشارات" في سياق تفسيره للآية ولا في غيرها، ولكن ذكره الإمام القرطبي في تفسيره، وكذا الإمام الشوكاني في تفسيره. ينظر: لطائف الإشارات للقشيري، تحقيق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة الثالثة، دون تاريخ: 520/1، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 165/7، وفتح القدير للشوكاني: 216/2.

39 - هذه الاحتمالات العشرة ذكرها الإمام الشاطبي في المسألة التاسعة من كتاب المقاصد، ومنها: التخصيص والتقييد والنسخ. ينظر: الموافقات: 80/2.

40 - الموافقات للشاطبي، تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م: 359/4.

الدلالة على أنه لا يجوز حمله على ظاهره، فهذا هو الذي لم يزل كل أحد من المتكلمين إلا قال به وعول عليه⁴¹.

وكثيرة هي عبارات العلماء التي تؤكد على ضرورة مراعاة ظاهر القرآن وعدم العدول عنه إلا بدليل، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- قول الإمام الشافعي (ت 204 هـ): «القرآن عربي...، والأحكام فيه على ظاهرها وعمومها، ليس لأحد أن يحيل منها ظاهراً إلى باطن، ولا عاماً إلى خاص إلا بدلالة من كتاب الله، فإن لم تكن فسنة رسول الله تدل على أنه خاص دون عام أو باطن دون ظاهر، أو إجماع من عامة العلماء الذين لا يجهلون كلهم كتاباً ولا سنة»⁴².

- وقول الإمام الطبري (ت 310 هـ): «غير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته»⁴³، وقال كذلك: «والواجب أن يوجه معاني كلام الله إلى الأغلب الأشهر من وجوهها المعروفة عند العرب ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له من حجة خبر أو عقل»⁴⁴.

- وقول ابن عبد البر (ت 463 هـ): «إنما يوجه كلام الله عز وجل إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات وجل الله عز وجل عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطبتها مما يصح معناه عند السامعين»⁴⁵.

- وقال ابن عطية (ت 542 هـ) وهو يرد أحد الأقوال التي خالفت ظاهر القرآن: «وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برئ القرآن منه»⁴⁶.

41 - المحصول للرازي، تحقيق الدكتور طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1418 هـ/1997 م: 343/3، ومفاتيح الغيب له، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420 هـ: 613/30.

42 - اختلاف الحديث للشافعي، دار المعرفة، بيروت، 1410 هـ/1990 م: 592/8.

43 - جامع البيان للطبري: 15/1.

44 - جامع البيان للطبري: 453/18.

45 - التمهيد لابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387 هـ: 131/7.

46 - المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ: 266/2.

- وقال بدر الدين الزركشي (ت794هـ): «كل لفظ احتمل معنيين فهو قسمان: أحدهما: أن يكون أحدهما أظهر من الآخر فيجب الحمل على الظاهر إلا أن يقوم دليل على أن المراد هو الخفي دون الجلي فيحمل عليه»⁴⁷.

- وقال محمد الأمين الشنقيطي: «قد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه إلى المحتمل المرجوح، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول»⁴⁸.

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية لمراعاة مفسري مالكية الغرب الإسلامي لظاهر القرآن.

المطلب الأول: الحرص على موافقة تفسيرهم لظاهر القرآن وعدم العدول عنه إلا بدليل.

لقد حرص مفسرو مالكية الغرب الإسلامي - إلى جانب غيرهم - على مراعاة ظاهر القرآن في تفسيرهم له، وذلك بحمل اللفظ على ما يقتضيه ظاهره، أي: تفسيره بما يتبادر إلى الذهن من معانيه؛ لأن ذلك هو الأصل، ولا يجوز العدول عنه إلا بدليل معتبر يقتضي حمل اللفظ على غير ظاهره، والأمثلة التطبيقية لذلك كثيرة نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

1- في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾⁴⁹. فسر ابن عطية قوله سبحانه: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ بما يوافق ظاهر القرآن، بقوله: «يعني جهنم، هذا ظاهر الآية»⁵⁰، وهو التفسير نفسه الذي ذكره الإمام القرطبي من بعده⁵¹.

2- في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِئُونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁵². قال ابن عطية: «قول عيسى عليه السلام: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تقرير لهم كما تقول افعَلْ كذا وكذا إن كنت رجلاً، ولا خلاف أحفظه في أن الخواريين كانوا مؤمنين، وهذا هو ظاهر الآية»⁵³.

47 - البرهان في علوم القرآن للزركشي: 167/2.

48 - أضواء البيان للشنقيطي: 269/7.

49 - سورة آل عمران، الآية: 12.

50 - المحرر الوجيز لابن عطية: 406/1.

51 - ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 24/4.

52 - سورة المائدة، الآية: 114.

53 - المحرر الوجيز لابن عطية: 260/2.

3 - قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾⁵⁴. قال محمد الطاهر ابن عاشور بأن المقصود بـ "الآيات": «آيات القرآن بقرينة قوله تتلى عليكم وقوله فكنتم بها تكذبون حملا على ظاهر اللفظ»⁵⁵.

4 - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾⁵⁶. فسر محمد الأمين الشنقيطي هذه الآية بما يقتضيه ظاهرها، حيث أكد على أن ظاهر هذه الآية الكريمة من سورة (الحديد)، الذي لا ينبغي العدول عنه، هو أن الخطاب فيها عام لجميع هذه الأمة، وليس في خصوص مؤمني أهل الكتاب، كما في آية (القصص). ثم أضاف على أن القول بعمومه هو الصواب والتحقيق إن شاء الله تعالى؛ لظاهر القرآن المتبادر الذي لم يصرف عنه صارف. ورد قول من حمّله على الخصوص كما في آية (القصص)؛ لأن ذلك خلاف ظاهر القرآن، فلا يصح الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه⁵⁷؛ ولأن «المعروف عند أهل العلم: أن ظاهر القرآن المتبادر منه، لا يجوز العدول عنه، إلا لدليل يجب الرجوع إليه»⁵⁸.

المطلب الثاني: ترجيح الأقوال الموافقة لظاهر القرآن وتأيدها.

إن مراعاة ظاهر القرآن من القواعد التي نجدتها حاضرة بقوة ضمن المعايير المعتبرة في الترجيح عند العلماء، قال ابن دقيق العيد: «الفقهاء لما رجح بعضهم بعض الروايات على بعض احتاجوا إلى ذكر سبب الترجيح، فتارة يرجحون بموافقة ظاهر القرآن، وتارة بكثرة الرواة، وتارة يكون بعضها موصولا وبعضها موقوفا، وتارة بالموافقة للأصول»⁵⁹، ونجد الإمام مالك يقدم ظاهر القرآن على السنة النبوية، وقال الحجوي الثعالبي: «ظاهر القرآن عند مالك مقدّم على صريح السنة»⁶⁰، وقال كذلك: «ظاهر القرآن عنده مقدم على خبر الواحد الصريح الصحيح ما لم يعتضد بالعمل»⁶¹.

54 - سورة المؤمنون، الآية: 106.

55 - التحرير والتنوير لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ: 127/18.

56 - سورة الحديد، الآية: 27.

57 - ينظر: أضواء البيان للشنقيطي: 236/6.

58 - أضواء البيان للشنقيطي: 236/6.

59 - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، بدون طبعة، وبدون تاريخ: 359/1.

60 - الفكر السامي للحجوي الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/ 1995م: 455/1.

61 - الفكر السامي للحجوي الثعالبي: 531/2.

والترجيح بظاهر القرآن عند التعارض من بين المرجحات المعتبرة عند المفسرين، فإذا وقع النزاع في معنى لفظ من ألفاظ القرآن فالأولى عندهم حمله على ظاهره، ما لم يدل دليل على عدم إرادة هذا الظاهر، قال الإمام الطبري: «إذا تنوزع في تأويل الكلام، كان أولى معانيه به أغلبه على الظاهر، إلا أن يكون من العقل أو الخبر دليل واضح على أنه معنيٌّ به غير ذلك»⁶². والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

1 - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾⁶³. أورد ابن العربي في سياق تفسير هذه الآية، وخاصة في المسألة الأولى التي أفرد بها لبيان المقصود بالزوجة في هذا النص القرآني، والتي ذكر في معناها قولين: أحدهما: أن المراد بذلك حواء الأم الأولى، الثاني: أن المراد بهذا جنس الآدميين. ورجح ابن العربي هذا القول الأخير واعتبره أشبه بالحق وأقرب إلى الصواب؛ لأنه المعنى الموافق لظاهر القرآن، وذلك بقوله: «وهذا القول أشبه بالحق، وأقرب إلى الصدق، وهو ظاهر الآية وعمومها الذي يشمل جميع متناولاتها، ويسلم فيها الأنبياء عن النقص الذي لا يليق بجهال البشر، فكيف بسادتهم وأنبيائهم»⁶⁴.

2 - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾⁶⁵. في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾، دافع ابن العربي بقوة عن المماثلة بين النعمة والبدنة ورد على من يقول بغير ذلك، فقال: «قلنا: هذا مزلق ينبغي أن يتثبت فيه قدم الناظر قليلا، ولا يطيش حلمه، فاسمع ما نقول، فلا خفاء بواضح الدليل الذي قدمناه من كتاب الله، وليس يعارضه الآن ما موهوا به من أن النعمة لا تماثلها البدنة؛ فإن الصحابة قضوا بها فيها، وهم بكتاب الله أفهم، وبالمثل من طريق الخلقة والمعنى أعلم، فلا يتوهم متوهم سواه إلا وهم، ولا يتهمهم في قصور النظر، إلا من ليس بمسلم»⁶⁶.

62 - جامع البيان للطبري: 237/12.

63 - سورة الأعراف، الآية: 189.

64 - أحكام القرآن لابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1424هـ/2003م: 355/2.

65 - سورة المائدة، الآية: 97.

66 - أحكام القرآن لابن العربي: 81/2.

ثم قال كذلك: «والدقيقة فيه أن مراعاة ظاهر القرآن مع شبه واحد من طريق الخلقة أولى من إسقاط ظاهر القرآن مع التوفر على مراعاة الشبه المعنوي؛ هذا ما لا يستقل بدركه في مطرح النظر إلا نافذ البصيرة والبصر»⁶⁷.

3 - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾⁶⁸. فسر الإمام القرطبي ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بأنه هو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف. ثم ذكر قول القشيري في معنى الآية وأيده لموافقته لظاهر القرآن، وذلك بقوله: «قال القشيري: والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت. قلت: وهو ظاهر القرآن بل نصه»⁶⁹.

4 - قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾⁷⁰. اختلف المفسرون في ضمير "هم" في قوله تعالى: ﴿بَعْدِهِمْ﴾، على من يعود، وقد ذكر الإمام القرطبي قولين في هذه المسألة، رجع أحدهما لأنه ظاهر القرآن، كما يبدو من قوله في تفسير هذه الآية: «أي: من بعد الرسل. وقيل: الضمير لموسى وعيسى، والاثنان جمع. وقيل: من بعد جميع الرسل، وهو ظاهر اللفظ»⁷¹.

5 - في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾⁷²، قال ابن جزى الغرناطي بأن معنى قوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يحتمل أمرين: الأول: أن يكون توليه عنهم وقوله لهم حين عقروا الناقة قبل نزول العذاب بهم؛ لأنه روي أنه خرج حينئذ من بين أظهرهم، والثاني: أن يكون ذلك بعد أن هلكوا. ورجح ابن جزى هذا الاحتمال الثاني؛ لأنه ظاهر الآية، وعلى هذا خاطبهم بعد موتهم على وجه التفجع عليهم⁷³.

67 - أحكام القرآن لابن العربي: 81/2.

68 - سورة الحج، الآية: 21.

69 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 29/12.

70 - سورة البقرة، الآية: 251.

71 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 265/3.

72 - سورة الأعراف، الآية: 78.

73 - ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى: 294/1.

6- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾⁷⁴. ذكر ابن جزى الغرناطي في سياق تفسير هذه الآية، وخاصة قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾، احتمالين اثنين لمعنى هذه الكلمة، رجح ثانيهما لموافقته ظاهر القرآن، وذلك بقوله: «وسبح يحتمل أن يريد بالتسبيح الصلاة، أو قول سبحان الله وهو ظاهر اللفظ بحمد ربك في موضع الحال»⁷⁵.

7 - قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾⁷⁶. اختلف العلماء في المقصود بـ (آزر) اختلافا كبيرا، وقد ذكر ابن عاشور أقوالا عديدة في معنى هذه الكلمة، عند بعض أهل السنة والجماعة من مفسرين ولغويين، وفي كتب الإسرائيليين، وناقش أغلب هذه الآراء وهونها وردوها، والذي ترجح عنده أن آزر هو أبو إبراهيم؛ لأنه ظاهر الآية، حيث قال: «آزر: ظاهر الآية أنه أبو إبراهيم. ولا شك أنه عرف عند العرب أن أبا إبراهيم اسمه آزر فإن العرب كانوا معتنين بذكر إبراهيم عليه السلام ونسبه وأبنائه. وليس من عادة القرآن التعرض لذكر أسماء غير الأنبياء فما ذكر اسمه في هذه الآية إلا لقصد... ولم يذكر هذا الاسم في غير هذه الآية»⁷⁷.

المطلب الثالث: رد الأقوال التي خرجت باللفظ القرآني عن ظاهره.

إن "مراعاة ظاهر القرآن وعدم العدول عنه إلا بدليل" من القواعد التفسيرية التي احتكم إليها مفسرو مالكية الغرب الإسلامي كثيرا في رد الأقوال والتفسيرات والتأويلات البعيدة كل البعد عن ظاهر الآية، والتي خرجت باللفظ عن ظاهره بدون دليل يقتضي ذلك. ويمكن أن نذكر العديد من النماذج التطبيقية على سبيل التمثيل لا الحصر:

1 - اختلف المتأولون في تفسير "بروج" في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾⁷⁸، قال ابن عطية بأن الأكثر والأصح أنه أراد البروج والحصون التي في الأرض

74 - سورة طه، الآية: 128.

75 - التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ: 16/2.

76 - سورة الأنعام، الآية: 75.

77 - التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور: 310/7.

78 - سورة النساء، الآية: 77.

المبنية؛ لأنها غاية البشر في التحصن والمنعة، فمثل الله لهم بها، ثم ساق بعض أقوال المفسرين في معنى هذه الكلمة، قال قتادة: المعنى في قصور محصنة، وقاله ابن جريج والجمهور، وقال السدي: هي بروج في السماء الدنيا مبنية، وحكى مكي هذا القول عن مالك، وحكى النقاش عن ابن عباس أنه قال: في بروج مشيدة، معناه في قصور من حديد⁷⁹. وقد استبعد ابن عطية هذا القول الأخير؛ لأن ظاهر اللفظ لا يعطيه، وذلك بقوله: «وهذا لا يعطيه اللفظ، وإنما البروج في القرآن إذا وردت مقترنة بذكر السماء بروج المنازل للقمر وغيره على ما سمتها العرب وعرفتها»⁸⁰. وفي سياق تفسير نفس الآية حكى الإمام القرطبي كذلك عدة أقوال في معنى "بروج مشيدة"، ختمها بقول ابن عباس السالف الذكر "في قصور من حديد"، وردّ هذا القول بما قاله ابن عطية فقال: «قال ابن عطية: وهذا لا يعطيه ظاهر اللفظ»⁸¹.

2 - قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾⁸²، «أي: لا تبدلوا الشاة السمينية من مال اليتيم بالهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالزيف. وكانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتخرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالرديء من أموالهم... فنهاهم الله عن ذلك. وهذا قول سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك، وهو ظاهر الآية»⁸³. فأخذ الإمام القرطبي بهذا القول لأنه ظاهر الآية، ورد ما خالف ظاهرها، فقال: «وقال ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث، وقال عطاء: لا تربع يتيملك الذي عندك وهو غر صغير. وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية، فإنه يقال: تبدل الشيء بالشيء أي أخذه مكانه، ومنه البدل»⁸⁴.

3- تحدث ابن العربي في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾⁸⁵، عن حكم كون الجاني أحد الحكمين، حيث نصّ على عدم جواز كونه كذلك، وفاقا للإمام أبي حنيفة، وخلافا

79 - ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية: 80/2.

80 - المحرر الوجيز لابن عطية: 81/2.

81 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 283/5.

82 - سورة النساء، الآية: 2.

83 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 9/5.

84 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 10/5.

85 - سورة المائدة، الآية: 97.

للإمام الشافعي في أحد قوليّه، وقد ردّ ابن العربي على هذا الأخير قوله بجواز كون الجاني أحد الحكمين، معتبرا ذلك تساهلا منه وإخراجا للفظ عن ظاهره وإفسادا للمعنى، وذلك بقوله: «وقال الشافعي في أحد قوليّه: يجوز أن يكون الجاني أحد الحكمين، وهذا تسامح منه؛ فإن ظاهر الآية يقتضي جانبا وحكمين، فحذف بعض العدد إسقاط للظاهر وإفساد للمعنى؛ لأن حكم المرء لنفسه لا يجوز، ولو كان ذلك جائزا لاستغنى بنفسه عن غيره؛ لأنه حكم بينه وبين الله»⁸⁶.

4- قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ﴾⁸⁷. ساق ابن العربي في مناسبة تفسير هذه الآية اختلاف العلماء في طرفي مدة التكبير، والتي أوصلها إلى أزيد من أربعة أقوال، رد منها ما خالف ظاهر اللفظ بدون دليل، إذ قال: «فأما من قال: إنه يكبر عرفة ويقطع العصر يوم النحر فقد خرج عن الظاهر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ وأقلها ثلاثة، وقد قال هؤلاء: يكبر في يومين؛ فتركوا الظاهر لغير دليل ظاهر»⁸⁸، وقال كذلك: «وأما من قال يوم عرفة وأيام التشريق فقال: إنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾، فذكر عرفات داخل في ذكر الأيام، وهذا كان يصح لو قال يكبر من المغرب يوم عرفة؛ لأن وقت الإفاضة حينئذ، فأما قبل ذلك فلا يقتضيه ظاهر اللفظ»⁸⁹، وقال أيضا: «وأما من قال: يكبر يوم عرفة من الظهر، فهو ظاهر في متعلق قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾، لكن يلزمه أن يكون من يوم التروية عند الحلول بمنى»⁹⁰. وخلاصة ما انتهى إليه ضمنها في قوله: «والتحقيق أن التحديد بثلاثة أيام ظاهر، وأن تعيينها ظاهر أيضا بالرمي»⁹¹.

86 - أحكام القرآن لابن العربي: 195/2.

87 - سورة البقرة، الآية: 201.

88 - أحكام القرآن لابن العربي: 200/1.

89 - أحكام القرآن لابن العربي: 200/1.

90 - أحكام القرآن لابن العربي: 200/1.

91 - أحكام القرآن لابن العربي: 200/1.

خاتمة:

وأختم مقالتي هاته ببعض النتائج المتوصل إليها، والتي أذكر منها:

- أن الظاهر يستعمل تارة عند المفسرين بمعنى أوسع مما عليه الأصوليين، وهذا لا يعني أنهم لا يفرقون بين الظاهر والنص.
- أن الواجب حمل اللفظ على ظاهره؛ ولا يجوز العدول عنه إلى غيره إلا بدليل أقوى منه.
- أن مفسري مالكية الغرب الإسلامي يفسرون ألفاظ القرآن بما يوافق ظاهره، ما لم يدل دليل على خلاف ذلك.
- أنهم يعتمدون كثيرا على ظاهر القرآن في إثبات الأقوال الموافقة له ورد ما خالفه، والترجيح بينها بالاستناد إليه.

تدبير الخلاف بمراعاة الخلاف عند المالكية

ذ. محمد حسني

باحث، ميسور.

الحمد لله الذي خلق الناس أجناسا مختلفين، ولحكمة يعلمها اقتضت ذلك، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة، والصلاة والسلام على من جعل اختلاف أمته في المشروع رحمة وسعة، ورفعنا للعت والمشقة، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، وبعد،

فإن من سماحة الشريعة الإسلامية ومرونتها، أن أحكامها التشريعية لم تكن كلها قطعية لا مجال للاختلاف فيها، بل اقتضت حكمته سبحانه، أن توجد في الوحي قرآنا وسنة نصوص ظنية هي مجال للنظر والتدبر لذوي الألباب والحجى، وللراسخين في العلم من العلماء الربانيين... وفق ضوابط، ومقاييس، ومعايير، كي لا تزيع الأفهام والآراء عن قصد الشارع ومقصود المكلف، ولا عن مصالح العباد في المعاش والمعاد.

وحماية للألفة، والمحبة، والود، والأخوة الإيمانية، ولتضييق الهوة وردمها أحيانا، عد المالكية «مراعاة الخلاف» أصلا من أصول المذهب، وقاعدة أساسية تنفرع عن أصل «مراعاة المآل» وآلية من آليات تدبير الخلاف والاختلاف، خارج المذهب وداخله. تجنبنا للتعصب، واعترافا برأي المخالف، وقوة دليله وحججه.

كما يعد باب الطهارة في العبادات والمعاملات المالية في الفقه الإسلامي من أوسع الأبواب وأدقها في مختلف المذاهب عموما، والفقه المالكي خصوصا، لذا تشعبت أحكامها وفروعها الفقهية، وتعددت فيها الآراء والفهوم بين الفقهاء، تارة وفقا وأخرى اختلافا، حسب أدلة كل مذهب نقلية كانت أم عقلية، وأسباب أخرى موضوعية، لا عن هوى وتشه...

لهذه الغايات وغيرها، حُكِّم المالكية هذه القاعدة، وهذا الأصل في عدد لا يحصى كثرة من الفروع الفقهية في أبوابها المختلفة، عبادات ومعاملات؛ وتبيننا لما سبق، وإبرازا لسماحة هذا المذهب

وأتباعه، سأتناول ضمن هذا العنوان بعض المسائل من الأحكام الفقهية التي بنيت في المذهب المالكي على أصل «مراعاة الخلاف»، تدبيرا للاختلاف، والخروج منه أحيانا.

أولا: مفهوم "مراعاة الخلاف".

قال الشيخ ابن عرفة رحمه الله: "هو إعمال دليل في لازم مدلوله الذي أعمل في نقيضه دليل آخر"⁽¹⁾.

ثانيا: نماذج تطبيقية من أحكام الطهارة.

✓ الماء القليل إذا وقعت فيه نجاسة يسيرة.

الماء القليل إذا وقعت فيه نجاسة يسيرة ولم تغير أحد أوصافه، "قال مالك في الكتاب أي في المدونة، مطهر... وقال ابن القاسم في الكتاب أيضا: يتييم المكلف ويتركه، وإن توضأ وصلى ولم يعلم، أعاد في الوقت، فحمل أبو الحسن قوله- أي قول ابن القاسم- على التنجس لإباحته التيمم، والإعادة في الوقت مراعاة للخلاف، وحمله ابن رشد في «المقدمات الممهدات» على الكراهة، لتخصيصه الإعادة بالوقت، والتيمم مراعاة للخلاف."⁽²⁾

أي مراعاة للخلاف في الماء اليسير تحله النجاسة اليسيرة عنده، فقد تحصل عن مالك في ذلك ثلاثة أقوال⁽³⁾:

- النجاسة تفسده،

- إنها لا تفسده، إلا أن يتغير أحد أوصافه،

- إنه مكروه، لأنه تعافه النفوس "وكل ما يعاف طبعاً يكره شرعاً".

ومراعاته- أيضا- للخلاف خارج المذهب، فقد قال الحنفية والشافعية: إن كان قليلا كان نجسا، وإن كان كثيرا لم يكن نجسا، وهؤلاء اختلفوا في الحد بين القليل والكثير... وقال الظاهرية: هو طاهر سواء كان كثيرا أو قليلا، وهي إحدى الروايات عن مالك.⁽⁴⁾

1 - شرح حدود ابن عرفة- باب في رعي الخلاف- ص: 177.

2 - الذخيرة للإمام القرافي- الباب الأول في الطهارة، ج 1/ ص 173. - بتصرف.

3 - بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد الحفيد- الباب الثالث في المياه- ج 1، ص 30، بتصرف.

4 - المرجع نفسه - ج 1، ص 17. بتصرف.

وحاصل هذا جعل الإمام ابن القاسم يأمر المتوضئ بهذا الماء بالإعادة في الوقت وإن كان يرى أنه نجس، فهذا يقتضي منه أن يأمره بالإعادة أبداً، لكن لم يفعل مراعاة للخلاف.

✓ الماء المستعمل.

قال الإمام القرافي رحمه الله (ت686هـ): "الماء المستعمل في الحدث إذا لم يكن على الأعضاء نجاسة ولا وسخ، قال مالك في الكتاب- المدونة- لا يُتوضأ بهاء تُوضئ به مرة، قال ابن القاسم (ت191هـ) إن لم يجد غيره توضأ. من التنبهات- للقاضي عياض-: حمل قول مالك غير واحد من شيوخنا على وجود غيره، فإذا وجد غيره، فما قاله ابن القاسم، فهما متفقان، وعلى ذلك أكثر المختصرين. وقال ابن رشد الحفيد (ت595هـ): هما مختلفان، وقال في كتاب ابن القصار (ت398هـ) - أي عيون الأدلة - يتيمم من لم يجد سواه، قال ابن بشير (ت198هـ) المشهور أنه مطهر مكروه للخلاف فيه، وقيل: طاهر غير مطهر... " (5)

فالماء المستعمل في الطهارة، اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال (6):

- قوم لم يميزوا الطهارة به على كل حال، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة.
 - قوم كرهوه ولم يميزوا التيمم مع وجوده، وهو مذهب مالك وأصحابه.
 - قوم لم يروا بينه وبين الماء المطلق فرقاً، وبه قال أبو ثور، وداود الظاهري وأصحابه.
- وتفرد أبو يوسف صاحب أبي حنيفة فقال: نجس.

ومراعاة للخلاف قال المالكية بكراهته، ومما تعافه النفوس، و" كل ما يعاف طبعاً يكره شرعاً".

✓ التطهر بالفضلة.

عللت كراهة الاستعمال بعلل ست (7):

أولها: لأنه أديت به عبادة،

ثانيها: لأنه رفع به مانع،

5 - الذخيرة للإمام القرافي - الباب الأول في الطهارة - ج1، ص174.

6 - بداية المجتهد ونهاية المقتصد - الباب الثالث في المياه - ج1، ص33.

7 - حاشية الصاوي (ت1241هـ) على الشرح الصغير - بلغة السالك لأقرب المسالك - مسألة: زيادة الماء المكروه... - 38/1.

ثالثها: لأنه ماء ذنوب،

رابعها: للخلاف في طهوريته،

خامسها: لعدم أمن الأوساخ،

سادسها: لعدم عمل السلف.

ووجه تلك العلل مراعاة الخلاف، وهو علة كراهة استعمال الماء القليل الذي حلتته نجاسة، وعلة كراهة استعمال الماء الذي ولغ فيه الكلب.

وإذا توضأ الإنسان بهذه الفضلة فلا إعادة عليه مراعاة لخلاف من قال بجواز التوضي به لأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقتتلون على فضل وضوئه عليه الصلاة والسلام⁽⁸⁾.

✓ المياه المكروهة.

قال الشيخ خليل رحمه الله (ت776هـ) في بيان المياه المكروهة: "وكره ماء مستعمل في حدث وراكذ يغتسل فيه إلخ، وإذا توضأ بالماء القليل المذكور وصلى فلا إعادة عليه أصلاً على المشهور، وأما على الضعيف الذي هو كلام المصنف: لو صلى به يعيد في الوقت أبداً مراعاة للخلاف"⁽⁹⁾. أي: لخلاف الإمام الشافعي وغيره الذي يرى أن سؤر الكلب نجس، وأن الماء المستعمل لا يجوز الطهارة به على كل حال، وأما الماء الراكذ إذا وردت النجاسة عليه فهو نجس، وإن ورد عليها الماء لم ينجس.

✓ من توضأ بهاء أدخل يده فيه.

حكى ابن رشد: "في أول سماع ابن القاسم، فيمن توضأ بسؤر النصراني، وما أدخل يده فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يعيد الصلاة، ويعيد الوضوء لما يستقبل.

الثاني: أنه يعيد الوضوء والصلاة في الوقت،

8 - لفظه: «وإذا توضأ النبي صلى الله عليه وسلم كادوا يقتتلون على وضوئه» - الجامع الصحيح - باب استعمال فضل وضوء الناس - 189/49/1.

9 - الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لشهاب الدين النفراوي الأزهري المالكي - باب في بيان طهارة المياه -، ج1، ص125.

الثالث: من توضأ بسؤره كالقول الأول، ومن توضأ بها أدخل يده فيه كالقول الثاني، وعلى قول ابن القاسم أنه نجس. وقال في المدونة والرسالة: أنه يعيد في الوقت، واستشكل ذلك بأن من توضأ بهاء نجس كمن لم يتوضأ، فكان القياس أنه يعيد أبداً، فقل نجس عنده - أي ابن القاسم - لأنه قال يتركه ويتيمم، وإنما اقتصر على الإعادة في الوقت مراعاة للخلاف⁽¹⁰⁾

أي مراعاة لخلاف من ذهب إلى غسل اليدين قبل إدخالهما في الإناء، غير معقول المعنى، وامثال ما تضمنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يديه قبل إدخالهما في الإناء ثلاثاً"⁽¹¹⁾، لأن ذلك تعبد لا لأن ذلك الماء نجس.

✓ الماء إذا ولغ فيه الكلب.

اختلف في الوضوء به، إذا لم يجد الإنسان سواه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يتوضأ به ولا يتيمم، وهو مذهب ابن القاسم.

الثاني: أنه يتوضأ به ويتيمم ويصلي، وهو مذهب ابن الماجشون.

الثالث: أنه يتيمم ويصلي، ثم يتوضأ به ويصلي وهو قول سحنون.

وعلى القول بأنه يغسل سبعا تعبداً لا لنجاسته يجوز شربه، ولا ينبغي الوضوء به إذا وجد غيره مراعاة للخلاف في نجاسته، وكذلك لا ينبغي أن يغسل الإناء به إذا وجد غيره مراعاة للخلاف، وأما إن لم يجد غيره، فقل: إنه يغسل الإناء به كما يتوضأ به، والأظهر أنه لا يغسل الإناء به، وإن كان يتوضأ به، لأن المفهوم من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بغسل الإناء من ولوغ الكلب فيه، أن يغسل بغير ذلك الماء، ويجوز على قياس هذا أن يغسل من ماء غيره قد ولغ فيه كلب، انتهى⁽¹²⁾.

حاصل ما ذكر أن الماء إذا ولغ فيه الكلب، وقع اختلاف كبير داخل المذهب وخارجه لذا فلا ينبغي الوضوء به إذا وجد غيره، مراعاة للخلاف فيه بين فقهاء المذاهب، فمالك رحمه الله: يرى أن

10 - مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدين المعروف بالخطاب الرعيني المالكي، ج 1، ص 72.

11 - سنن النسائي - تأويل قوله عز وجل: "إذا قمتم إلى الصلوة" - سورة المائدة: الآية 6. - ج 1/ص 6.

12 - مواهب الجليل في شرح مختصر خليل "المقدمات الممهدة"، القول في الماء، 91/1.

الماء الذي يبلغ فيه الكلب ليس بنجس، وأن غسل الإناء منه عبادة غير معللة، وأبو حنيفة رحمه الله: يقول إن سؤره تابع للحمه، والشافعي رحمه الله: يرى أن لعبه هو النجس لا عينه...

✓ غسل الرأس بدل المسح.

قال الشيخ خليل رحمه الله: "وغسله مجزئ"، وقال الشارح: "يعني أن المتوضئ إذا غسل رأسه وزيادة، وهذا قول ابن شعبان، وقال ابن عطاء الله هو أشهر الأقوال الثلاثة. وقيل: لا يجزئه، لأن حقيقة الغسل غير حقيقة المسح المأمور به، فلا يجزئ أحدهما عن الآخر، وقيل: يكره إعمالا لدليل مراعاة الخلاف"⁽¹³⁾.

✓ من نسي مسح أذنيه.

ذكر اللخمي رحمه الله (ت498هـ) في (التبصرة) بعض هذا، "وصرح في سماع موسى من كتاب الطهارة بأن من نسي أذنيه أو نسي المضمضة والاستنشاق وصلى فلا إعادة عليه، قال ابن رشد: إنما قال لا إعادة على من نسيهما، وهما عنده من الرأس، ومسح جميعه واجب عنده مراعاة للخلاف"⁽¹⁴⁾، ذلك أن في مسح الأذنين خلافا، هل هو سنة أو فريضة، وهل يجدد لها الماء أم لا؟

فقال أبو حنيفة النعمان وأصحابه: مسحهما فرض، إلا أنها يمسخان مع الرأس بماء واحد، وقال الشافعي: مسحهما سنة، ويجدد لها الماء، وقال بهذا القول جماعة أيضا من أصحاب مالك، وقال جماعة من أصحاب مالك أن مسحهما فرض وأنه يجدد لها الماء.⁽¹⁵⁾

✓ غسل البياض بين الصدغين والأذنين.

قال المازري رحمه الله (ت536هـ): انتقد هذه السنة على القاضي عبد الوهاب (ت422هـ) أصحابنا، وقالوا: إن كان من الوجه فهو واجب، وإلا فهو كالحلق ساقط على الإطلاق، قال: ولعله ظفر بحديث يوجب كونه سنة، أو يكون سنة مراعاة للخلاف، على سبيل التوسع.⁽¹⁶⁾

وقال ابن رشد: "اتفق العلماء على أن غسل الوجه بالجملة من فرائض الوضوء لقوله تعالى: "فاغسلوا وجوهكم"⁽¹⁷⁾، واختلفوا منه في ثلاثة مواضع: في غسل البياض الذي بين العذار والأذن،

13 - مواهب الجليل في شرح مختصر خليل - فصل: فرائض الوضوء...-211/1.

14 - مواهب الجليل في شرح مختصر خليل - المسألة الثانية: رفض النية. -255/1.

15 - بداية المجتهد - الباب الثاني - معرفة أعمال الوضوء -، ج1، ص:21.

16 - الذخيرة للإمام القرافي: الفصل الثاني في فضائله، وهي سبعة، ج1/284.

17 - سورة المائدة، الآية 6.

وفي غسل ما انسدل من اللحية، وفي تخليل اللحية. فالمشهور في مذهب مالك أنه ليس البياض الذي بين العذار والأذن من الوجه، وقال أبو حنيفة والشافعي هو من الوجه⁽¹⁸⁾.

ولعل هذا الاختلاف بين الأئمة في اعتبار البياض من الوجه أو عدمه، جعل القاضي عبد الوهاب البغدادي رحمه الله يعتبره سنة.

✓ الترتيب في الوضوء

اختلف في وجوب ترتيب أفعال الوضوء وسننيتها. فقيل: إذا توضأ بدأ بالميا من لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا توضأ أحدكم فليبدأ بميامنه»⁽¹⁹⁾ رواه ابن وهب، وأدخله سحنون في الكتاب - أي المدونة -⁽²⁰⁾.

قال المازري: إذا أمر المتوضئ أربعة رجال أن يطهروا أعضاءه معاً، فقال بعض من أوجب الترتيب هو بمنزلة المنكس، لأنه لم يقدم ما وجب تقديمه.

وفي (الطراز) القول بالوجوب مختص بالواجب دون المسنون، وكذلك قال الشافعي، لأن ما لا يجب أصله كيف يجب وصفه. فلو ترك الترتيب حتى صلى، قال صاحب (الطراز)، قال بعض المتأخرين: مراعاة للخلاف في وجوبه وسننيتها.⁽²¹⁾

لذا يؤمر من ترك الترتيب بالإعادة مراعاة لخلاف الشافعي، وأحمد وأبي عبيد الذين يقولون بوجوب الترتيب بين الفرائض. وأما أبو حنيفة والثوري وداود، والمتأخرين من أصحاب مالك يقولون بها لسنية بين الفرائض، وأما بين السنن فهو مستحب عند مالك، وسنة عند أبي حنيفة.⁽²²⁾

✓ نقض الوضوء من مس الذكر.

مس الذكر اختلف فيه على ثلاثة مذاهب: فالشافعي وأصحابه، وداود وأحمد رأوا الوضوء فيه، كيفما مسه، وأبو حنيفة وأصحابه لم يروا فيه الوضوء أصلاً، ولكلا الفريقين سلف من الصحابة والتابعين.⁽²³⁾

18 - بداية المجتهد - الباب الثاني - معرفة أعمال الوضوء -، ج 1 / ص 18..

19 - روي أن أبا هريرة رضي الله عنه: " كان يبدأ بميامنه في الوضوء " - الطهور - للقاسم بن سلام - باب غسل الذراعين في الوضوء -

20 - قال ابن وهب: بلغني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ونعيم بن عبد الله بن عمر المجرم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إذا توضأ أحدكم فليبدأ بميامنه» - المدونة - ما جاء في تنكيص الوضوء - 123/1.

21 - الذخيرة -، مسنونات الوضوء - ج 1 / 283.

22 - بداية المجتهد، ج 1 / ص 12 - بتصرف.

23 - المرجع نفسه -، الباب الرابع : في نواقض الوضوء - ج 1 / ص 45 - بتصرف.

والمشهور في المذهب المالكي أن ينتقض وضوء من مس ذكره مسا متصلا من غير حائل، ومقتضى هذا أنه من صلى ولم يتوضأ فصلاته باطلة، لكن مراعاة لخلاف من قال بعدم نقض الوضوء من مس الذكر، كما هو الشأن عند الأحناف، فصلاته صحيحة بعد الوقوع، ويندب له أن يعيدها في الوقت. قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله (ت463هـ): "والذي تقرر عليه المذهب عند أهل المغرب من أصحابه، أنه من مس ذكره أمره بالوضوء ما لم يصل...⁽²⁴⁾"

وقال القرافي: "قال صاحب الاستذكار: الذي تقرر عند المغاربة أن من مس ذكره أمر بالوضوء ما لم يصل، فإن صلى أعاد في الوقت، وكذلك قاله ابن القاسم وأشهب، وقال سحنون والعتبي: لا يعيد مطلقا"⁽²⁵⁾. وعلى مبدأ رفع الحرج والعنت على المكلف، قال المالكية بصحة صلاة من صلى، وقد مس عضوه من غير حائل، اعتبارا للرأي الأحناف.

ثالثا: نماذج تطبيقية من أحكام المعاملات.

✓ أخذ بدرهمه بنصفه لحما وبنصفه درهما صغيرا.

قال محمد بن رشد رحمه الله: "وسئل مالك عمن أخذ بدرهمه بنصفه لحما وبنصفه درهما صغيرا. فقال: قد كنا نكرهه وما نرى اليوم به بأسا. قيل له: رأيت إن كان بمصر فأخذ بنصفه فلوسا وبنصفه درهما صغيرا؟ فقال: ما أحبه، ولو أخذ حنطة ما رأيت به بأسا"⁽²⁶⁾.

ثم قال: "أما البلد الذي لا فلوس فيه فجائز للرجل أن يأخذ فيها بنصف درهمه أو أكثر طعاما أو عرضا وبالباقى فضة أو درهما صغيرا، وقد كان مالك يكره ذلك أولا على ما ذكر في هذه الرواية. وأما في البلد الذي فيه الفلوس ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لا يجوز للرجل أن يأخذ فيها أيضا بنصف درهمه أو أكثر طعاما أو عرضا وفلوسا وبالباقى فضة، وهو قوله في المدونة.

والثاني: قوله في هذه الرواية إنه يجوز له أن يأخذ بنصفه أو أكثر طعاما وبالباقى فضة.

والثالث: قول أشهب أنه لا يجوز له شيء من ذلك كله في البلد الذي فيه الفلوس.

24 - الاستذكار، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر - باب الوضوء من الفرج - 249/1.

25 - الذخيرة للإمام القرافي، 221/1.

26 - البيان والتحصيل، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي - أخذ بدرهمه بنصفه لحما وبنصفه درهما صغيرا - 485/6.

فالقول الأول استحسان مراعاة للخلاف، إذ من أهل العلم وهم أهل العراق من يميز شراء الذهب والعروض بالذهب والورق والعروض بالورق فيما قل أو كثر من غير ضرورة، ويجعلون الذهب التي مع العرض بمثل ذلك من الذهب الآخر وباقيها للعرض ولا يقولون في ذلك بالفض كانت الذهبان مستويتين في الطيب والسكة والصياغة أو غير مستويتين في شيء من ذلك، ووجه القول الثاني مراعاة ضرورة الناس وحاجتهم إلى الطعام، بخلاف الفلوس، وقول أشهب هو القياس على المذهب لأن ذلك إنما أجزى للضرورة، فإذا كان بلد فيه فلوس ارتفعت الضرورة⁽²⁷⁾.

✓ أعطي دراهم وقيل له صرفها بدنانير فلما أراد أن يبيعها صرفها من نفسه.

قال محمد بن رشد: "وسئل مالك عمن أعطي دراهم وقيل له: صرفها بدنانير، فصار بها إلى الصراف فلما أراد أن يبيعها صرفها من نفسه ثم جاءه بالدنانير فأعلمه بالذي كان، فكرهه وقال: ما ذلك بحسن، رأيت لو قال: لا أجزه أليس ذلك له؟ فقد صار هذا صرفاً فيه استخيار"⁽²⁸⁾.

ثم قال: "قد خفف ذلك مالك في رواية أشهب عنه من كتاب البضائع والوكالات، وقال ابن أبي حازم: وما كان الناس يشددون هذه الشدة، وإنما كرهه لهذه الرواية لما ذكره من أن صاحب الدراهم في ذلك بالخيار بين أن يميز الصرف أو يرده، والخيار في الصرف لا يجوز، ووجه القول الثاني أنه خيار لم ينعد عليه الصرف، وإنما هو خيار يوجب الحكم، فلم يكن له تأثير في فساد العقد كالعبد يتزوج بغير إذن سيده، والسفيه بغير أمر وليه، فيكون سيد العبد وولي السفيه بالخيار في رد النكاح وإجازته والخيار في النكاح لا يجوز"⁽²⁹⁾.

وإن كانت الإجارة انعقدت بينهما على أن يشق رب العين ما وجد فيها من صفا، ويسقط عنه من الأجرة التي سمياها ما ينوبها منها، فيتخرج جوازها بغير اشتراط النقد على قولين، الأشهر منهما في المذهب الإجازة؛ لأن السوم معلوم وجملة الثمن مجهول. لا يعلم حال العقد كييع الصبرة جزافاً على الكيل الذي أجازته مالك - رحمه الله - وأصحابه، ومنع منه عبد العزيز بن أبي سلمة، وكاستئجار الأجير على أن يأتيه بمتاع من بلد على أنه إن وجدته في الطريق رجع وكان له بحسابه الذي أجازته مالك وابن القاسم رحمهما الله تعالى، ومنع منه سحنون.⁽³⁰⁾

27 - البيان والتحصيل، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي - أخذ بدرهمه بنصفه لحماً وبنصفه درهماً صغيراً - 485/6.

28 - البيان والتحصيل - أعطي دراهم وقيل له صرفها بدنانير فلما أراد أن يبيعها صرفها من نفسه - 486/485/6.

29 - البيان والتحصيل - أعطي دراهم وقيل له صرفها بدنانير فلما أراد أن يبيعها صرفها من نفسه - 486/485/6.

30 - المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية، لأبي الوليد ابن رشد - 443/1.

قال ابن رشد: "ومن ذلك اختلافهم أيضا في استئجار الأجير شهرا على أن يبيع له ثوبا بعينه أو يرعى له غنما بأعيانها دون أن يشترط الخلف وما أشبه ذلك؛ فمعنى ما ذهب إليه مالك - رحمه الله - فيها على هذا التأويل، أنه كرهها ابتداء مراعاة للخلاف؛ ويحتمل أن يكون كرهها من أجل النقد - وإن لم يكن مشروطا؛ إذ لا يصح النقد فيها بشرط إجماعا، وأجازها إذا وقعت على أصل مذهبه وحكم للعامل بأجر مثله في شق الصفا وأوجب عليه أن يرد من الأجرة ما يقع للصفا من جملة الخمسة الآلاف الذراع، ورأى ابن القاسم وسحنون أنها إجارة فاسدة للعلة التي ذكرها وهي الجهل بجملة الثمن حال العقد، فأوجبا للعامل أجرة مثله في جميع عمله، فأما سحنون فجرى في ذلك على أصله في الذي يستأجر الكرى على أن يأتيه بمتاعه من بلد كذا، فإن وجدته في الطريق رجع وكان له بحسابه، وأما ابن القاسم فخالف أصله وذلك اختلاف من قوله؛ وكلا التأويلين سائغان، والتأويل الأول أظهر. والله أعلم" (31).

✓ وجد ركازا في أرض عنوة لمن يكون هذا الركاز؟

قال أبو الوليد بن رشد الجدي: "قل لسحنون: ما تقول في رجل وجد ركازا في أرض عنوة، ولم يبق من الذين افتتحوها أحد، ولا من أولادهم، ولا من نسلهم؛ لمن يكون هذا الركاز؟ فقال: يجعل مثل اللقطة، قيل: فيصنع به ماذا؟ قال: يتصدق به على المساكين؛ لأن الذين غنموه لا يعرفون؛ قيل له: فإن كانت أرضا لا تعرف إن كانت مغنومة أو صلحا؟ فقال: يكون لمن أصابه" (32).

ثم قال: "قوله: ولم يبق من الذين افتتحوها أحد، ولا من أولادهم ولا من نسلهم، معناه: ولم يبق منهم أحد يعرف بعينه، ويدل على ذلك قوله في آخر المسألة: لأن الذين غنموه لا يعرفون، ولو كانوا قد بادوا وذهبوا، ولم يبق منهم أحد، لما لزم أن يكون حكم ذلك حكم اللقطة في صرفه إلى الصدقة؛ وإنما الذي كان يجب فيه أن يجعل في بيت مال المسلمين كميراث من مات ولا وارث له؛ لأن هذا الركاز قد وجب للغانمين، فإذا علم أنهم قد ماتوا أو لم يبق منهم أحد، ولا من نسلهم، وجب أن يجعل في بيت مال المسلمين؛ وأما قوله: إذا لم يعرف إن كانت الأرض مغنومة أو صلحا، أنه يكون لمن أصابه، فإنما قال: ذلك مراعاة للخلاف، إذ أكثر أهل العلم، يقولون: إنه لمن وجدته، سواء كانت الأرض حرة عربية، أو صلحية أو عنوية، وهو قول ابن نافع، وقول مطرف، وابن

31 - المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية، لأبي الوليد ابن رشد - 443/1.

32 - البيان والتحصيل - وجد ركازا في أرض عنوة لمن يكون هذا الركاز - 407/406/2.

الماجشون، وروايتها عن مالك؛ وكان القياس في ذلك على القول بأن الركاز الموجود في أرض العنوة يكون للغانمين لتلك الأرض، وأن الركاز الموجود في أرض الصلح يكون للذين صولخوا على تلك الأرض من أهل الذمة؛ أن يكون حكمه حكم اللقطة يتصدق به على المساكين، إذ لا يعلم لمن هو منهم؛ كما لو أن رجلا وجد لقطة لا يعلم إن كانت لذمي أو مسلم، لوجب أن يتصدق بها على المساكين - إذا يئس من أن يعلم صاحبها بعينه⁽³³⁾.

■ استنتاج:

بعد هذه الجولة مع قاعدة: "مراعاة الخلاف" بحثا وتنقيا في بطون أمهات كتب المصادر في المذهب المالكي ومراجعته، خلصت إلى نتائج عامة، هي كالتالي:

- يتسم المذهب المالكي في فقه العبادات والمعاملات بالسعة العلمية، بفضل أصوله وقواعده، ومنها: قاعدة «مراعاة الخلاف» و«الخروج منه».

- كما يتميز عن غيره في فقه المعاملات باستيعابه للقضايا المختلفة، وإحكامه لها بفضل قاعدة «سد الذرائع» وصنوها من القواعد، كقاعدة: "مراعاة الخلاف".

- انفتاح المذهب المالكي على غيره من المذاهب من خلال أصوله المتنوعة والمتعددة عموما، ومراعاة الخلاف وتدييره بين المخالفين على وجه الخصوص.

- يحاول المذهب جاهدا من خلال هذه القاعدة، أن يعمل جميع الأدلة القوية والآراء السديدة عملا بقاعدة «أن الأدلة جاءت للإعمال لا للإهمال».

- بمراعاة الخلاف يقرب المذهب المالكي بين الفهوم المتشابهة والمتناقضة أحيانا، جمعا لشملة الأمة ووحدتها...

- بمراعاة الخلاف يعيد أئمة المذهب النظر في أدلتهم، بناء على الموازنة والمقاربة، واعتبار النتائج والمآلات، وهذا مظهر من مظاهر الموضوعية، ونبذ التعصب، والجمود، والتحجر والاستعلاء...

وهذه الاستنتاجات، هي غيض من فيض، وقليل من كثير، ونقطة من بحر، فله الحمد والمنة بداء وختاما.

33 - البيان والتحصيل - وجد ركازا في أرض عنوة لمن يكون هذا الركاز - 407/406/2.

فتوى الإسحاقى فى نازلة الأميرة خناثة بنت بكار المغافرى نازلة شراء وكراء الدور بمكة المكرمة

ذ. محمد الأندلسى
تطوان.

لا جدال فى أن تنظيم شؤون الحج والسَّهر على تيسير الظروف المادية والروحية التى تُمكن الحجاج من أداء مناسكهم فى أحسن الأحوال، من المهام الدينية العظمى التى اضطلعت بها الدولة المغربية عبر تاريخها العريق؛ فقد اعتنى المغاربة مُلوكا وشعبا بمؤسسة ركب الحاج¹، تعظيما لِقُدسيَّة شعيرة الحج، التى تُعدُّ رُكنا رَكينا من أركان الإسلام الخمسة، ورغبة منهم فى نيل بعض الأجر والثواب بالاهتمام بِحُجاج بيت الله الحرام. ومن مظاهر ذلك الاهتمام وتلك الرعاية، أن كان السلاطين المغاربة يُعيِّنُون شَيْخاً لِلرَّكْبِ الحِجازي، يحرصون فى اختياره على مراعاة جملة من الشروط كالعلم والصلاح وحسن التدبير والإدارة²... وصارت بعض الأسر المغربية مشهورة برئاسة ركب الحاج المغربى كأسرة عَدِيل الأندلسية. إلى جانب الاهتمام بحفر الآبار وتمهيد النِزَالِ (النِّزَلات)³ على طول طريق الركب الحِجازي، فضلا عن تعيين العلماء والفقهاء والقضاة للخروج مع الركب والتصدر للإجابة عن أسئلة الناس والإفتاء فى فتاوى المستفتين، والفصل فى دعاوى المتقاضين. ولا غرو فى ذلك ما دام ملوك المغرب، وخاصة ملوك الدولة العلوية الشريفة، كانوا شديدي الحرص على الحفاظ على العقيدة الأشعرية للمغاربة، ووحدهم المذهبية المتمثلة فى اتباع المذهب المالكي، حتى لا يضطر الناس إلى سؤال أصحاب المذاهب الأخرى فتختلط عليهم الأمور ويتيهون بين

1 - راجع محمد المنونى: من حديث الركب المغربى، مطبعة المخزن، تطوان، 1953م، ص. 10-11.

2 - راجع فاطمة خليل: الرحلة فى الأدب المغربى، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة فى اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، نوقشت سنة 1988م، مرقونة، ص. 72.

3 - النِّزَالِ أو النِّزَلات: جمع نَزَّالة، وهى محطات على طول الطرق التجارية توفر الأمن والاستراحة للقوافل التجارية مقابل أداءات مالية. انظر: عمر آفا: التجارة المغربية فى القرن التاسع عشر، البنيات والتحويلات (1830-1912م)، مكتبة دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2006م، ص. 443.

الخلافات المذهبية. وكانت بعض ركاب الحاج المغربي يخرج فيها عليَّ القوم من أمراء وحكام؛ فهذا ركب عام 1143هـ خرجت فيه الأميرة خنثة بنت الشيخ بكار المغافري زوجة السلطان المولى إسماعيل وأم السلطان المولى عبد الله وجدة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي كان برفقتها في هذه الرحلة الحجيَّة. واختار السلطان مولاي عبد الله - لمرافقة والدته وولده في هذه الوجهة - نُخبة من العلماء والفقهاء ورجال الدولة، يتصدرهم الوزير والفقير العالم أبو محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقى، الذي عهد إليه السلطان، بعد الأوبة من الحج، بتدوين رحلة الأميرة خنثة، فكانت تلك الرحلة الأثر الفكري الفريد للإسحاقى الذي وصلنا لحد الآن.

وتضمنت هذه الرحلة الحجازية، إلى جانب وصف البلدان والأمصار التي مرَّ الركب بها أو نزل، ووصف المجتمعات وعاداتها وتقاليدها، ووصف المسالك والطرق، والحديث عن فقه المناسك، تضمنت العديد من المسائل والنوازل الفقهية، التي أبرز من خلالها الإسحاقى أجوبة الفقهاء المالكية وطرق الاستدلال عندهم. كما أنه أدلى بدلوه في هذا الميدان الذي لا يقتحمه إلا من لمس في نفسه القدرة والتمكن على خوض غماره، فأبرز علو كعبه ورسوخ قدمه من خلال الفتوى الجامعة المانعة التي أصدرها - بطلب من الأميرة خنثة - في نازلة شراء الدور وكرائها بمكة المكرمة⁴.

والجدير بالذكر في هذا المقام، أن الرحلات الحجيَّة (رحلات العلماء) تُعدُّ أوعية مصدريَّة تحفل بمجموعة من نصوص الفتاوى والنوازل، وتزخر باجتهادات وأجوبة فقهية توحى برسوخ أقدام مؤلفيها في هذا الفن، وتدل على قدرتهم الكبيرة على الإفتاء وكثرة الاجتهاد في حل المعضلات والمسائل الفقهية التي تواجههم⁵. فهذا الفقيه الإسحاقى أبان عن اطلاعه الواسع على مصادر الفقه المالكي، وعن قدرته على الاجتهاد وتنزيل الأحكام في مسألة خلافية تضاربت حولها الأقوال، فاستطاع حسم مادة الخلاف وأفتى بجواز شراء العقار بمكة المكرمة استنادا على ما جرى عليه عمل الناس قديما وحديثا، واستنادا على حكم القاضي الحنفي الذي قضى بثبوت الملك، حيث قال الإسحاقى بهذا الصدد: "والقاعدة المتفق عليها أن مسائل الخلاف إذا اتصل ببعض أقوالها قضاء

4 - انظر محتوى هذه الفتوى في: رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية، لأبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقى (ت. بعد 1150هـ)، دراسة وتحقيق، الدكتور محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 1438هـ/2017م، ج2، ص. 584-589.

5 - انظر: عبد القادر سعود، الرحلات الحجيَّة أوعية للفتاوى والنوازل الفقهية: الرحلة العياشية والرحلة الناصرية نموذجين، مجلة دعوة الحق، عدد 411 (أصول الفتوى بالمغرب الأقصى)، السنة السابعة والخمسون، رجب 1436هـ/ماي 2015م، ص. 94.

حاكم تَعَيَّنَ ذلك القول وارتفع الخلاف⁶. وقبل الخوض في تحليل هذه الفتوى، والوقوف على منهج الإسحاق في صناعتها، وعلى الأصول الفقهية التي اعتمد عليها في الإفتاء، يجدر بنا - كخطوة منهجية - أن نقف عند آراء المذاهب الفقهية الأربعة المعتمدة في مسألة بيع رباع مكة وكراء دورها، ثم الترجمة لهذا الفقيه العالم، والكشف عن طبيعة تكوينه الفقهي والعلوم التي أتقنها، والوقوف كذلك عند المكون الثاني في هذه النازلة وهي السَّائِلَةُ أو المستفتية، فنترجم لها، ونعرف مَقْصِدَهَا من وراء شراء تلك الدار وتحييسها.

1 - مسألة بيع رباع مكة وكراء دورها الخلافية:

اختلف أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة؛ مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، في مسألة بيع رباع مكة وكراء دورها، بل أكثر من ذلك اختلفت الروايات المروية عن كل إمام على حده. ويرجع أصل هذا الخلاف في كون مكة المكرمة تُشكل استثناءً عن باقي البلاد؛ فمعلوم أن حكم الأرضين المَغْنُومَةِ، أنها تصير وَقْفًا للمسلمين، فأهل العَنُوة وجميع أموالهم للمسلمين، فإن أسلموا لن تكون لهم أرضهم؛ لأنها لمن قاتل عليها وغلب أهلها، فمَلَكَ رِقَابَهُمْ وأموالهم، قال الله عز وجل ﴿وَأَوْزَكْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾⁷. ولا يخرج من هذا الحكم إلا مكة المكرمة، يقول ابن عبد البر: "وما أعلم بلدا من البلاد التي افتتحها المسلمون بالاحتجاف عليها والمقاتلة لها، خرج عن هذه الجملة المذكورة إلا مكة - حرسها الله - فإن أهل العلم اختلفوا في قصة فتحها"⁸. فقالت طائفة أنها فُتِحَتْ عَنُوةً كالأوزاعي وأبي حنيفة ومالك، واحتجوا على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَطَ عَلَيْهَا رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ"⁹.

6 - الإسحاق أبو محمد سيدي الشرقي بن محمد (ت. بعد 1150هـ): رحلة الوزير الإسحاق الحجازية، دراسة وتحقيق الدكتور محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 1438هـ/2017م، ج2، ص. 588.

7 - سورة الأحزاب: الآية 27.

8 - يوسف ابن عبد البر النمري: الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة للطباعة والنشر - دار الوعي، القاهرة، 1993م، كتاب الجهاد، المجلد 14، ص. 332.

9 - أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كتابة العلم، وفي كتاب اللقطة، باب كيف تُعَرَّفُ لِقْطَةُ أَهْلِ مَكَّة. انظر: محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشاعبي الرفاعي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د. ت، ج1، ص. 119/3، ص. 262-263؛ وأخرجه مسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وخلاها وشجرها ولقطةها إلا لمنشد على الدوام، رقم الحديث 1355. انظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق نظر محمد الفاريازي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 2006م، المجلد الأول، ص. 615-616.

وانفرد الإمام الشافعي في الطائفة الثانية بقوله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل مكة عنوةً وإنما دخلها صلحاً، وقال أصحابه: أراد بقوله صلحاً أي فعل فيها فعله فيمن صالحه، فملكه نفسه وماله وأرضه ودياره؛ وذلك لأنه لم يدخلها إلا بعد أن أئمن أهلها كلهم إلا الذين أمر بقتلهم وسماهم. ويحتجون على ذلك بما جاء في كتب السير كسيرة ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ في سفره عام الفتح مرَّ الظهران نزل بها، فجاءه أبو سفيان، فأسلم وبايع النبي عليه السلام أن يلزمه بشيء، فقال: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ"¹⁰، فهذا الأمان قد حصل لأهل مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران، فأين العنوة ها هنا مع الأمان الحاقن للدم والمال لأن المال تبع للنفس¹¹.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد بن حنبل في دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح هل دخلها عنوة أو صلحاً؟ على روايتين:

إحداهما: أنه دخلها عنوة، ولم يغنم بها مالا ولم يسب فيها ذرية، لأن الأمان حصل من النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تقضى الحرب؛ لأنه روي في الخبر أن قائلًا قال: لا قریش بعد اليوم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الأحمر والأسود آمن"، فالحال لم يتصرم حتى حصل الأمان.

وفي رواية الميموني: وقد سئل عن مكة: هل فتحت صلحاً؟ فالتفت إلي وقال: "أليس إنما أخذت بالسيف؟". وقال في رواية أبي داود، وقد سئل عن مكة: عنوة هي؟ قال: "قد أقرت البلاد في أيديهم، قيل له: بصلح؟ قال: لا، ولكن أقرها رسول الله في أيدي أهلها بقوله: "من دخل داره فهو آمن"¹².

وفي رواية أخرى دخلها صلحاً عقده مع أبي سفيان، وكان المشروط فيه "أن من أغلق بابه فهو آمن، ومن تعلق بأستار الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، إلا ستة نفر استثنى قتلهم"، ولأجل عقد الصلح لم يغنم ولم يسب¹³.

10 - راجع: محمد ابن إسحاق بن يسار المطلبى المدني: السيرة النبوية لابن إسحاق، تحقيق أحمد فريد المزيدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م، ج2، ص. 224 - 225.

11 - ابن عبد البر: الاستذكار، ج14، ص. 334 - 335.

12 - محمد بن الحسين الفراء (أبي يعلى): الأحكام السلطانية، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، ص. 188 - 189.

13 - الأحكام السلطانية، ص. 189.

وقال في رواية سعيد بن محمد الرفا، وقد سئل عن مكة، قال: "دخلت صلحا"، واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم: "وهل ترك لنا عقيل من رباع"¹⁴.

ولم تختلف الآثار، ولا اختلف العلماء في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن أهل مكة، كل من دخل داره، أو المسجد، أو دار أبي سفيان، أو ألقى السلاح. وقد اختلفت الآثار في وقت الأمان، هل كان بمر الظهران؟ أم بعد دخول مكة؟ ويرى ابن عبد البر أن الأرجح عنده أنه كان بمر الظهران، وعلى هذا أن مكة بلدة مؤمنة، وهذا أشبه بحكم الصلح منه لحكم العنوة¹⁵.

تأسيسا على ما سبق، يمكن التأصيل لآراء أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة في مسألة بيع رباع مكة وكراء بيوتها؛ فأبو حنيفة قال: لا بأس ببيع بناء مكة وأكره بيع أراضيها، وروى عنه أنه قال: "أكره إجارة بيوت مكة في الموسم، وفي الرجل يقيم ثم يرجع، فأما المقيم والمجاور فلا نرى بأخذ ذلك منهم بأسا"¹⁶. وروى ابن زياد عنه أيضا: أن بيع دور مكة جائز، وأما إجارة البيوت، فإنما أجازها أبو حنيفة إذا كان البناء ملكا للمؤاجر فيأخذ أجره ملكه، فأما الأرض فلا تجوز¹⁷.

وقال الشافعي: "أرض مكة وبيوتها وديارها لأربابها، ما بين بيعها وكرائها". وهو قول طاوس وعمل ابن الزبير¹⁸. واحتج الشافعي بحديث أسامة بن زيد أنه قال: يا رسول الله: أنزل دارك بمكة، فقال: "وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رَبَاعٍ"¹⁹، وكان قد باعها، فأضاف الملك إليه، وإلى من ابتاعها منه، وقد أضاف الله عز وجل الديار إليهم بقوله عز وجل: ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾²⁰.

وتراوح رأي ابن حنبل ما بين المنع والكراهة والإباحة؛ حيث قال في رواية صالح - وقد سأله - ما ترى في شراء المنازل بمكة؟ قال: "لا يعجبني فيه نهى كثير". وقال في رواية أبي طالب: "لا تكره بيوت مكة إلا أن يعطى لحفظ متاعه"، فقيل: أليس اشترى عمر دارا للسجن؟ قال: "اشترأها للمسلمين يحبس فيه الفساق". فقيل له: فإن سكن الرجل لا يعطيهم كراء؟ قال: "لا يخرج حتى يعطيهم، وأنا أكره

14 - الأحكام السلطانية، ص. 189.

15 - ابن عبد البر: الاستذكار، ج 14، ص. 337-338.

16 - ابن عبد البر: الاستذكار، ج 14، ص. 339.

17 - راجع: أحمد بن علي الرازي الجصاص: أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1996م، ج 5، ص. 60-65.

18 - ابن عبد البر: الاستذكار، ج 14، ص. 340؛ انظر أيضا: عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي: المغني، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ط 3، 1997م، ج 6، ص. 365.

19 - الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب النزول بمكة للحاج وتوريث دورها، رقم الحديث: 1351، ج 2، ص. 613-614.

20 - سورة الحشر: الآية 8.

كراء الحجام ولكن أعطيه أجرته ولا ينبغي لهم أن يأخذوه". وقال في موضع آخر، من مسائل أبي طالب، وقد سأله عن كراء دور مكة؟ فقال: "إنما كره في الأفنية والدور الكبار"²¹.

ففي أول كلامه المنع من إيجارها للسكنى على الإطلاق، وأجاز إعطاء الكراء لحفظ المتاع، لأن الأجرة مقابلة الحفظ، ثم قال: "فإن سكن أعطاهم، ولا ينبغي لهم الأخذ"؛ لأنه يعتقد أنه لا يجوز كراؤها، وقوله في آخر كلامه: "إنما كره ذلك في الأفنية والدور الكبار"، لا يقتضي أنه لا يكره ذلك في الصغار، وإنما خصّ الكبار بالذكر لأن العادة أن المنازل الصغار يختص ساكنوها بالسكنى فيها لحاجتهم إليها فلا يكرونها، وإنما يكرون الكبار، فصرف الكلام إلى ذلك لهذا المعنى. وقال في رواية ابن منصور، وقد سأله: هل تكره أجور بيوت مكة وشراءها والبناء بمنى؟ فقال: "أبوا الكراء، وأما الشراء فقد اشترى عمر دارا للسجن، وأما البناء فأكره"²².

وقد أثرنا إرجاء الحديث عن رأي مالك في هذه المسألة الخلافية إلى الموضع الذي خصّصناه لتحليل فتوى الإسحاقى في النازلة المذكورة، حيث بسطنا القول في تبين رأي مالك وأصحابه.

2- ترجمة الإسحاقى:

لم يحظ الإسحاقى²³ - كغيره من العلماء والأعلام المغاربة - بترجمة خاصة به، تُنير الطريق للباحثين من أجل الوقوف على جوانب مختلفة من شخصية هذا الرجل الذي عُرفَ في مجال الدولة

21 - الأحكام السلطانية، ص. 190.

22 - نفسه.

23 - انظر مصادر ترجمته في: محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، الرباط، 1986م، ج4، ص. 208؛ عبد الرحمان ابن زيدان: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، 1993م، ص. 233-234؛ عبد الرحمان ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الطبعة 2، 1990م، ج5، ص. 330-331؛ عبد السلام ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ويليهِ ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ضبط واستدراك مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت، ط1، 1997م، ص. 237؛ عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقى، مطبعة فضالة، المحمدية، د. ت، ص. 103؛ عبد الهادي التازي: جامع القرويين، المسجد بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، دار نشر المعرفة، الرباط، ط2، 2000م، المجلد 3، ص. 730-731؛ محمد ماکمان: الرحلات المغربية (ق11-12هـ/17-18م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 72، مطبعة الأمانة، الرباط، الطبعة الأولى، 2014م، ص. 230-231؛ مصطفى الغاشي: الرحلة المغربية، محاولة في بناء الصورة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2015م، ص. 202-206؛ محمد بن عبد العزيز الدباغ: الوزير محمد الشرقي الإسحاقى مُدون الرحلة التي قامت بها السيدة خنثة بنت بكار وحفيدها سيدي محمد بن عبد الله إلى البقاع المقدسة عام 1143هـ، مجلة دعوة الحق، العدد 255، مارس 1986م، ص. 95؛ محمد الأندلسي: رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية لأبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقى، دراسة وتحقيق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 1438هـ/2017م، ج1، ص. 43-86.

والسياسة أكثر مما عُرفَ فى مجال العلم والتصنيف، ولعل ذلك من أهم الأسباب التى جعلت المؤرخين وأصحاب التراجم لا يهتمون كثيرا بالتعريف به إلا فى حدود ضيقة؛ عند الحديث عن ترجمة الأميرة خنثة بنت بكار المغافرى ورحلتها لأداء فريضة الحج رفقة حفيدها الأمير سيدي محمد بن عبد الله، وحتى الإسحاقى نفسه لم تُتَحَ له الفرصة للحديث - فى ثنايا رحلته أو بالأحرى رحلة الأميرة خنثة - عن نسبه ومساره العلمى. وبناء على المعلومات والإشارات الشحيحة المتناثرة هنا وهناك، واعتمادا على نص الرحلة وما اشتمل عليه من إجازات علمية حصل عليها الرجل من علماء مكة المكرمة، يمكن أن نُعرِّفَ به كالاتى:

هو محمد الشرقى بن محمد الإسحاقى المغربى المالكي، يُكنَّى بعبد القادر الجيلالى وأبى الفضل وأبى محمد، فقيه وأديب وكاتب رسمى ووزير، التحق بسلك المخزن فى عهد السلطان مولاي إسماعيل العلوي وابنه الأمير زيدان، ثم رَقَّاهُ السلطان مولاي عبد الله إلى رتبة وزير، واختاره لمرافقة والدته الأميرة خنثة وابنه الصغير الأمير سيدي محمد فى الرحلة إلى الحجاز. أخذ عن شيوخ وعلماء كبار أمثال الشيخ أبى الحسن على اليوسى والفقهاء القاضي سعيد بن بلقاسم العميرى، وبالمشرق (مكة المكرمة) أخذ عن أشياخ كثر منهم: الشيخ سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي والشيخ محمد الطبرى والشيخ أبى الفضل تاج الدين الحنفى والشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفى والشيخ عبد الله السكندرانى الضرير وغيرهم. وحصل على إجازات علمية عديدة جُلِّها فى رواية الحديث. كما كانت له - خلال الرحلة الحجازية - مشاركات تامة فى العديد من المسائل الفقهية، كمسألة البَغْيِ إذا تاب من بَعَائِها هل تتصدق بما قبضت من المهر قياسا على ثمن الخمر أو ترده لأربابه إن علموا قياسا على ثمن الولد؟ ومسألة قراءة بعض السورة بعد الفاتحة فى الصلاة، ومسألة الصلاة فى العَدْرَةِ، ومسألة الإحرام قبل الميقات، وغيرها. وكان له أيضا اهتمام بالتصوف والطرق الصوفية، فقد تلقى الذِّكْرَ ولبس الخِرْقَةَ عن الشيخ أبى عبد الله سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي على سُنَنِ الطريقة القادرية الجيلية أو الجيلانية.

اختلفت أقوال المؤرخين فى تحديد تاريخ ومكان وفاة الإسحاقى، إلا أن جلهم يقدر وفاته بعد سنة 1150هـ، أى بعد عودته من الحج بالمغرب.

3- ترجمة الأميرة خنثة بنت الشيخ بكار المغافرى:

إن المتتبع لترجمة الأميرة خنثة بنت بكار زوجة السلطان المولى إسماعيل وأم السلطان المولى عبد الله وجدة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، يدرك أن الذين ترجموا لها كانوا يقرنون ترجمتها

برحلتها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج رفقة حفيدها الأمير سيدي محمد، فابن زيدان في الإتحاف يُتبع ترجمتها بإيراد مضمون كتاب الشيخ محمد الطبري إمام المقام الخليلى بالمسجد الحرام للأميرة خنثة، والذي جاء فيه: "لما كان سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين، حَجَّتْ إلى بيت الله الحرام ثمرة الشيوخ المعبرين المنتخبين من أكرم سلالة، وأفلاذ أكباد العلماء المتغذين بلبان الجلالة، مغارس طابت في رُبَى المجد فألقت على الخلف معدن السؤدد وكيمياء السعادة، وعنصر الحمد مفرق السيادة، الملكة خنثة بنت المرحوم المبرور الشيخ بكار المغافري، زوجة المرحوم المقدس مولانا السلطان مولانا إسماعيل أعلى الله مقامه في الجنان، ورفع لهذه الملكة أعلام السيادة تتلى على مر الزمان"²⁴. ثم يذكر كلام الإسحاقى في حقها قائلاً: "فما نعلم واحدة من الحرائر التي دخلت دار الخلافة من أزواج مولانا السلطان، مولانا إسماعيل رحمه الله، تشبه هذه السيدة ولا تُدانيها همة وصيانة وعفافا ورزانة وحصانة عقل ومثانة دين، فهي من المسلمات المؤمنات القانتات المستجمعات للأوصاف التي أعد الله لهن عليها مغفرة وأجرا عظيما، وكان لها كلام ورأي وتدير مع مولانا أمير المؤمنين رحمه الله، ومشاورة في بعض أمور الرعية، وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير، تأمره بالخير وتحرضه عليه، وتتوسط في حوائج الناس، ويقصد بابها أهل الحياء والحشمة وذوو الحاجات، وكانت في ذلك ركنا من الأركان جزاها الله بالخير، ومع كثرة مباشرتها للسلطان أمير المؤمنين رحمه الله واتصالها به، لم ترزق معه من الولد إلا مولانا السلطان، مولانا أمير المؤمنين نصره الله"²⁵. ليسترسل بعد ذلك في الحديث عن مراحل الطريق التي قطعتها منذ خروجها من دار الخلافة بمدينة مكناس إلى وصولها إلى مكة المكرمة، ثم المدينة المنورة، وما تحلل ذلك من استقبالات رسمية أَكْرَمَتْ وفادتها، وذكر أعمال البر والإحسان التي بذلتها في البقاع المقدسة، كشراء دار بمكة وتحبيسها على طلبة القرآن ومن يدرس صحيح البخاري²⁶. ثم ختم الترجمة بتعيين تاريخ وفاتها ومكان دفنها²⁷.

أما القادري في نشر المثاني، فقد تحدث عن ترجمة الأميرة خنثة في مناسبتين، الأولى عند ذكره لتوجهها إلى الحج مع حفيدها سيدي محمد بن عبد الله، حيث قال: "ثم إن السيدة الجليلة الفقيهة الفضيلة خنثة بنت السيد الوجيه الفاضل النبيه الحاذق في الأخبار، ومن لاذ به يجار، ولا يصل إليه عار، حتى في الفيافي والقفار، سيد قومه وعميدهم وفارسهم ومانعهم، الشيخ بكار المغافري،

24 - الإسحاقى: رحلة الوزير الإسحاقى الحجازية، ج2، ص. 582-583؛ عبد الرحمان ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس، ج3، ص. 16.

25 - الإسحاقى: رحلة الوزير الإسحاقى، ج1، ص. 238؛ ابن زيدان: الإتحاف، ج3، ص. 16-17.

26 - ابن زيدان: نفسه، ص. 20-22.

27 - ابن زيدان: نفسه، ص. 23.

التمست من ولدها أمير المؤمنين مولانا عبد الله الحسني التوجه للشرق بقصد الحج، فأجابها لذلك، وهياً لها جميع ما تحتاجه، ووجه معها ولده خليفتنا الآن بالمغرب²⁸. أما المناسبة الثانية، فعند حديثه عن وفاتها سنة 1155هـ²⁹. كما تحدث المؤرخ عبد الكريم بن موسى الريفي والضعيف الرباطي نقلاً عنه، عن أم السلطان المولى عبد الله عند توجهها بمعية حفيدها إلى الحجاز لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، مبرزاً كرمها وجودها وسخاءها في البذل والعطاء والإنفاق على الأشراف والأعيان والفقراء والمساكين والضعفاء³⁰.

وأورد الناصري أخبارها متفرقة عند حديثه عن غزو السلطان المولى إسماعيل لصحراء سوس وتخوم السودان، فقدمت عليه وفود العرب مبايعة، ومن بينها وفد المغافرة الذي كان يتقدمه الشيخ بكار المغافري، فأهدى السلطان ابنته خنثة "وكانت ذات جمال وفقه وأدب، فتزوجها السلطان رحمه الله وبنى بها"³¹. ثم ذكر حجتها رفقة حفيدها نقلاً عن القادري³². ثم تحدث عن الدور السياسي الذي لعبته الأميرة خنثة في التوسط والشفاعة لقبيلة الودايا عند ابنها السلطان المولى عبد الله في بيعته وذلك سنة 1153هـ³³، كما نقل عن المؤرخ أكنسوس قوله: "وخنثى هذه هي أم السلاطين أعزهم الله، وكانت صالحة عابدة عالمة، حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار"³⁴، وتأكيداً على مكانتها العلمية يقول الكنسوسي: "ورأيت خطها على هامش نسخة من الإصابة لابن حجر، وعرف به بعضهم فقال: هذا خط السيدة خنثة أم السلطان المولى عبد الله بلا شك"³⁵.

يتضح من خلال هذا العرض، إجماع المؤرخين المغاربة على المكانة العلية التي كانت تحظى بها الأميرة خنثة، سواء داخل القصر السلطاني باعتبارها مستشارة سياسية لزوجها السلطان مولاي إسماعيل العلوي، ثم ولدها السلطان مولاي عبد الله بعد ذلك، أو بين أوساط المغاربة الذين كانوا

28 - محمد بن الطيب القادري: نشر الثاني، ج3، ص. 335-336.

29 - القادري: المصدر نفسه، ج4، ص. 38.

30 - عبد الكريم بن موسى الريفي: زهر الأكم، مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل، دراسة وتحقيق أسية بنعدادة، ط1، الرباط، 1992م، ص. 237؛ محمد بن عبد السلام الضعيف: تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المآثورات، ط1، 1986م، ص. 115.

31 - الناصري أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج7، ص. 58.

32 - الناصري: المصدر نفسه، ص. 131.

33 - نفسه، ص. 152.

34 - نفسه، ص. 138؛ محمد بن أحمد الكنسوسي: الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د. ت، ص. 173.

35 - الكنسوسي: المصدر نفسه.

يجبونها ويحترمونها ويوقرونها. كما ذاع صيت الأميرة العلوية بين العلماء الذين كانوا يجلبونها ويعترفون بمكانتها العلمية الكبيرة.

4 - فتوى الإسحاق في النازلة:

جُلب المغاربة على حب الخير وعلى القيام بأعمال البر والإحسان؛ يشهد لذلك كثرة الوقف والتَّحْيِيس على المساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب القرآنية وغيرها، رغبة في نيل الأجر والثواب، واحتراما وتوقيرا للعلم وطلابه. فهذه الأميرة الجليلة خنثة بنت بكار المغافري لم تكتف بما قدمته من هباتٍ وصدقات على طول مراحل الطريق الحجازي، وأيضا في البقاع المقدسة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، بل أرادت أن تظل صدقتها جارية خدمة لطلاب العلم ونشرا للسنة النبوية الشريفة، من خلال شراء دار بمكة المكرمة قرب المسجد الحرام بباب العمرة، وتحبيسها على من يقرأ الحُتْمَةَ من القرآن في كل يوم، وهم جماعة من الطلبة عُيِّنُوا لذلك والتزموا القيام به، وعلى من يدرس صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وانتدبت لهذا الوظيفة الفقيه العالم السيد عبد الله السكندрани الضرير. وبعدما عَقَدَت الأميرة العزم على إجراء البيع، "اختلف الناس عليها وأكثروا، فقال بعض المغاربة المجاورين ممن استند إلى بعض الحكام الجائرين: لا يجوز بيع ديار مكة ولا شراؤها، وقال آخرون ممن حذر مغبة الأمر من ذوي النهي والأمر: نحن البراء من هذه الدار وشراؤها"³⁶. فما كان من الأميرة إلا استفتاء أهل الذكر من العلماء الفقهاء الثقات، لمعرفة الحكم الشرعي في هذه المسألة الخلافية، علما أن مَقْصِدَهَا واضح من خلال تصريحها: "إني راغبة في هذه الحسنة، فإن كان لها وجه من الشَّرْع فلا تحرموني منها"³⁷. ومعلوم أن الإفتاء بالمقاصد من الأصول المعتمدة عند فقهاء المالكية في الغرب الإسلامي، كما قَعَدَ لذلك الإمام الشاطبي رحمه الله³⁸، فالبناء على أرواح الأفعال ونيَّات العباد، من الأمور التي ينبغي للمفتي مراعاتها عند الإفتاء في النوازل المعروضة عليه.

36 - الإسحاق: رحلة الوزير الإسحاق الحجازية، ج2، ص. 584.

37 - نفسه.

38 - يعتبر الإمام أبو إسحاق الشاطبي من مؤسسي نظرية إعمال المقاصد في الإجابة عن أسئلة المستفتين، وهي نظرية تقوم على تقليب المسألة والبحث في مآلاتها وغاياتها وأوجه المصلحة أو المفسدة فيها. انظر: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي: الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفان، الخبر، المملكة العربية السعودية، الجزء الثاني؛ مصطفى الصمدي: فقه النوازل عند المالكية تاريخا ومنهجيا، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2007م، ص. 364-365.

اعتمد الإسحاقى في بناء هذه الفتوى والتأصيل الشرعى لها على مجموعة من كتب الفقه المالكي؛ مَيَّزَ فيها بين الأصول والفروع: فبالنسبة للأصول اعتمد كتاب "مناسك الحج" للشيخ خليل ابن إسحاق الجندي، وحاشية الخطاب عليه³⁹، أما الفروع فقد اعتمد في المقام الأول على كتابي "البيان والتحصيل" و"المقدمات الممهدات" لابن رشد القرطبي، وفي المقام الثاني؛ "مناسك ابن الحاج القرطبي"، و"الذخيرة" و"الفروق" للقرافي، و"إدراج الشروق على أنواء الفروق" لابن الشاط، و"سنن المهتدين" للمواق.

وقام منهج الإسحاقى في صناعة هذه الفتوى - التي أباح فيها للأميرة خنثة شراء الدار المذكورة وتحبيسها - على تبيان سبب الخلاف في هذه النازلة، وعَرْضِ كل الأقوال التي تناولتها إما بالمنع أو الكراهة أو الإباحة، ثم النظر فيها والترجيح اعتماداً على عمل القضاة الذين أجروا البيع. وفي إيراد الأحاديث والاستشهاد بها؛ لا يذكر الإسحاقى الأسانيد بل يقتصر على ذكر موطن الشاهد من الحديث.

كما انطلق الإسحاقى في تحليل هذه المسألة بإبراز أصل الخلاف فيها؛ فسبب الخلاف عند المالكية ليس في مكة هل فُتِحَتْ عَنوةٌ أو صُلِحَتْ؟ لأنهم لم يختلفوا في أنها فتحت عَنوةً. وإنما سبب الخلاف عندهم في ذلك؛ هل مَنْ النبي صلى الله عليه وسلم بها على أهلها، فلم تقسم لما عظم الله من حرمتها، أو هل أُقِرَّتْ للمسلمين؟ وعلى هذا الأساس جاء الاختلاف في جواز بيع دورها وإجارتها⁴⁰.

يقول الإسحاقى نقلاً عن ابن رشد في المقدمات: "فالظاهر من مذهب ابن القاسم في المدونة إجازة ذلك، والظاهر من قول مالك في سماع ابن القاسم من كتاب الحج منع ذلك، وحكى الداودي عنه؛ كره كراءها في أيام الموسم، وقال اللخمي: اختلف قوله في كراء دور مكة وبيعها؛ فمنع من ذلك

39 - لم أقف على هذه الحاشية المنسوبة للخطاب الرعيني، وكذلك الشأن بالنسبة لمحقق كتاب مناسك الحج للشيخ خليل، الدكتور الناجي لمن، الذي قال في معرض التقديم لتحقيقه هذا: "ثم إن للخطاب مع ذلك حاشية على كتاب مناسك خليل يشرح فيها بعض ما أشكل فيه، إلا أنني لم أقف عليها؛ ولا أدري ما مصيرها؟ ووقفت على تلخيص منها، وأفدت منه كثيراً". انظر تقديم الدكتور الناجي لمن لكتاب مناسك الحج للشيخ خليل ابن إسحاق المالكي، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، الطبعة الأولى، 2007م، ص. 25.

40 - انظر: محمد بن أحمد ابن رشد: البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق أحمد الحبابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1988م، ج3، ص. 406.

مرة. وحكى أبو جعفر الأبهري عنه: أنه كره بيعها وكراءها، فإن بيعت أو اكتريت لم يُفسخ ذلك. فيتحصل في ذلك أربع روايات: الجواز والمنع والكره وكراهة كرائها في أيام الموسم خاصة⁴¹.

ثم استعرض ما ذكره القاضي عياض في "شرح صحيح مسلم"، وتقي الدين الفاسي في "العقد الثمين"، وكلاهما استبعدا القول بالمنع ورجحا القول بالجواز استنادا إلى فعل بعض الصحابة بالتصرف في دور مكة بالبيع والشراء؛ كعمر وعثمان وابن الزبير ومعاوية⁴². وللتأكيد على القول بالجواز ذكر رأي ابن الحاج في منسكه قائلا: "اختلف أهل العلم في كراء بيوت مكة وبيعها [...] وأباح طائفة من أهل العلم بيع ربايع مكة وكراء منازلها؛ منهم طاوس وعمر بن دينار، وهو قول مالك والشافعي"⁴³. واحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾⁴⁴، وقوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ»⁴⁵.

فأثبت لأبي سفيان ملك داره، وأثبت لهم أملاكهم على دورهم، وقال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مَنَزِلًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِلْكٌ لِأَرْبَابِهَا»، وأن عمر ابتاع دار السجن بأربعة آلاف درهم، وأن دور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدي أعقابهم منهم: أبو بكر الصديق والزبير بن العوام وحكيم بن حزام وعمر بن العاص وغيرهم، وقد بيع بعضها وتصدق ببعضها، ولم يكونوا يفعلون ذلك إلا في أملاكهم وهم أعلم بالله وبرسوله ممن بعدهم، وتأول قوله: ﴿سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي﴾⁴⁶ بالبيت خاصة.

41 - انظر: الإسحاق: الرحلة، ج2، ص. 585؛ محمد بن أحمد ابن رشد: المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م، كتاب كراء الدور، الجزء الثاني، ص. 218-219.

42 - انظر: عياض بن موسى اليحصبي: شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، 1998م، كتاب الحج، باب النزول بمكة للحاج وتوريث دورها، ج4، ص. 464-465؛ كتاب الجهاد، باب فتح مكة، ج6، ص. 142-144؛ تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي: العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1986م، ج1، ص. 31-34.

43 - انظر: الإسحاق: الرحلة، ج2، ص. 586.

44 - سورة الحشر: آية 8.

45 - الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، رقم الحديث: (1780)، المجلد الثاني، ص. 857، بلفظ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ». وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في خبر مكة، رقم الحديث: 3015، ج3، ص. 479.

46 - سورة الحج: آية 23.

ثم ينتقل بنا الإسحاقى إلى كتاب "الذخيرة" للقرافى، فينقل عنه قوله: "ومقتضى هذه المباحث والنُّقول، يعني من أن أرض العنوة لا تملك، أن يحرم كراء دور مصر وأراضيها، لأن مالكا صرح في الكتاب وغيره بأنها فتحت عنوة، ويلزم على ذلك تخطئة القضاة في إثبات الأملاك وعقود الإجازات، غير أن أرض العنوة اختلف العلماء فيها هل تصير وقفا بمجرد الاستيلاء؟ أو للإمام قسمها كسائر الغنائم؟ وهو مخير في ذلك، والقاعدة المتفق عليها أن مسائل الخلاف إذا اتصل ببعض أقوالها قضاء حاكم تعين ذلك القول وارتفع الخلاف، فإذا قضى حاكم بثبوت أرض العنوة، ثبت الملك وارتفع الخلاف وتعين ما حكم به الحاكم، فهذا التقرير يطرّد في مصر ومكة وغيرهما"⁴⁷. ويضيف قائلاً: "بأن الدور وقف، إنما يتناول الدور التي صادفها الفتح، أما إذا تهدمت تلك الأبنية وبنى أهل الإسلام دوراً غير دور الكفار، فهذه الدور لا تكون وقفاً إجماعاً ومحيت. قال مالك: لا تكرى دور مكة؛ لعل مالكا يريد ما كان في زمانه باقياً من دور الكفار التي صادفها الفتح، واليوم قد ذهبت تلك الأبنية، نعم يختص ذلك بالملك والشفعة في الأرضين فإنها باقية أبداً"⁴⁸.

وأنبى الإسحاقى الإفتاء في هذه المسألة، وحسم مادة الخلاف فيها بقوله: "وهذا القدر من النقل كاف في المسألة إن شاء الله، وبه يندفع اعتراض المجاور الجائر وإلقاء كلامه وراءه ونبذه بالعراء، وهب أن المسألة ذات خلاف، فمن أتى شيئاً مختلفاً فيه لا ينكر عليه إلا أن يكون المدرك ضعيفاً كما قاله الإمام المواق في (سنن المهتدين)⁴⁹ وغيره، فإن من شرط المنكر أن يكون متفقاً على إنكاره، أما المختلف فيه فلا حصة فيه، ولا ينبغي للأمر بالمعروف أن يحمل الناس على مختاره واجتهاده، على أن المسألة والحمد لله تناولتها النصوص على مذهب مالك رضي الله عنه، وعلى الخصوص إذا حكم لنا الحاكم قاضي مكة الحنفى بصحة البيع والشراء وتُفَوِّذُهُما، وحسبك أن حكم الحاكم إذا اتصل بقول من الأقوال في مسائل الخلاف يرفع الخلاف ويلزم المصير إليه كما تقدم في القاعدة المتفق عليها، (ومن قلّد عالماً لقي الله سالماً)⁵⁰.

47 - انظر: القرافي شهاب الدين أحمد بن إدريس: الذخيرة، تحقيق الأستاذ محمد بوخبة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994م، ج5، كتاب الإجارة، ص. 407.

48 - الإسحاقى: الرحلة، ج2، ص. 588؛ القرافي أحمد بن إدريس: الفروق، وبهاشيته "إدراج الشروق على أنواء الفروق" للإمام ابن الشاط، تحقيق عمر حسن القيام، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، ج4، ص. 11.

49 - راجع: ابن المواق: سنن المهتدين في مقامات الدين، تحقيق محمد بن سيدي محمد بن حمّين، مؤسسة الشيخ المريبه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافى، مطابع بني يزناسن، سلا، ط1، 2002م، ص. 66.

50 - الإسحاقى: الرحلة، ج2، ص. 589.

خلاصة:

ثبتت هذه النازلة الخلافية التي أثارت كثيرا من النقاش والأخذ والرد بين العلماء والفقهاء بدءاً من أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة، ووصولاً إلى علماء الوقت، ما تمثله مكة المكرمة من استثناء عن باقي البلاد المفتوحة، باعتبار حرمتها وقُدسيّتها. كما نستنتج من خلالها حرص المغاربة على عدم مخالفة الشرع حتى وإن كان قصدهم القيام بأعمال البر والإحسان، واحترامهم لمهمة الإفتاء وتعظيم قدرها، ولا أدلّ على ذلك من هذه الأميرة العالمة التي شهد لها المؤرخون والمعاصرون بعُلوّ الكعب ورسوخ القدم في العلم والفقه، إلا أنها لم تجرؤ على إجراء البيع والتحبّيس إلا بعد استفتائها العالم الجليل أبا محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقى، الذي كتب لها رأي المذهب المالكي في النازلة.

مفالات عامة

المرأة المغربية وصيانة القيم الحضارية والوطنية المرأة السوسية الجزولية نموذجاً

ذة. آمنة الراضي
أكادير.

قامت الحضارة المغربية على امتداد تاريخها الطويل على قيم الإسلام العليا، ومبادئه الفاضلة الرفيعة، التي رسخت في نفوس المغاربة رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً فترجموها إلى أعمال جليلة، وإنجازات عظيمة، كبناء أم البنين فاطمة الفهرية جامع القرويين من حر مالها سنة 245 هـ دعماً للعلم وأهله، وتعاون المغاربة جميعاً وتضامنهم في مقاومتهم للاحتلالين الفرنسي والإسباني لأرضهم في العصر الحديث وغيرها، مما أسهم في تحقيق اللحمة بين مكونات المجتمع المغربي المتجسدة في الانسجام بين الناس وبينهم وبين ولاة أمورهم، وهو ما ضمن للحضارة المغربية التفرد والتميز عما سواها، وكانت من أسباب ما بلغته - على مدى التاريخ - من مجد شامخ عريق، يلمس في كافة نواحي الحياة المغربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية وغيرها.

وقد شاركت في بناء صرح المنظومة القيمية المغربية مناطق المغرب وأقاليمه المتنوعة، التي شكلت روافد هامة لبناء هذه المنظومة وتغذيتها بقيم عليا تستمد أسسها العامة من الشريعة الإسلامية ومن الموروث الحضاري المغربي، وتتخذ في تجلياتها صوراً وأشكالاً عديدة تتنوع من منطقة إلى أخرى، في تنوع بديع داخل الوحدة القيمية والدينية والفكرية الوطنية.

وإلى ذلك، شكل سوس على مدى تاريخه، بفضل موقعه المتميز، حلقة وصل بين شمال المغرب وجنوبه، وأسهم بنصيب وافر في إغناء الحضارة الوطنية مع المحافظة التامة على خصوصيته اللغوية (انتشار اللغة الأمازيغية الشلحية بمختلف لهجاتها)، والعلمية والثقافية (كثرة المدارس العلمية العتيقة ووفرة العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء باللسانين العربي والأمازيغي) والفنية الفولكلورية

(أحواش) والحضارية (الأطعمة والألبسة الخاصة بالنساء على وجه التحديد من مثل تاملحافت وأدال والحايك، إلى جانب العمران والأثاث وأسلوب العيش والعادات والتقاليد وغير ذلك). وقد تكون بمجموع هذا كله طابع عام وحضارة ماجدة، وافقت الثوابت العامة والاختيارات الحضارية الكبرى للمغرب دينيا وسياسيا واجتماعيا، مع الاحتفاظ بلمسة خاصة جعلت الحضارة المغربية التي طورها أبنائها على مر التاريخ، متميزة في كثير من تفاصيلها في كل منطقة من مناطق الوطن بطابعها الخاص.

وإذا كانت الحضارة المغربية عموما، والسوسية منها على وجه التحديد قد ارتفع بنيانها، وعلت قببها، واستوت صروحها، وازدهت بما يسر الناظر، ويبهج النفس والخاطر، من أسباب الكمال ودواعي التمام، فإن ذلك راجع إلى تعاون الرجل والمرأة معا، وإلى ما بذلاه من جهود وتضحيات كبيرة، استحق بها سوس أن يخصه العلامة المؤرخ محمد المختار السوسي بمؤلفات عديدة تكتب بمداد الفخار تاريخه، وتسجل بكثير من الاعتزاز صورا مشرقة وضياء من ملامح تلکم الحضارة السوسية المغربية المجيدة.

ولما كانت الأمم والحضارات إنما تحيى وتتطور بقيامها على قيم ثابتة معلومة تكون أرضية عامة مشتركة لتنظيم الحياة الجماعية وتحديد المقبول والمردود من السلوكات البشرية، حتى يجمع كل الناس على استحسان سلوك وذم آخر، على النحو الذي يعرضه قول شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فإنه لا بد من الإشارة إلى قيام الحضارة المغربية السوسية على قواعد خلقية وقيم عليا عديدة، أسهمت في تنظيم العلاقات في سوس، شارك في بنائها كل من الرجال والنساء، كما عملت المرأة السوسية الجزولية المحبة لبيتها ولمثلها العليا، بدعم هذه القيم، وبذلت في ذلك جهدا محمودا، أظهرت به تفانيا واضحا في حماية قيمها الموروثة بوسائل متنوعة ضمنت استمرارها إلى عصرنا الحالي.

أولاً - المنظومة القيمية بسوس:

أ- مفهوم منظومة القيم وتجلياتها في الحياة السوسية الجزولية:

1- مفهوم القيم: ¹ القيم في اللغة جمع قيمة، وهي "ثمن الشيء بالتقويم" ². وقد تعددت تعريفات القيم بتعدد المجالات المعرفية التي ينطلق منها المعتنون بتبيان المراد بها، فقد عرفها محمد عاطف غيث بأنها "الصفات الشخصية التي يفضلها أو يرغب فيها الناس في ثقافة معينة" ³، وعرفها جليل وديع الشكور بأنها "تنظيمات لأحكام عقلية انفعالية معممة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط، [..إنها] تعبير عن دوافع الإنسان وتمثل الأشياء التي توجه رغباتنا واتجاهاتنا نحوها" ⁴.

وعرف د. طه عبد الرحمان القيمة من المنظور الفلسفي بقوله: "تفيد القيمة المعنى الخلقي الذي يستحق أن يتطلع إليه المرء بكليته، ويجتهد في الإتيان بأفعاله على مقتضاه" ⁵، واختار لهذا المصطلح مرادفين هما: المثال أو المثال الأعلى والمصلحة. ⁶

وعرفها د. عبد اللطيف محمد خليفة بقوله: "فالقيم ما هي إلا انعكاس للأسلوب الذي يفكر الأشخاص به في ثقافة معينة، وفي فترة زمنية معينة، كما أنها هي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم، فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه، من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير" ⁷.

وبهذا يتضح أن المراد بالقيم هو تلك المقومات المعنوية المجردة التي "تشكل مرجعياتنا الأساسية، وتمكننا من إجراء اختياراتنا الحاسمة، وتعمل على توجيه أفعالنا وسلوكنا بشكل كبير" ⁸.

1 - انظر تعريف القيم في: النساء المتزوجات: العمل والقيم، مهشيد جليل وند، ضمن: عمل المرأة مقاربات دينية واجتماعية، ص: 430، إشراف وإعداد: ليلى سادات زعفر، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2013م.

2 - لسان العرب، مادة قوم.

3 - دراسة في المجتمع القروي المصري، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، 1977م، ص: 236.

4 - أبحاث في علم النفس الاجتماعي ودينامية الجماعة، ص: 211. دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس لبنان، 1989م.

5 - تعددية القيم: ما مداها وما حدودها؟ ص: 11، درس افتتاحي للجنة الجامعية 2001-2002 تم إلقاؤه بكلية الآداب والعلوم الانسانية بمراكش.

6 - نفسه.

7 - ارتقاء القيم، دراسة نفسية، عالم المعرفة عدد 160، أبريل 1992م، ص: 14.

8 - التحولات الاجتماعية القيمية للشباب المغربي، محاولة للرصد والفهم، عبد اللطيف كداي، ضمن: مجلة التدريس، مجلة كلية علوم التربية، العدد 7، السلسلة الجديدة، يونيو 2015م، ص: 81.

يفضلها الناس، ويرون في تطبيقها في حياتهم في صورة سلوكات وممارسات، سبيلا لحياة كريمة طيبة، تماما كما يرون في تجاهلها والإعراض عنها سببا في الشقاء والتعاسة.

2 - مفهوم منظومة القيم وأهميتها: لقد كان ظهور مفهوم نسق القيم أو منظومة القيم استجابة لتصوير يرى أن لا سبيل إلى فهم قيمة واحدة أو دراستها، بمعزل عن باقي القيم التي تكون المرجع الخلقي للفرد أو المجتمع، لارتباطها ببعضها البعض بعلاقات متداخلة تستمد منها هذه القيم قوتها،⁹ وبهذا عرّف ولما النسق أو المنظومة بأن المراد بهما "مجموعة العناصر، لها نظام معين، وتدخل في علاقات مع بعضها البعض لكي تؤدي وظيفة معينة بالنسبة للفرد"¹⁰.

إن منظومة القيم التي تعني مجموع القوانين الخلقية التي تتنظم وترتبط فيما بينها بعلاقات منطقية (السبب بالنتيجة، أو البعض بالكل، أو العموم بالخصوص أو غيرها)، مما يخول لها القوة اللازمة لتنظيم حياة الأفراد داخل المجتمعات، لتكتسب قيمتها في سوس وأهميتها بالنسبة للفرد والجماعة معا، من الوظائف المتنوعة التي تضطلع بها، وقد حددتها الباحثة فاطمة نفيديسة في:¹¹

• تحديد مفهومي الصواب والخطأ وما يتصل بهما من الصالح والطالح من السلوك الإنساني، مما يجعلها معيارا يقيس به الفرد سلوكه وسلوك غيره.

• ضمان تماسك المجتمع واستمراره، بفضل تمثيل تلك المنظومة القيمية لمشارك عام يجتمع عليه جميع الأفراد المكونين لذلك المجتمع، مما يؤدي إلى الانسجام والتوافق بين أفراد المجتمع الواحد، لأن الجيد المرغوب واحد عند الجميع، كما أن القبيح المستهجن عندهم واحد أيضا.

• ضمان حقوق جميع مكونات المجتمع بفضل التناغم بين الحق والواجب في المجتمع.

• المحافظة على توازن الفرد النفسي،¹² وتمكينه من الاضطلاع بواجباته الاجتماعية على أحسن

وجه.

9 - ارتقاء القيم، ص: 52.

10 - نفسه، ص: 32.

11 - انظر حولها: العلاقة بين النسق القيمي والدور الاجتماعي لدى المرأة الطارقية، دراسة ميدانية بمدينة تمراست، ص: 36-37. بحث لنيل شهادة الماجستير تخصص علم النفس الاجتماعي، نوقش يوم 15 يناير 2007م، إشراف: أ. د. محيي الدين مختار. جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم علم النفس وعلوم التربية.

12 - العلاقة بين النسق القيمي والدور الاجتماعي لدى المرأة الطارقية، دراسة ميدانية بمدينة تمراست، ص: 179.

3- القيم المؤطرة للحياة السوسية الجزولية:

• أنواعها:

يسلم التأمل في القيم المنظمة للحياة السوسية منذ القديم إلى تفرعها إلى قسمين كبيرين:

• قسم ينظم علاقة الأفراد بعضهم ببعض: بما يضمن لكل واحد صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى، معافى أو سقيما، قويا أو ضعيفا حقوقه، ويصون كرامته عما يحيط منها. ومن أهمها:

✓ قيمة الاحترام: التي تتجسد في سلوكات إيجابية أو ما يصطلح عليه بـ "الأخلاق"، من قبيل احترام الأكبر سنا، احتراما يتجلى في تحلية اسمه ببعض الألقاب التي تنم عن التقدير والاحترام ك: دد، بابا، وغيرها، والتحرز من مناداته باسمه الشخصي لوحده، حتى إن الأخ لينادي أخاه الأكبر بالطريقة ذاتها احتراما وتقديرا. ويضاف إلى ذلك تخصيصه بصدور المجالس، والحرص على إعطائه الأسبقية للبدء في أي أمر، وغير ذلك مما يبين احترامه.

✓ قيمة التضامن والتعاون: التي تتجلى في سلوك السوسيين بأشكال عديدة، تكشف انغراس هذه القيمة في شخصية الإنسان الجزولي، حتى إنه ليصدر عنها في كل وقت وفي أي مكان بأريحية تامة.

• قسم ينظم علاقة الأفراد بالجماعة التي ينتمون إليها: سواء أكانت هذه الجماعة أسرة أم قبيلة أم منطقة أم مدينة أو بلدا، ويدخل ضمن هذا القسم قيم كثيرة من أبرزها:

✓ قيمة التضحية: التي تشرّبها السوسيون فترجموها إلى أشكال عديدة ومتنوعة من التضحيات، من خلال بذل النفس والمال والبنين في سبيل الدفاع عن الأسرة والقبيلة والوطن أمام كل اعتداء. ولعل في تأخر سقوط منطقة سوس في يد الاحتلال الفرنسي إلى 1934م، وفي ملاحم المقاومة الباسلة التي خاضها السوسيون ضد المحتلين، ما يقف دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على تطبيق أبناء سوس لقيمة التضحية في أوسع معانيها في حياتهم. وقد جسدت المرأة الجزولية قيمة التضحية في أنصع صورها بما تحمّلت في سبيل أسرتها ومجتمعها.

✓ قيمة الانتماء: فقد تشبع السوسيون منذ القديم بهذه القيمة الفطرية السامية، سواء تعلق الأمر بالانتماء الديني والعقدي أو بالانتماء للأسرة والعائلة، أو بالانتماء للوطن والأمة، الأمر الذي يفسر تشبّثهم بدين الإسلام بعد الفتح الإسلامي، وبالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، مما أدى إلى ولائهم لقيم الأسرة كاحترام الوالدين واحترام الأكبر سنا، ووفائهم بقيم القبيلة كالتضامن

والتعاون الذي يتخذ صوراً عديدة مثل تيويزي¹³ عند الحصاد أو بناء مسجد أو غيره، وتقسيم ماء الري اعتماداً على عدد الكوامين، ومشاركة أسر البلدة أعباء ونفقات بعض المناسبات كالأعراس وغيرها تمويها وتنظيها، وولائهم لثوابت الوطن الحضارية، وعلى رأسها إمارة المومنين، ولوحدته الترابية وقيمه الأصيلة الراسخة. ولهذا ناظر العلامة أبو زيد التمنارقي، قاضي الجماعة بتارودانت على عهد السعديين محمداً التاهرتي، الذي نقض ثوابت الوطن وراح يؤلب الناس على ولي الأمر، ثم دعا لنفسه فتصدى له التمنارقي، وبين للناس ألامه وحبالته، وأظهر خداعه وكذبه في مؤلف خاص وفاء لقيم ومقدسات الوطن.

✓ قيمة الصبر والتحمل: تميزت البيئة السوسية منذ القديم بظروف صعبة على عدة مستويات: سياسية، إذ كثرت فيها المناوشات والحروب بين القبائل بسبب ضعف السلطة المركزية، وعدم وصول دائرة نفوذها إلى منطقة سوس. وجغرافية: تتمثل في وعورة تضاريسها خاصة في ما يسمى ببلاد جزولة حيث الجبال الشاهقة. واقتصادية، تتمثل في غلبة الفلاحة المعاشية البورية على النشاط الزراعي بالمنطقة، وقلة الموارد المائية، مما يحول دون توفير الفلاحة السوسية الجزولية على وجه الخصوص، دخلاً كافياً لتغطية متطلبات الحياة. أما الصعوبات المناخية، فتكمن في قساوة المناخ ببلاد جزولة خاصة في فصل الشتاء حيث يعمها برد شديد مع تساقط الثلوج وتدني درجات الحرارة، ولا شك أن الاستقرار ببيئة بهذه الخصائص يستلزم التحلي بالصبر الكبير، وهذه الأسباب طوّرت السوسيون قيمة الصبر والتحمل حتى صارت سمة من سماتهم النفسية وخصيصة من خصائصهم الشخصية، وتتجلى هذه القيمة في حياتهم في تحملهم من الشدائد ما لا يستطيع غيرهم تحمّله.

✓ قيمة الإتقان: وتظهر هذه القيمة في حياة المرأة السوسية الجزولية في حرصها الشديد على إتقان أعمالها، وخاصة ما يتصل بالنسيج، الذي يكشف عن دقة متناهية في حياكة المنسوجات وفق شروط فنية وجمالية، وضوابط نفعية، تجعل المرأة تصدر عن قيمة الإتقان وتسعى لبلوغ درجة الإحسان المأمور بها شرعاً، فتترجمها في منسوجاتها المتنوعة التي تستعمل عادة في اللباس (الجلباب - أحايك - أدال...) والأفرشة (الحمل - أفاغو...) وغيرها، فتنتج قطعاً فنية رائعة تستفيد منها أسرته.

13 - تعني تيويزي أو التوية: "مساعدة جماعية في شكل عمل تقدم عن طوعية وبدون أي إكراه من طرف أهل الدوار أو القبيلة لفرد أو عائلة". انظر: مادة التوية، رحمة بورية، معلمة المغرب، 2652/8.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنها تصدر عن هذه القيمة أيضا أثناء إصلاح وترقيع ما يلحق هذه المنسوجات من خروم أو تمزقات بسبب أو بآخر، حتى لا يكاد المتأمل فيها يتنبه إلى أنها خضعت للترقيع إلا بعد جهد جهيد، يكشفه في الغالب اختلاف لون الصوف.¹⁴

• دورها:¹⁵

أدت القيم السوسية دورا هاما بارزا في ترشيد الحياة العامة بسوس وتنظيم مكوناتها على النحو التالي:

• دورها بالنسبة للفرد: يتلخص في تكوين إنسان متوازن سوي، يعي جيدا حقوقه وواجباته، ويفهم السلوك المقبول المستجاد في بيئته لياثيه، وما يقابله من السلوكات المردودة المرفوضة المستهجنة فينأى عنها، مما يجعله متناغما مع بيئته، الأمر الذي يؤهله بعد ذلك للإسهام بفعالية في تنميتها وتطويرها، لا أن يكون عنصر قلق وتهويش فيها. إنها تكون أشخاصا أفاذا يتمتعون بتصورات واضحة عن الحياة ودورهم فيها، ويحملون من أسباب الثقة والتوازن ما يستطيعون به الصمود أمام مختلف التحديات ويواجهوا كافة العقبات، وقيموا مصالح مجتمعاتهم على أسس تضمن لها الاستقرار والاستمرار.¹⁶

• دورها بالنسبة للمجتمع: يكمن في خلق مجتمع منسجم متناغم، يسوده ذوق خلقي عام موحد، يحدد المقبول والمردود، والجيد والسيء، يكون لأفراد المجتمع بمثابة مرجع وقانون عام، ينظم العلاقة بينهم، ويساعدهم في التعاون لتحقيق المصلحة العامة للمجتمع ككل، بأن يحدد مهام ومسؤوليات كل الأطراف، مما ينشئ تناسقا وتكاملا بين مختلف الأدوار الاجتماعية، فتزداد قوة المجتمع، مع حماية مصالح الأفراد بما لا يتعارض مع المصلحة العليا للوطن. ولهذا لا يحس المتنقل بين قرى وقبائل ومناطق بلاد جزولة بفرق كبير في منظومتها القيمية.

14 - كنت رأيت قطعة "تأحاكت" نسجتها جدة العلامة محمد المختار السوسي تكدًا بنت سعيد من الصوف الأبيض بخيوط صوفية غاية في الدقة، وبها ترقيعات رائعة تنم عن براعة وإتقان عجيبين، إنها نهني إليها اختلاف لون الصوف.

15 - انظر: دور القيم في: العلاقة بين النسق القيمي والدور الاجتماعي لدى المرأة الطارقية، ص: 36-37.

16 - القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، عبد المجيد بن مسعود، كتاب الأمة، العدد 67، السنة الثامنة عشرة، ط 1 رمضان 1419هـ، ص: 132.

ب- الأسس الفكرية للقيم بسوس:

1- الأساس الديني العقدي:

كان اعتناق السوسيين الدين الإسلامي، وتعلقهم به من أهم العوامل التي أدت إلى تأسيس وتثبيت منظومة القيم السوسية. فقد كان الإسلام بقيمه ومبادئه الخلقية المرجع الثابت والمشارك لأفراد المجتمع السوسي الجزولي، فمنه تمتح القيم السوسية مكانتها وقوتها،¹⁷ ولهذا تنطق هذه القيم بأصولها الدينية الإسلامية، التي تجعلها كلها وبدون استثناء، مستمدة مما نصّ عليه الإسلام في باب تدبير علاقة الأفراد فيما بينهم، وتدبير علاقتهم بالمحيط العام الذي يحيون فيه، ويتأثرون به ويؤثرون فيه.¹⁸ فإن قيمة الاحترام أو الأبوة أو البذل والعطاء أو العفة أو التضامن أو الطهارة والنظافة أو العلم أو التواصل أو غيرها، التي تترجم إلى أعمال بر كثيرة، كتقدير المعلم والمتعلم والاحتفاء بهما، أو التضامن المادي والمعنوي بين الأفراد في الأفراح والأتراح، أو خفض الجناح للوالدين، أو الحرص على نفع الناس بشتى أصناف المنافع الحسية والمعنوية، كالكلمة الطيبة والصدقة أو إصلاح ذات البين وغيرها، مما يدخل ضمن تجليات ومظاهر تلکم القيم في السلوك العام للإنسان السوسي، كلها تمتح أسسها الفكرية من النصوص الدينية القرآنية والحديثية، من قبيل قوله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}¹⁹، وقوله صلى الله عليه وسلم: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)²⁰، وقوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان}²¹، وقوله تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}²²، وقوله صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى)²³، وقوله أيضاً: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)²⁴، وقوله

17 - التحولات الاجتماعية القيمة للشباب المغربي، ص: 81.

18 - العلاقة بين النسق القيمي والدور الاجتماعي لدى المرأة الطارقية، ص: 34.

19 - سورة المجادلة، الآية 11.

20 - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: 4873.

21 - سورة المائدة، الآية 3.

22 - سورة البقرة، الآية 220.

23 - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، حديث رقم: 1034.

24 - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، حديث رقم 1442، 115/2.

كذلك: (والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه)²⁵، وقوله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}²⁶.

يضاف إلى ذلك، الدور الكبير الذي اضطلعت به السيرة النبوية الغراء في نشر المثل العليا الدينية في بلاد جزولة، إذ السيرة المطهرة تجسيد عملي لقيم القرآن الكريم، وتنزيل لها على أرض الواقع.²⁷ ولقد انتشر الإقبال على السيرة النبوية في سوس، وشاع تداولها بينهم بالعربية أو مترجمة إلى الأمازيغية السوسية في صورة منظومات تنشدها المرأة بألحان مؤثرة في كل الأوقات وهي تقوم بأعمالها اليومية، فيتأثر بها المحيطون بها.

الأمر الذي يدفعنا للقول مطمئنين، إن جميع القيم السوسية تعبر تعبيرا صادقا لا لجلجة فيه عن تعلق السوسيين بدينهم وتشربهم قيمه ومبادئه، وحرصهم على تنزيله على أرض واقعهم، تماما كما تعبر عن عقيدة التوحيد لديهم، التي ترجمها بوضوح لغتهم اليومية التي ترشح بذكر الله والإقرار بوجوده، وطلب العون منه وحده، كما في قولهم عند تحية بعضهم البعض في كثير من المناطق الأمازيغية (قبيلة إداوزكري تحديدا)²⁸: "اللّعاون" أو "أكّ إعاون ربي"، وتعني: "أعانك الله"، ثم نحتت بفعل الاستعمال اليومي فصارت "اللّعاون". وكقولهم عند توديع بعضهم البعض بالأمازيغية السوسية: "أداخ إسامح ربي"، وتعني: "ساحنا الله"، وهو كلام يفيد الاستغفار والتوبة عما قد يداخل الكلام من ذنوب. وكقول عدد كبير منهم عند قيامهم أو جلوسهم: "ياربّ تليت"، التي تعلن إقرار القائل بصفة الوجود لله تعالى، مما يدخل في باب العقيدة والتوحيد، تماما كما يدل على توحيد الله تعالى قول النساء عند الطحن: "لا إله إلا الله إگا واحدوت أوريلي أشريك"

2- الأساس التاريخي الحضاري:

تنطق القيم السوسية بعمق التاريخ الحضاري للمغرب، الذي تعد منطقة سوس من أهم مناطقه. وإذا كنا لا نشك في أن عددا من هذه القيم يرجع إلى أقدم العصور، كقيمة الانتماء للوطن،

25 - أخرجه مسلم في باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم 2699، ص: 2074.

26 - سورة الحجرات، الآية 13.

27 - استفادة القيم من السيرة النبوية وتوجيهها في علوم الإنسان والمجتمع، مدحت ماهر، ضمن: القيم في الظاهرة الاجتماعية، أعمال الدورة المنهجية في كيفية تفعيل القيم في البحوث والدراسات الاجتماعية، دار البشير للثقافة والعلوم - مصر، 1433هـ/2012م، ص: 181.

28 - قبيلة سوسية تابعة لقيادة حد إمامون، دائرة إغرم، إقليم تارودانت.

فإننا نؤمن كذلك بأن الفتح الإسلامي لهذه المنطقة، واتصال أهلها بدين الإسلام الذي جاء لتتميم مكارم الأخلاق، أغنى منظومة القيم لديهم بما جاء به منها مما يشمل مختلف مناحي الحياة الإنسانية.

وتبعاً لذلك، تختزل القيم السوسية تاريخ الحضارة المغربية في هذه المنطقة، بوصفها نتاج تفاعل الإنسان السوسي الطويل مع بيئته، ومع مختلف الحضارات التي تعاقبت على المغرب عبر تاريخه العريق، فإن هذه القيم تمثل خلاصة الخبرات المتتالية بالحياة المجتمعية، والتي تفتقت عن القوانين والقواعد العامة الكفيلة بضمان حياة كريمة ومتوازنة للفرد وللمجتمع كله، كما تمثل زبدة اختيارات الوطن الحضارية.

3- الأساس الجغرافي البيئي:

كثير من القيم السوسية كانت استجابة لحاجات ملحة فرضها الموقع الجغرافي لجزولة وطبيعة مناخها، حيث أدى موقع مناطقها الجبلية، وتشتت الأراضي الزراعية في مناطق شاسعة ووعرة ونائية، بل موحشة أحيانا كثيرة، إلى توحيد السوسيين جهودهم للتمكن من القيام بأعمالهم في ظروف أفضل.

كما فرض توالي سنوات القحط والجفاف، وندرة الموارد المائية بكثير من مناطق سوس،²⁹ إلى رفعهم جميعاً لواء قيمة التدبير والاقتصاد، حتى صار حسن تدبير الموارد المائية سمة أساسية من سمات الشخصية السوسية، فتصنف المياه إلى ما يصلح للشرب وما يصلح للزراعة والأعمال المنزلية كالطهو والتنظيف وغيرها، مع الحرص على الاقتصاد الشديد في كل واحدة من هذه الأمور. ومن ذلك أنهم يقسمون بينهم بحسب عدد الأسر أو الكوادر في كل مدشر أو بلدة الموارد المائية المتاحة لهم، في شكل أنصبة معلومة يستفيد منها الجميع بالتناوب في مدة محددة، قد تكون بضعة أيام أو أسبوعاً أو أكثر تبعاً لمخزون المياه.

4- الأساس الاقتصادي:

أدى ارتفاع تكاليف بعض الأعمال في مناطق كثيرة من جزولة، كالحرث والحصاد وإقامة الأعراس وتسميد الأراضي ورعي المواشي وغيرها، مع انتشار الفقر بين الناس، وغلبة الفلاحة المعاشية على نشاطهم الاقتصادي، إلى تطوير قيمة التعاون والتضامن بين الأسر للقيام بتلك

29 - انظر: منوغرافية جهة سوس ماسة درعة، ص: 2-3، المديرية الجهوية للتخطيط، جهة سوس ماسة درعة، 2009م.

الأعمال. ومن ذلك أن الأسر يتحدون أيام الحرث والحصاد، ويستعينون بدوابهم مجتمعة للإسراع في إنهاء أعمالهم، وتقليص مدتها، مما يخفض تكلفة الإنتاج لديهم، بدلا من أن تواجه الأسر كل واحدة على حدة تلك التكاليف الباهضة. كما تتجلى قيمة التضامن والتعاون عند القبائل السوسية الأمازيغية أيضا في مشاركة جميع الأسر المنتسبة للبلدة حيث يقام العرس، في كافة التجهيزات الخاصة بالحفل، فيقوم الناس بتحمل جزء كبير من تكاليفه، ومن ذلك اختصاص النساء بإعداد الخبز على الطريقة التقليدية (خبز تافارنوت)، والإشراف على مختلف العادات والتقاليد المرتبطة بالاحتفالات بالزواج.

5- الأساس البنيوي الاجتماعي:

تعد البنية التركيبية لكثير من القبائل الجزولية من أسباب تطوير أصحابها لكثير من القيم التي وسمت الحياة السوسية، ومن ذلك انتظام الناس في أسر كبرى تجمع الأجداد والأبناء والأحفاد، وارتباط الأسر داخل البلدة الواحدة بعلاقات قرابة متشابكة ومعقدة إما بالدم أو بالمصاهرة، مما يجعل تضامنهم مع بعضهم البعض أمرا مفروضا ومحسوما، لما تؤدي إليه فرقتهم من انقطاع علاقاتهم وضياع مصالحهم جميعا. ولهذا غالبا ما تتجاوز علاقات القرابة تلك البلدة إلى القبيلة، بل تتعداها إلى قبائل ومناطق أبعد.

6- الأساس الأمني:

تميزت منطقة سوس بانحسار نفوذ السلطة المركزية عنها في فترات تاريخية عديدة، مما أدى إلى انتشار الحروب بين القبائل، فأحيا السوسيون قيمة التعاون فيما بينهم لحماية أنفسهم وتأمين حياتهم، وتضامنوا مع بعضهم البعض لدفع الاعتداءات ورد الهجمات. وتظهر الحاجة الأمنية عند السوسيين قديما في البنية العمرانية لبلداتهم التي كانت تبدو في شكل تكتلات ومجموعات عمرانية تحادي فيها الدور والمنازل بعضها البعض، وتُتخذ لها أبواب ونوافذ صغيرة، وتخصص بأبواب عمومية كبرى تؤمن منازل البلدة وتحميها من أي هجوم خارجي.

ثانيا المرأة الجزولية وتثبيت القيم بسوس:

أ - شروط المرأة الداعمة لمنظومة القيم بسوس:

لقد كان المجتمع الجزولي واعيا بأهمية النسق القيمي المنظم لمختلف مناحي الحياة السوسية، وبدور المرأة الهام في ترسيخ هذه القيم وحمايتها، حتى إذا بحثنا في صفات المرأة السوسية التي شاركت عبر تاريخ سوس الطويل في هذا العمل الحضاري الجليل، وجدناها تتلخص فيما يلي:

- الوعي بقيمة القيم:³⁰ فإن النساء السوسيات الواعيات بأهمية المحافظة على القيم، المتشبعات بالمثل العليا لبيئتهن بفضل تنشئتهن الاجتماعية في بيئة ترشح بهذه القيم، هن الأقدر على نقل التعلق بها لأبناء منطقتهم، وهن من ينجحن فعلا في إقناع المحيطين بهن بالالتزام بقيم سوس الأصيلة، بصرف النظر عن أعمارهن أو مستوياتهن التعليمية أو الاقتصادية أو غيرها. وقد ربطت الباحثة فاطمة نفيدسة نجاح الأمهات خاصة في نقل قيم دون أخرى بمستوياتهن الاقتصادية والاجتماعية، وهو كلام مردود، لأن جداتنا السوسيات اللاتي نجحن في تمرير قيمهن للأبناء والأحفاد، كن يعشن ظروفًا اقتصادية غير مريحة، كما أنهن أقل تعليما، ولكنهن كن أكثر وعيا. لقد كن ببساطة يصدرن عن وعي عميق بأهمية الموروث القيمي لمنطقتهم اكتسبته أثناء تنشئتهن الاجتماعية، وهو الأمر الذي غاب عن الباحثة.³¹

- الحالة الاجتماعية: المرأة السوسية المندمجة في مجتمعها من خلال الانتساب لمؤسسة الزواج، تكون رؤيتها للحياة أوضح، وتصوراتها وآراؤها أكثر واقعية لأنها نابعة من معرفة وخبرة بطبيعة الحياة المجتمعية وتحدياتها.

- العلم: كانت النساء العالمات بسوس يُقصدن منذ القديم لإسداء النصيحة وتقديم المشورة في الأمور الحياتية المختلفة فضلا عن الأخروية، ذلك أن مفهوم العلم في الإسلام شامل "لكل مجال من مجالات استخدام العقل البشري ما دام استخدامه لصالح الإنسانية"³² مما أهلهن لحراسة منظومة

30 - انظر: قيمة القيم، المهدي المنجرة، ط2، 2007م.

31 - انظر: العلاقة بين النسق القيمي والدور الاجتماعي لدى المرأة الطارقية، ص: 44.

32 - معالم الشخصية الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية، أحمد بن التهامي التلمساني، دعوة الحق، ع 243، ربيع الثاني، 1405هـ/ دجنبر 1984م. عن موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

القيم المجتمعية، بفضل علمهن الذي أكسبهن هبة واحترام الناس من جهة، كما أكسبهن القدرة على توجيه الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

- الصلاح: يعد الصلاح النابع من التدين الوسطي المعتدل في حد ذاته، قيمة حضارية كبرى، لأنه "جامع لكل خير، ومانع لكل شر، وبه يتحقق النمو والازدهار والنهضة للمجتمع"³³، تُقابل من تحقق فيها الصلاح بالإكبار والإجلال، لأنها تمثلت هذه القيمة في نفسها، وترجمتها إلى سلوكات خلقية مستحسنة في بيئتها، فيُقابل صنيعها باحترام الناس وتقديرهم. ومن هنا فإن المجتمع يخوّل للصالحات - كما يخوّل للصالحين - تدبير شؤونهم، وتنظيم حياتهم العامة، وعلى رأسها ما يتصل بالقيم العامة للمجتمع، ولهذا يُنظر إلى صلاح المرأة السوسية بوصفه أحد العوامل التي تمكّن النساء من الإسهام في ترسيخ القيم في بيئتهن وحمايتها من الضياع.

- الحنكة والنباهة: تنتزع النساء اللائي أظهرن حنكتهن في إدارة أسرهن، ومهارة في تدبير ما يعرض لهن أو لغيرهن من مشاكل وصعوبات، تقدير بيئتها (الأسرة، القبيلة..)، فتتدب للقيام بمهام مماثلة، وتُعطاها من الصلاحيات ما يمكنها من التدخل لضمان توازن محيطها عند الإخلال بقيمها الراسخة.

ب - طرق وآليات ترسيخ المرأة السوسية القيم في بيئتها:

تعمل المرأة السوسية المتشعبة بقيم بيئتها على نشرها بين الناس، وإشاعتها والترويج لها متوسلة طرقا عديدة يمكن اختزالها فيما يلي:

1- طرق مباشرة: تتلخص في التدخل المباشر لمنع خرق هذه القيم أو لإعادة ربط الناس بها من جديد عند التطاول عليها أو الخروج على مقتضياتها، سواء أكان ذلك داخل الأسرة أو خارجها، وذلك من خلال نهر خارق القيم وزجره بالقول أو بالفعل. ففي الوقت الذي قد تنهر فيه المرأة الولد عن إحجامه عن زيارة ذوي رحمه، أو مساعدة أحدهم أو الحنو على مستضعف، فتبين له بالقول خطأه، وتحاول إقناعه بالعدول عن فعله وتصحيح خطئه، قد تلجأ إلى التدخل المباشر العملي لمنع التطاول على تلك القيم، كأن تتدخل لفض بعض النزاعات التي تنقض قيمة الاحترام، أو تؤدب عمليا من تجاسر على إحدى القيم بإرغامه على الاعتذار وإصلاح خطئه.

33 - مقصد إصلاح العالم في القرآن الكريم، فريدة حديد، ضمن مجلة: إسلامية المعرفة، بحوث ودراسات، السنة 23، العدد 89، صيف 1438هـ/2017م، ص: 133-134.

لقد عملت المرأة الجزولية أيضا على إشراك الصغار في القيام بمختلف الأعمال التي تربيهم على تحمل المسؤولية، فنجد الأولاد يشاركون في الري والزراعة والتسوق، كما نجد الفتيات يرعين إخوتهن الصغار، ويجلبن الماء ويحتطبن وغير ذلك، وهو منهج قويم تنبه علماء النفس الاجتماعي إلى دوره في تدعيم القيم لدى النشء، ودعوا إليه.³⁴

2- طرق غير مباشرة: تسعى المرأة من خلالها إلى توجيه الناس من بعيد، ودفعهم إلى تعظيم القيم السوسية واحترامها، والحرص على تطبيقها في حياتهم من خلال الوسائل التالية:

- التربية داخل الأسرة: فالأسرة هي أكثر المؤسسات الاجتماعية المؤهلة لنقل القيم لأبنائها، وتعريفهم بما يُقبل وما لا يُقبل.³⁵ فإن الطفل يقضي وقتا طويلا مع والدته أو من ينوب عنها كالجدة، مما يجعله في احتكاك دائم ومباشر مع المرأة السوسية التي تُمرّر إليه القواعد الخلقية والمثل العليا لمجتمعهم بسلاسة وسهولة، خاصة إذا كانت العلاقة بينهما علاقة ودية يطبعها الحب والوئام، لأن الطفل يقوم بمحاكاة من يرعونه و"يقلد أو يحاكي بدرجة كبيرة ضروبهم السلوكية لكسب رضاهم وحبهم له، وهذا يحدث بالطبع عن طريق التقليد".

• الأمثال والحكم:³⁶ تختزل الأمثال والحكم في جمل قصيرة غالبا، خبرة الأجداد حول ما يحسن حياتهم، ويرقي مجتمعاتهم من الأشياء أو الأفكار والقيم أو السلوكيات. ومن هنا تعد دراسة أمثال أمة من الأمم طريقا قاصدا لمعرفة أسسها الفكرية، وقيمها العليا التي تحدد ذوقها الحضاري.

وتبعا لذلك، يضعنا البحث في الأمثال والحكم بمنطقة سوس، أمام بناء قيمية شامل، يخص جميع مناحي الحياة. ومعلوم أن تميز الحكم والأمثال بالاختصار - إذ لا تتعدى بضع كلمات في معظم الأحيان - وبالاكتفاء على توافق فواصلها في الصوت الأخير، يسهل حفظها واستيعابها، ويسر غرس القيم التي تنطوي عليها تلك الحكم في أذهان الصغار من أبناء سوس. خاصة إذا استحضرننا كثرة ترديد الكبار لها، وتعتمد النساء من الأمهات والجدات تكريرها على مسامع الصغار ضمن لغة التخاطب اليومي أو خلال الحكايات.

34 - ارتقاء القيم، ص: 168.

35 - العلاقة بين النسق القيمي والدور الاجتماعي لدى المرأة الطارقية، ص: 43.

36 - انظر حول الأمثال والحكم السوسية: نان وبلي زرينين، للشاعر محمد مستاوي، مطبعة الأندلس، الدار البيضاء، 1980م. والمعسول، 59/1، وللعلامة محمد المختار السوسي كتاب مخطوط يسر الله طبعه بعنوان: "أمثال الشلحين وحكمهم نظما ونثرا"، انظر حوله: دليل مؤلفات ومخطوطات العلامة رضي الله عنه محمد المختار السوسي، ص: 23، إعداد ونشر ابنه عبد الوافي رضي الله عنه، ط 2.

وفيما يلي أمثلة عن بعض الأمثال والحكم المتداولة في سوس منذ القديم مع القيم المعبر عنها:³⁷

القيمة المعبر عنها	المثل أو الحكمة
التدبير والاقتصاد	• تمايلات نتگمي تئرا لاسباب تئادوني ³⁸
التواضع	• الصواب أوريرزي تاعنكریت
النظافة	• أوفن وامان ناستسورت أودمنك وينا تسويت
التواصل والترحيب بالضيف	• إنا يسبدادن أورار گیس إزنوز يان
التعلم	• إعدل نیت إخیكایان تمزگید، إخورگین لعالم یسان كا صواب
احترام الأولياء والصالحين	• أورگین لاولیا تشارارت
حفظ اللسان	• قن إمینك أكید أور إقن

الحكايات والقصص الشعبية:

وتعد من أهم الوسائل التعليمية والتربوية في البيئة الجزولية، إذ من خلالها يلقن الصغار أولى دروس الحياة، وتقرب إلى أفهامهم المعاني المجردة التي تستعصي على إدراكهم كالقيم والأخلاق. ولما كانت الأمهات عموما، والجدات على وجه التحديد، المكلفات عادة بسرد الحكايات للصغار، فقد كانت حكاياتهن سببا مباشرا في انتقال القيم السوسية بين الأجيال المتعاقبة. فإن حكاية شعبية تتناقلها الأجيال في سوس تحكي قصة ولد خرج للعب مع أقرانه بجوار مسكنه، ثم ما لبث أن عاد إلى بيته مع شبيه له، حتى إن الأم عجزت عن معرفة ابنها، فاستشارت فقيه القرية الذي أشار عليها بالتظاهر بالمرض، لتظهر عاطفة الابن تجاهها. وكذلك كان، فقد حزن الابن الحقيقي لمرض أمه،

37 - أفادني بهذه النماذج والداي الكريمان.

38 - ينسب للعلامة أحمد الجشتيمي قوله في استحباب قيمة التدبير والاقتصاد في المرأة:

إذا لم تكن في منزل الحر حرة مدبرة ضاعت مصالح داره

ولزم جانبها ولم يفارقها، بينما ملأ الشبيه وقته لعبا. حينها قامت الأم بوضع علامة على ابنها تميزه بها عن الآخر حسب مشورة الفقيه، إلى آخر ما جاء فيها، وهي تكشف عن قيمة حب الأبناء لأبائهم، ولقيمة العلم في المجتمع السوسي، وأنه السبيل لحل كثير من مشكلاته.

كما أن ثمة قصة أخرى منظومة عن طالب علم شفع في والديه يوم القيامة، فأخرجهما من النار بفضل حفظه لكتاب الله تعالى، فنالتها بفضل ابنهما بركة القرآن الكريم، وهي بعنوان (القصّة نو محضار)³⁹، وتكشف عن قيمة القرآن والعلم عند الجزوليين، ومكانة المشتغل به عندهم.

• العادات والتقاليد:⁴⁰

لم توضع العادات والتقاليد الجزولية عبثا، بل إنها بنيت - على العكس من ذلك - بعد خبرة طويلة متراكمة عن طبيعة المجتمع السوسي، وحاجياته، على رؤية فكرية وحضارية عميقة، لتلبية تلك الحاجيات وتحقيق غايات وأهداف فردية ومجتمعية، في مقدمتها تعزيز المنظومة القيمية السوسية، وهو ما يظهر بوضوح فيما يلي:

- عادات العرس:

أحاط السوسيون الأعراس بهالة واسعة وضاعة من العادات والتقاليد المتنوعة التي تدخل ضمن ما يمكن أن نسميه دورة تكوينية عملية متكاملة في القيم السوسية، وإن كانت قيمة التعاون والتضامن هي الخيط الناظم لها جميعا، مما يظهر أهمية هذه القيمة بسوس. وفيما يلي أمثلة لعادات العرس السوسي مع القيمة التي يعبر عنها:

القيمة التي تعبر عنها	العادة
- قيمة بر الوالدين - قيمة التضامن والتعاون	- مرافقة العريس والديه وبعض أقربائه لخطبة العروس
- التعاون والتضامن - التآزر	- إسهام جميع أسر البلدة في الاحتطاب لإنضاج الطعام

39 - غناها الرايس بوبكر أنشاد.

40 - أرخ محمد المختار السوسي لكثير من تقاليد سوس الأخرى الخاصة بمختلف المناسبات التي لم نعرض لها هنا كعاشوراء والولادة تحت عنوان: "بعض العادات الإلغية" في المعسول، 1/ 29. وانظر كذلك ما أورده إبراهيم حركات حول العادات والتقاليد المغربية في: المغرب عبر التاريخ، 3/ 472 فما بعد. دار الرشاد الحديثة، 1420هـ/ 2000م.

- استدعاء جميع أسر البلدة، وجميع الأقارب والأصهار والمعارف من المناطق والقبائل الأخرى	- صلة الرحم
- تولي بعض رجال القرية الطهو للمدعوين، وتولي الفتيات استدعاء المدعوين والمشاركة في التنظيم وغسل الأواني	- التعاون والتضامن
- تكليف إحدى السيدات المتزوجات بالإشراف على فقرات عادات العرس وتقاليده، تُخصّص بارتداء إزار أبيض (تاملحات) وتسمى هذه المرأة "تامزواروت"	- التنظيم
- الحرص على إكرام الضيوف والمدعوين والسهر على راحتهم طيلة مدة الاحتفالات	- إكرام الضيف

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيرا من هذه العادات اختُصرت كثيرا في الآونة الأخيرة، وإن كانت شذرات منها ما تزال تُقام من حين لآخر عند بعض الأريحيين.

- عادات الحذق: ⁴¹

يُخصّص الطالب السوسي الذي أنهى حفظ القرآن الكريم "ختمه" بحفل جماعي بهيج يسمى "تامغرا نلقران" أي عرس القرآن، يشارك فيه زملاؤه في الدراسة وشيوخه وعائلته وكافة الأسر والعائلات الأخرى، ويُخصّص له موكب مهيب يتقدمه المحتفى به ممتطيا صهوة جواد حاملا لوحه القرآني المزين بطريقة خاصة بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار وأدعية خاصة أيضا، ويسير بقية زملائه خلفه، وهم يتلون من كلام الله ومن الأشعار، والناس من أبناء القرية واقفون على جنبات طريق موكب المحتفى به، والكل يلوح له ويكبّر بما يدل على فخرهم به وتهنئتهم له ولعائلته، ثم يتوّج الحفل بوليمة يقيمها أهل الحاذق.

إن هذه العادات كلّها تلقي الضوء على قيمة أساسية هي قيمة محبة السوسيين للقرآن الكريم وللعلم، حين يحتفون بحافظ كتاب الله وبشيوخه، احتفالا عظيما يغرس في نفوس الصغار قبل الكبار حب القرآن وحب العلم، وتقدير العلماء والشيوخ، ويدفع النشء الصغير إلى التعلق بالعلم، والتطلع للدخول في زمرة أهل القرآن حتى يُخصّصوا باحتفالات مماثلة.

- عادات ليحضرار:

وهو ما يُعرف في سوس بـ "توالا نطّالب"، ويقوم على تناوب أسر البلدة على إعداد الطعام للفقير، إكراما له ومساعدة له على التفرغ لمهام التدريس والوعظ وتقديم المشورة وإصلاح ذات البين وغيرها. وقد أظهرت النساء السوسيات همة عالية وحرصا كبيرا على الالتزام بهذه المهمة، بل إن إحداهن لتفتخر أمام الأخريات بانشغالها بإعداد "توالا نطّالب"، مما يبين إيمان المرأة السوسية بقيم بيتها ووعيتها بأهمية المحافظة عليها، وبدورها الحضاري الهام في حمايتها وضمان استمرارها في الأجيال اللاحقة، حين تقدم للمحيطين بها وخاصة الصغار منهم، درسا غير مباشر في المحافظة على هذه العادة الأصيلة التي تكشف عن محبة القرآن وأهله، وتضامن المجتمع السوسي وتضحية بعضه لأجل سعادة ونجاح الجميع، خصوصا المرأة السوسية المكافحة المعطاء.

- عادات المولد:⁴²

يكتسي المولد النبوي الذي يصادف الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل عام هجري، أهمية بالغة عند السوسيين، منذ ابتدئ في الاحتفال به لأول مرة في مدرسة "تافراوت نلمولود"⁴³ لما تنطوي عليه من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، والحرص على اتخاذ يوم مولده عيدا رسميا لإظهار الفرح بمولده والتشبت بمنهجه، ولإظهار وحدة الأمة والتفافها حول ملكها واقتدائها به في الاحتفال بالمولد النبوي.

وتتخذ احتفالات السوسيين بالمولد النبوي مظاهر عديدة يشترك في القيام بها جميع الناس رجالا ونساء، كبارا وصغارا، في أجواء مفعمة بالفرح والذكر ومعطرة بأنواع المبرات.⁴⁴

هذا، ويظهر التأمل في احتفالات السوسيين بعيد المولد النبوي إسهام المرأة السوسية الكبير في تنظيم وإدارة هذه الاحتفالات بما يغرس في نفوس الصغار والكبار على حد سواء، قيمة التدين، من خلال الاحتفاء بمولد الرسول الأكرم المبعوث بدين الإسلام هدى ورحمة للعالمين، ويربط المجتمع كله بذكرى نبيه وبدين الإسلام، ويُعلي فيه قيمة التدين الوسطي المعتدل المؤسس على الكتاب

42 - انظر كلام محمد المختار السوسي حول هذه العادات في المعسول، 31/1.

43 - انظر: منار السعود عن تافراوت المولد ومدرستها العتيقة، الفقيه أيت بومهاوت أحمد الوسخيني، ص: 277-278، ط1، 1994م.

44 - عرضت لمظاهر الاحتفال بالمولد في بحث مرقون بعنوان: المظاهر الاجتماعية للاحتفال بالمولد في سوس، شاركت به في الندوة الوطنية "المولد النبوي في سوس: تاريخه ومظاهره"، التي نظمتها مؤسسة سوس للمدارس العتيقة بمدرسة أبي ذر الغفاري العتيقة بأمزو أولاد تايمية، يوم الثلاثاء 6 يناير 2015م.

والسنة المطهرة. وبهذا تعمل المرأة السوسية على حماية القيم الدينية والوطنية والاجتماعية المرتبطة به من خلال أعمال جليلة أهمها:

- ✓ الحرص على إشراك الصغار في كافة فقرات الاحتفال بعيد المولد، كالتخضب بالحناء، وشراء الملابس الجديدة والتزاور وصلة الرحم، وتخصيص الأطفال هدايا وألعاب.
- ✓ الاجتهاد في إدخال الفرح والسرور على أسرته الصغيرة والكبيرة، بإعداد أصناف المأكولات وأنواع الحلويات التي تشعر الأطفال خاصة بأهمية هذا الحدث.
- ✓ تجمع النساء - على غرار الرجال - لإحياء ليلة المولد النبوي بتلاوة القرآن وإنشاد الأمداح والأذكار، وإشراك الأطفال والفتيات خاصة في احتفالاتهن. وقد كانت النساء في المناطق الأمازيغية بسوس يتلن - رغم عدم إتقانهم للقراءة والكتابة - الأمداح والأذكار المترجمة للأمازيغية السوسية من محفوظهن، كترجمة عبد الله بن يحيى الحامدي لقصيدة البردة.⁴⁵

وقصيدة البوشيكرى الشهيرة في المديح النبوي التي مطلعها:

محمد أبو لانوار السلام عليك آرسول
إعزأك الباري تعال إمقور شانانكي

وقصائد السيرة والتوحيد وأبيات الأذكار والرقائق المشبعة بروح الدين.

• الأناشيد والأهازيج:⁴⁶

الأناشيد والأهازيج السوسية عموماً، والأمازيغية منها على وجه الخصوص، التي تنشده بألحان عذبة شجية تقطر عفوية وفطرية، تعبق بشذى القيم وترشح بأريج الدروس والنصائح والعبر، إذ هي تروّج للقيم الحضارية لسوس، وتدعو إليها، وتنفر من الخروج عليها وهجرها. وقد كانت المرأة السوسية حريصة على إنشاد هذه الأهازيج والأناشيد في كل مناسبة وفي كل وقت، تلقي من خلالها على مسامع الناس ما يذكرهم بقيمهم ويستحثهم للعض عليها بالنواجذ، ومن ذلك ابتداء النساء فقرات العرس السوسي الجزولي المتنوعة بالبسملة وإعلان الرغبة في بدء احتفالاتهن

45 - سوس العالمة، ص: 188.

46 - أفادتني بهذه الأهازيج مشكورات والدتي الكريمة - حفظها الله - ونساء بلدة أزورا من قبيلة إداوزكري، إقليم تارودانت، أثناء لقاءات معهن صيف 2013م. وتجدر الإشارة إلى أن غالب الجزوليات شاعرات بالفطرة، ينشدن أشعارهن وأشعار غيرهن.

باسم الله تعالى اقتداء بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، لاستئصال البركة والتيسير، فينشدن عند
بداية كل فقرة بلحن شجي قولهن:

بسم الله أو الرحمان الرحيم أدخ نزور إسم نراي، وليسيادّا نبي موхамدي.

وقول النساء عند استقبال الضيوف:

مرحبا بيك أيان ديبوي وغاراس دارنخ، أور يومي واكال لفرح نك أولا يگنوان.

وقولهن يوصين العروس:

لوصيت أيلي أفاگونم دودغارنم أدور ركون

لوصيت أيلي أوال نيفقيرن أيلي خيمينونت

لوصيت أيلي تگات نيكشوضن أتلي خوحانو

لوصيت أيلي أكرن نمسطن أيلي خوحانو

وقولهن عند الاحتطاب في الغابات البعيدة:

إناياس ربيگان أعكازنو ختيلاس أولا توافوت، إينا كيوخ نغيسرسن

وقولهن أثناء سيرهن إلى أماكن بعيدة للحرث أو الحصاد أو الاحتطاب أو صلة الرحم:

بسم الله أسرس بدوخ إيرخوييد واوال

غيكان ترخيت أياغاراسندرا فيمزيرون

وقولهن في الابتهاال إلى الله:

أداك نغر أوالي دار كولو تيفاوين

ندونيت ريخ أييد گيس تلميم أغاراس

وقولهن عند البدء في الحرث (تايرزا):

بسم الله توكلت على الله، أنلوح أمود أربي

أَيْشْ أَوْ كُضِيضْ إِيْشْ أَوْ سَكُورْ، أَنَاوِيْ أَرْبِيْ لَاعْمَالْ نَسْنِ.
وقولهن في الإشادة بالأم والترحم عليها والدعاء لها بعد موتها:⁴⁷
أوراراد نويخ گيس غير دُعا، أكم إرحم ربي أيمم إخلفيد، أمّا يانمون يَمْنعا
أكم إيگ خلجنت أك تنگيديت، خومالو تون أنابي موحّاد، لحيج تكيّيد أدامت إقبل ربي
أيم إقبل ربي لعامال أولا لعبادا، إصلحام أراو نعينّ أولا غيد
كود مادگيخ أور تُوخ مايّتربيت
وقولهن عند طحن الحبوب:
لا إله إلا الله محمد رسول الله وناتيتنين أراس إتغفار ربي دّنوب أرت إترحام
ألا إله إلا الله إنّا ختوكان تنيت أبو دّنوب أسوسناك
وقولهن عند تسخين الوضوء⁴⁸ لأداء صلاة الصبح:
بسم الله الرحمن الرحيم تلکم تزاليت نصباح أيايگانامو من أدزالن
ول تزالين ولي توبنين أديتگاوار تآبي موحدي
إفو لحال إفو سلخير نسّن جميل إمولانا
نكرات زالات توبات إكصاضات باب نواضان ديزاليون
نكرات زالات تمديم إخير هان مولانا يوجاد آتيفك
إيضص أور تريخ أور تيديكي لخير
أجموع نمو حامد أخيلّا لخير

ويّضح من هذه العجالة كيف تختزن الأهازيج والأناشيد السوسية الجزولية الأمازيغية قيم منطقة سوس كالتدين الوسطي المعتدل المؤسس على الإيمان بالله وحسن التوكل عليه، مع الاجتهاد في العمل والحرص على الصلاة وإكبار الأم وغيرها، وإلا فإن هذه الأهازيج تكون في مجموعها تراثا

47- هذا الشعر من إنشاء السيدة فاطمة بنت الحاج إمبرك في أمها، وكانت صالحة عابدة.

48 - الوضوء: الماء الذي يتوضأ به. لسان العرب، مادة: وضأ.

حضاريا وفكريا غنيا، لأنها غطت جميع تفاصيل الحياة السوسية، حين رافقت الإنسان السوسي في مختلف مراحل حياته وفي كافة حالاته في الصغر والكبر، في الفرح والحزن، في السفر والحضر، في العمل والراحة، في السلم والحرب، مما يجعله تراثا غنيا وضحما نحتاج لمعرفة وإفادة منه.

كما يتجلى حرص المرأة السوسية الشديد على المحافظة على قيم بيئتها وحمايتها من الاندثار مما يجعلها تردد هذه الأهازيج في كل مناسبة ترديدا تُكسبه الألحان السوسية الأمازيغية دفئا خاصا، يوصلها إلى أعماق وجدان السامعين من الكبار والصغار معا، فتغرس تلك القيم في لاوعي الناس بكل سهولة.

3- تجسيد المرأة الجزولية قيم بيئتها في نفسها:

فقد احتفظ تاريخنا السوسي الماجد، بسيرة نساء كثيرات، تمثلن القيم السوسية فاصطبغت بها سيرتهن، وأثرت في الأدوار الاجتماعية والحضارية التي اضطلعن بها في مجتمعهن،⁴⁹ فظهرن في أدوار اجتماعية وحضارية عديدة أسهمن من خلالها في حماية الأخلاق السوسية، وأهمها:

• الأم المربية: تعد الأسرة أصل أي تنظيم إنساني اجتماعي، والدعامة الأساسية التي يقوم عليها بناء المجتمعات والأمم،⁵⁰ إذ بها تتكون الأجيال في كل الحضارات وتتجدد. وقد نبه علماء الاجتماع إلى أهمية هذا النظام الاجتماعي في ضمان أمن واستقرار المجتمع كله، فربط (ويلهلم هنريش ريل) أحد مؤسسي علم اجتماع الأسرة في القرن التاسع عشر، بين أمن الأسرة وأمن المجتمع منبها إلى "أن الأسرة هي البنية التحتية للمجتمع، وأن حفظ المجتمع يتوقف على حفظ الأسرة"⁵¹.

وإلى ذلك، كثرت النساء السوسيات اللاتي فهمن جيدا بفطرتهم معنى تكوين أسرة، ومعنى الأمومة الحقة، ووعين تمام الوعي خطورة دورهن، فاتخذن أمومتهم رسالة حضارية، تخرج على أيديهن بفضلها أبناء صالحون أسوياء نافعون لمجتمعهم. ولعل في القولة الشهيرة "وراء كل عظيم امرأة" ما يوضح ذلك. فإنك تجد وراء الناجحين من أبناء سوس في كافة المجالات العلمية والسياسية والتجارية وغيرها في كل عصر، أمهات مربيات ناجحات في غرس قيم الإصرار والجد

49 - انظر حوله: صور مشرقة من حياة المرأة الجزولية، اليزيد الراضي، بحث مرقون شارك به صاحبه في ندوة بأولوز قرب تارودانت، سنة 2017م.

50 - التنظيم الاجتماعي في الإسلام، دراسة اجتماعية تحليلية في قواعده البنائية والتنظيمية، د. خليل محمد الخالدي، ص: 289، دار أدبياء.

51 - انظر: عمل المرأة: الأسباب والتوجهات والآثار (من منظور الإدارة الاجتماعية)، محمد رضا زبياتي نجاد، ضمن: عمل المرأة مقاربات دينية واجتماعية، ص: 56.

والصبر في أبنائهن، فضمنت سوس بهنّ وبأبنائهن استمرار قيمها. وقد نبّه العلامة محمد المختار السوسي إلى هذه المهمة الحضارية العظيمة للمرأة السوسية فقال متحدثا عن جدته لأبيه تكّدا: "إذا صدق أهل هذا العصر في قولهم إن مستقبل الأبناء في أيدي الأمهات، فإنهن المدرسة الأولى والغارسات في الأذهان- وهي كما انبثقت- علو الهمم، والشعور الحي، فإن لهذه السيدة [يقصد جدته] حقا يدا طولى فيما توجهت إليه أنظار بعض أبنائها فنالوا"⁵².

ولنكتف هنا بذكر سيدتين سوسيتين فاضلتين تكونان مثالا لغيرهن في هذا الباب، هما والدة عبد الله بن محمد الجشتيمي⁵³ ورقية الأدوزية، فقد نجحت كلتا السيدتين في غرس قيمة العلم في نفس صغيرها بوسائل تربوية فطرية، أسلمتهما إليه فطرتها السليمة، وهما إلى حبهن للعلم، وإيمانهم بقيمته⁵⁴، فكانت النتيجة أن تخرّج على الأولى العلامة سيدي عبد الله بن محمد الجشتيمي جد الأسرة الجشتيمية العالمة، وتخرّج عن الثانية العلامة المؤرخ الأديب الناقد سيدي محمد المختار السوسي رحم الله الجميع.

• الصالحة العابدة: فقد ولجت المرأة المغربية عموما والسوسية على وجه التحديد التصوف من أوسع أبوابه وشاركت في الحياة الروحية بالإقبال على العبادة والسعي لبلوغ مرتبة الإحسان في القول والعمل ونفع الناس من خلال خدمة قضايا مجتمعتها، ونشر قيم الصلاح والخير.⁵⁵ لقد كانت الصالحات ينشرن بالقُدوة الحسنة المثل العليا لمجتمعهن، ويشعن الفضائل بين الناس، فتُقصدن للتبرك بهن ولتقديم النصح والمشورة، وإصلاح ذات البين وغيرها. وقد مرّ بمنطقة سوس من الصالحات الورعات عدد كبير، منهن الصالحة فاطمة بنت محمد (تاعلات) الإيلالية (ت 1207هـ)⁵⁶، وإليها ينسب موسم للاتاعلات لحملة كتاب الله بإقليم اشتوكة آيت باها بأحواز أكادير، والصالحة مماس بنت علي المانوزية (ت حوالي 1118هـ)، قال فيها محمد المختار السوسي: "رابعة عصرها إقبالا

52 - المعسول، 2/ 54.

53 - انظر ترجمته في: شعر الجشتيمين (الدراسة)، اليزيد الراضي، ص: 118 فما بعدها. مركز ابن تومرت للدراسات والنشر والتوثيق، 2007م.

54 - انظر حول أم الجشتيمي: المعسول، 18/ 280. وانظر حول أم السوسي: المعسول، 3/ 40.

55 - النخبة النسائية بالمغرب، الحرة مسعودة الوزكيتية المرأة والوظيفة، ذ. عبد الإله لغزاوي، ضمن: النخب في تاريخ المغرب، أعمال مهداة إلى الأستاذ العميد مصطفى الشابي، سلسلة شرفات، ع 82، تنسيق: د. أحمد إيشرخان، 1/ 277 - 278.

56 - انظر: المعسول، 12/ 95.

على ربها وكرامات⁵⁷. وقد أسهمت هؤلاء الصالحات إسهاما واضحا في المحافظة على قيم الفضيلة والصلاح والتدين بمنطقة سوس⁵⁸. خاصة أن الصلاح المؤسس على التصوف السني الجنيدي كان من مقومات الشخصية المغربية منذ القديم، وتجلى تأثيره على كافة مناحي الحياة المغربية عامة والسوسية خاصة⁵⁹.

• العالمة المصلحة: لم يكن مجال العلم في سوس تحمّلا وأداء، حكرا على الرجال، بل لقد شاركت المرأة السوسية إلى جانب الرجل في رسم معالم الحركة العلمية بسوس عبر تاريخه، وفي دعم قيمة العلم وفضل الاشتغال به في بيئتها، فلمع نجم كثيرات منهن عُرفن بإتقان حفظ القرآن الكريم، والعلم بالفقه والسيرة وغيره مما أهلهن للتصدر لتعليم بنات جنسهن خاصة والناس عامة، ووعظهن، كرقية الأدوزية التي أتقنت حفظ القرآن الكريم فكانت معلمة الدار في بيت زوجها الشيخ علي الدرقاوي، وهو ما أوضحه العلامة محمد المختار السوسي أثناء ترجمته لوالدته بقوله: "فقد كانت أول معلمة من النساء في إلغ، ومهذبة البنات في دار والدي، فبها انتشر ما انتشر من ذلك فيهن"⁶⁰.

ومن النساء السوسيات العالمات السيدة عائشة الجشتيمية التي كانت مقصد النساء للنصح والوعظ والتعليم، وقد قال فيها صاحب المعسول: "وعائشة هذه ممن ضرب في المعارف بسهم، وإن كان الذي أعلى شأنها وأعلى كعبها هو صلاح ومواعظ وإرشاد نافع تعمر به وقتها، وهي كالنجم الثاقب في قبيلة أملن، ترد إليها من يسألونها عن أمور دينهن، [...] وهي رافعة علم النصح، وقد شهد لها كل جيران قبيلتها أنها فريدة في نوعها، فهي تعلم الدين وعقائد التوحيد، وتجول في التصوف، وتملي من الكتب العربية والشلحية"⁶¹.

57 - رجالات العلم العربي في سوس من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، ص: 82.

58 - انظر حوّلن: الصالحات المتبرّك بهن في سوس، الحسن العبادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425هـ/2004م. ومعجم شهريرات المغرب، ذة. زهراء ناجية الزهراوي، منشورات المجلس العلمي بمراكش، عدد7.

59 - انظر مادة التصوف بالمغرب، أحمد التوفيق، معلمة المغرب، المجلد7، ص: 2395. مطابع سلا.

60 - المعسول، 3/ 39.

61 - المعسول، 6/ 148-149.

• عاملة منتجة: يعد العمل⁶² قيمة هامة وجوهرية في البيئة السوسية الجزولية منذ القديم، بالنظر إلى تمجيد الشارع للعمل والعاملين،⁶³ وكونه سببا لنيل الثواب الجزيل، وبالنظر إلى طبيعة البيئة البدوية حيث تنتفي أبسط شروط الراحة فضلا عن الرفاهية، ذلك أن الحصول على شربة ماء- على سبيل المثال- يعتبر عملا شاقا مضنيا تُقطع فيه المسافات الطوال، وتُحمل الأثقال، وتزداد الصعوبة مع البرد الشديد شتاءً، ولهذا نُظر إلى العمل عموما وإلى عمل المرأة على وجه التحديد بوصفه شرفا كبيرا وإسهاما واضحا في بناء الأسرة، حتى صارت كفاءة المرأة وحنكتها تُقاسان في المجتمع السوسي بالأعمال التي تقوم بها. وكان لشعب هذه المرأة بدينها وحرصها على القيام بكل ما يقربها لربها أكبر دافع لتحمل المشقة الناجمة عن كثرة الأعمال وصعوبتها. ولهذا تنوعت المهام التي تضطلع بها النساء فكنّ يسهرن على تربية الأبناء وإعداد الطعام وجلب الماء (إگيم) والتنظيف ورعاية البهائم والدواب، ويشاركن في الحرث والحصاد والاحتطاب والحياكة وغيرها من المهام الكثيرة التي تستغرق يوم المرأة السوسية كله.⁶⁴ مما يكشف تشعب المرأة السوسية بقيم بيتها وبقيمة العمل خاصة، ووعيتها بأهمية عملها في ضمان استقرار مجتمعها ونهائه، مما جعلها تتفانى في ترسيخ هذه القيم العليا بتضحياتها.

62 - عندما يطلق العمل قديما في سوس فإنه ينصرف إلى المفهوم الديني الذي يرى العمل عبادة عملية تسلم إلى تحقيق معنى عمارة الأرض على النحو الذي يرضي الله، انظر: عمل المرأة ودوره في تطوير النظام الإسلامي، زهرة عطائي آشتياني، ضمن: عمل المرأة مقاربات دينية واجتماعية، ص: 351، ويراد بالعمل كل أنواع الأنشطة الإنسانية التي تحقق مصلحة ما للناس فرادى وجماعات، وليس النشاط المأجور المحدد بزمان والذي يبعد فيه مكان العمل عن محل السكن كما هو شائع في عصرنا، انظر: عمل المرأة: الأسباب والتوجهات والآثار (من منظور الإدارة الاجتماعية)، محمد رضا زبياني نجاد، ضمن: عمل المرأة مقاربات دينية واجتماعية، ص: 24-25.

63 - من ذلك قوله تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)، سورة التوبة، الآية 106.

64 - وصف محمد المختار السوسي الأعمال الكثيرة والمتنوعة التي تقوم بها المرأة السوسية على مدار اليوم داخل البيت وخارجه في المعسول، 59/1.

خاتمة:

في ختام هذا البسط الموجز لدور المرأة المغربية عامة والسوسية الجزولية خاصة في تثبيت قيم بيئتها، وحمايتها على مدى تاريخ سوس، نخلص إلى ما يلي:

1- قيام الحضارة المغربية بمنطقة سوس على منظومة قيمية غنية، أطرت الحياة السوسية من مختلف جوانبها، ونظمت العلاقات داخل المجتمع الجزولي، فكانت من أهم أسباب تماسكه وتناغم مكوناته.

2- استمداد القيم السوسية مرجعيتها وأسسها الفكرية من الدين الإسلامي الذي وضع للناس من القيم والقواعد الأخلاقية ما يضمن لهم العيش الكريم في وفاق تام مع النفس ومع الغير، كما استمدتها من التاريخ الحضاري المغربي العريق وطبيعة بلاد جزولة الجغرافية والبيئية، وكذا من أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والأمنية، التي جعلت سوس عموما وبلاد جزولة خصوصا تختار قيما بعينها، يحتكم إليها الجميع في ظل المجتمع السوسي الجزولي لمعرفة المقبول والمردود من السلوك.

3- اضطلاع المرأة الجزولية بدور حضاري هام يتلخص في وعيها بأهمية قيم مجتمعتها، وشعورها بالحاجة إليها، وبضرورة المحافظة عليها لضمان استمرارها واستمرار المنافع المتعلقة بوجودها بالنسبة للفرد والجماعة.

4- لم تكن كل امرأة منتسبة لجزولة مؤهلة لحماية القيم السوسية الجزولية الأصيلة، بل إن ثمة شروطا ومواصفات لا بد من تحقيقها فيمن تحمي حدود القوانين الخلقية الجزولية، وهي الوعي بأهمية القيم وجدواها، والصلاح والعلم والحالة الاجتماعية والحنكة والنباهة. وقد تتحقق في تلك المرأة أكثر من صفة واحدة.

5- توصل المرأة الجزولية بطرق ووسائل متنوعة لحماية قيم بيئتها، يمكن التمييز فيها بين طرق مباشرة، تتمثل في تدخلها لمنع خرق تلك المثل العليا بالقول أو بالفعل، وإلى طرق غير مباشرة تتلخص في حرص المرأة على تربية أبنائها ومن تتصل بهم داخل الأسرة، على قيم الخير والفضيلة الشائعة في سوس، مع الحرص على نشر الأمثال والحكم، وسرد القصص والحكايات الشعبية للصغار، وإحاطتها الحياة السوسية بهالة من العادات والتقاليد المتنوعة التي تغطي جميع النشاطات والمناسبات في المجتمع الجزولي، وترافق الاحتفال بالأعراس وختم القرآن الكريم وبالمولد النبوي، إلى جانب الأناشيد والأهازيج التي تروّج بمعانيها الرقيقة وكلماتها الرشيقة وألحانها العذبة الأخاذة للأخلاق السامية النبيلة.

وإلى ذلك، جسدت سيرة المرأة الجزولية قيم بيئتها، من خلال الأدوار العديدة التي قامت بها في مجتمعها بوصفها أما مربية أو صالحة عابدة أو عالمة مصلحة أو عاملة منتجة، كانت بها قدوة صالحة لمجتمعها ولبنات جنسها من الفتيات.

وفي الختام لا يسعني إلا التنويه بالجهود المباركة العظيمة التي اضطلعت بها المرأة المغربية الجزولية على مدى تاريخ طويل في سبيل المحافظة على القيم الأصيلة لبيئتها، في مثابرة ونكران ذات وبعد عن الأضواء في الغالب الأعم، أثمر صمود هذه القيم أمام عوادي الأيام وتقلبات الدهر وصروفه، وضمن للمجتمع الجزولي توازنه وتطوره.

كما أن معرفتنا بالطرق التي توسلت بها المرأة في حماية القيم، يدفعنا جميعا رجالا ونساء للعمل على حمل المشعل ومواصلة جهودها بالبحث عن طرق جديدة توافق مستجدات العصر الذي نعيشه، لضمان استمرار هذه القيم فينا، حتى نستفيد مما تتيحه من أمن وطمأنينة واستقرار للفرد والمجتمع، مع الحرص على توعية المرأة السوسية والمغربية عموما بجدوى المحافظة على قيمنا، وتوجيهها إلى مواصلة دورها الهام في تثبيت الأخلاق في المجتمع، خاصة أننا الآن أحوج ما نكون في هذا العصر - بسبب رياح العولمة الجارفة - إلى التمسك بقيمنا الأصيلة، بل إلى بعث ما غاب عنا منها اليوم بما ينسجم مع روح العصر، حتى نحافظ على خصوصيتنا وتفردنا في ظل الوحدة السياسية والدينية والوطنية لبلدنا.

دور الإعلام الرسمي في خدمة القرآن الكريم وعلومه -إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم نموذجاً-

ذ. عبد الكريم بناني
فاس.

الحمد لله الذي أنقذنا بنور العلم من ظلمات الجهالة، وهدانا بالاستبصار به عن الوقوع في عمية الضلالة، ونصب لنا من شريعة سيدنا ومولانا محمد أعلى علم وأوضح دلالة، وبعد.

يزخر الإعلام الدولي: العربي والغربي، بعدد من الإذاعات التي تهتم بالشأن الديني عموماً، وبالقرآن الكريم على وجه الخصوص، وغالبية هذه المحطات الإذاعية تسعى إلى إدماج الخطاب الإعلامي الديني بالخطاب الإعلامي العام ليساير التطورات ويواكب المستجدات ويحجب على التساؤلات.

غير أن ما يميز هذه المحطات الإذاعية، هو وجود محطات إعلامية محلية أو دولية تخضع لإشراف رسمي من الجهة التي تسهر على تدبير الشأن الديني، وتأتي في مقدمة هذه المحطات الإذاعية الرسمية التي استطاعت أن تجد لها موطئ قدم في الساحة الإعلامية الدولية: إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم التي أعطى انطلاقها جلالة الملك محمد السادس نصره الله في 2 رمضان 1425 هجرية الموافق 16 أكتوبر 2004 ميلادية، فأضحت بعد أزيد من 13 سنة من البث تمثل قيمة مضافة بالنسبة للمشهد السمعي البصري، من حيث الدور التربوي والثقافي والديني الذي تضطلع به، ومساهمتها في ترسيخ روح التسامح والانفتاح المستلهمة من هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما تم تصنيفها من طرف المركز المهني لقياس نسب الاستماع للمحطات الإذاعية (سيراد)¹ في مركز الصدارة وطنياً من حيث نسبة الاستماع ضمن مختلف الإذاعات المتواجدة على امتداد التراب الوطني والتي تتجاوز ثلاثين (30) إذاعة وطنية وجهوية.

1 - هذه الدراسة أنجزها معهد "إيسوس" لحساب المركز المهني لقياس نسب الاستماع للمحطات الإذاعية بالمغرب (سيراد) بين 16 يناير ومارس 2016م، وقد أجريت هذه الدراسة على عينة من 8538 شخص. أخبارنا المغربية. تاريخ النشر 2016/05/17م
akhbarona.com

وقد حرصت هذه الإذاعة منذ نشأتها وتطورها كإذاعة موضوعاتية، على العناية بالقرآن الكريم وعلومه، حيث وجّهت تركيزها إلى إحداث برامج توعوية مباشرة وغير مباشرة، تهتم بالقرآن الكريم حفظاً وتلاوةً وتجويداً وترتيلاً وتفسيراً وتدبراً وتعليماً، فجاءت برامجها متنوعة ومتخصصة، تجمع بين القراءة والتلاوة والتدبر والتفسير والتعليم، وأصبحت هذه البرامج بمثابة النور الذي يهتدي به الناس في حياتهم، حيث يقفون على أسرار القرآن الكريم، ويسبرون أغواره، ويفقهون غوامضه، ويعتنون بتفاسيره وبلاغته وإعجازه.

فتنوع البرامج التي تقدمها إذاعة محمد السادس يؤكد قيامها على أهداف ومقاصد وغايات نبيلة تظهر جلية في البرامج التي تعني بتحفيظ القرآن الكريم للناشئة، وتثبيت تعهدهم للآيات والوقوف على أخطاء الترتيل وإصلاحها، والعناية بالبيان القرآني والإعجازي والتفسير البلاغي وغيرها من علوم القرآن.

خدمة القرآن الكريم في المشهد الإعلامي الإذاعي المغربي

يتضمن المشهد السمعي المغربي، أزيد من ثلاثين (30) إذاعة (راديو) بعد إنهاء احتكار الدولة للمشهد السمعي البصري سنة 2002م²، منها (15) إذاعة وطنية وجهوية عامة³، و(15) إذاعة خاصة، تتميز جميعها بالتنوع اللغوي والمجالي، بعضها يبث باللهجات المحلية (تشلحيت-تريفت..)، وبعضها باللغتين العربية والفرنسية، كما أن بعض هذه الإذاعات يتناول مجالات متنوعة تجمع بين الثقافة والأدب والرياضة وغيرها، والآخر تخصصي، أي يختص بمجال معين كإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم المتخصصة في التربية الدينية عموماً وما يرتبط بها، و"راديو مارس" في الرياضة، و"لوكس راديو" في الصناعة التقليدية والأدب والثقافة...

وإذا كان المرسوم⁴ المنظم للبث الإذاعي والتلفزي للقنوات العمومية، يلزم الإذاعات الرسمية الوطنية والجهوية، في المادة التاسعة منه المحددة للوظائف والخصائص العامة للبرمجة على ضرورة وجود برامج تحث على التربية الدينية، فإن دفتر التحملات لم ينص على طبيعة هذه البرامج، بل حدد

2 - المرسوم رقم 2.02.663 الصادر في 2 رجب 1423هـ (10 شتنبر 2002م). منشور بالجريدة الرسمية رقم 5038 الصادرة في 12 شتنبر 2002م.

3 - أربع إذاعات وطنية وإحدى عشر إذاعة جهوية.

4 - المرسوم رقم 2.12.596 الصادر في 25 من ذي القعدة 1433هـ (12 أكتوبر 2012م). منشور بالجريدة الرسمية رقم 6093 الصادرة في 22 أكتوبر 2012م.

نسبتها العامة بين 5 و10 في المائة من مدة البث: الإذاعة الوطنية 5 في المائة⁵، وإذاعة تمازيغت 10 في المائة⁶ والإذاعات الجهوية لم تحدّد لهم أي نسبة.

أما إذاعة محمد السادس فمجال تخصصها هو القرآن الكريم، لذلك كانت برامجها منذ انطلاقتها عبارة عن قراءات قرآنية، لتلبية الحاجة إلى الاستماع والتدبر لكتاب الله تعالى، وبعد سنة، وانتقال البث الإذاعي من 10 ساعات إلى 16 ساعة يومياً تم تكثيف البرامج وتنويعها وأصبحت برامج صباحية وبرامج الظهيرة والمساء⁷.

وقبل نهاية سنة 2006م توسع مجال اشتغال الإذاعة وأصبحت تشتغل 24 ساعة على 24 ساعة، وهنا كثفت البرامج وتنوعت وأصبحت تشتغل بدفتر التحملات الذي يفرض عليها التنوع البرمجي في إطار التربية الدينية.

غير أن ما يلاحظ على دفتر التحملات، إضافة إلى عدم التفصيل في برامج التربية الدينية، لم يبيّن نوعية البرامج التي ينبغي التركيز عليها، فلم يشر إلى الاعتناء ببرامج تهتم بالقراءة السليمة للقرآن الكريم، أو تعليم قواعد التجويد، أو تفسير بعض الآيات، وتنطبق هذه الملاحظة على إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، حيث لم يفصّل المرسوم في النسبة التي ينبغي تخصيصها للقرآن الكريم وعلومه⁸، أو الحديث والسيرة، بل تناولها بشكل عام في إطار برامج عامة، لترك الأمر لاجتهاد هيئة تحرير البرامج والإعداد بالإذاعة.

5 - تنص المادة 133 من المرسوم على ما يلي: تبث الإذاعة برنامجاً يومياً وبصفة منتظمة يعنى بتبسيط مفاهيم ومقومات وتعاليم الدين الإسلامي وأهميته ومواكبة الحاجيات الراهنة وتخفيف الاجتهاد والإفتاء في القضايا المعاصرة، وفق قيم الوسطية والاعتدال والانفتاح واحترام الديانات السماوية، وباعتماد طرق ووسائل تواصلية عصرية. وتبث بصفة خاصة خلال أيام شهر رمضان، وخلال الأعياد الدينية، برامج متعلقة بالإسلام، والأحداث الدينية وبمساهمة الدين في توجيه السلوكيات الفردية والتربية والمعاملات داخل المجتمع، مع السهر على تنوع المواضيع المعالجة واستجابتها لحاجيات الجمهور في جميع مجالات الحياة.

6 - تنص المادة 147 من المرسوم على ما يلي: تبث الإذاعة برنامجاً يومياً وبصفة منتظمة يعنى بتبسيط مفاهيم ومقومات وتعاليم الدين الإسلامي وأهميته ومواكبة الحاجيات الراهنة وتخفيف الاجتهاد والإفتاء في القضايا المعاصرة، وفق قيم الوسطية والاعتدال والانفتاح واحترام الديانات الأخرى، وباعتماد طرق ووسائل تواصلية عصرية؛ وتبث بصفة خاصة خلال أيام شهر رمضان، وخلال الأعياد الدينية، برامج متعلقة بالإسلام والأحداث الدينية وبمساهمة الدين في توجيه السلوكيات الفردية والجماعية والتربية والمعاملات داخل المجتمع، مع السهر على تنوع المواضيع المعالجة واستجابتها لحاجيات الجمهور في جميع مجالات الحياة.

7 - تجربة رائدة بين الإذاعات الإسلامية والأولى بين الوطنية (إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم تطفئ شمعته العاشرة). جريدة الصحراء. تاريخ النشر 4 يوليوز 2014م. <http://www.assahraa.ma/journal/2014/188397>

8 - النسبة التي يصل إليها اعتناء الإذاعة ببرامج القرآن الكريم هي 40 في المائة.

وبمراجعة البرامج التي تبث بالإذاعة التابعة للقطاع العام، سواء الوطنية أم الجهوية، نلاحظ تقصيرا واضحا في العناية بالقرآن الكريم وعلومه، حيث أن أغلب البرامج التي ترتبط بالدين، تتناول مواضيع وعظية وتوعوية عامة، تتحدث عن الأخلاق والمعاملات بشكل عام، باستثناء بعض البرامج التي يتم استيرادها من إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم ليعاد بثها بالإذاعة الوطنية وغيرها من الإذاعات الجهوية.

أما الإذاعات الخاصة، التي لها الحرية في اختيار الخط التحريري وشبكة البرامج التي تمكنها من زيادة نسبة الاستماع، فيمكن الجزم بأنها تسعى جاهدة إلى تطوير برامجها بما يناسب حاجة الناس إلى التوعية الدينية وخاصة المرتبطة بالقرآن الكريم، لذلك سعت بعض الإذاعات الخاصة إلى إنشاء برامج متخصصة في القرآن الكريم، وأرصد هنا جميع البرامج الدينية عموما، والمتعلقة بالقرآن الكريم لتوضيح التميز الذي يطبع إذاعة محمد السادس في خدمتها للقرآن الكريم:

إذاعة شدى إف إم (CHADA FM):

*برنامج دين ودنيا، ويعنى بموضوعات دينية متنوعة.

إذاعة كاب راديو (CAP RADIO):

*برنامج الدين والحياة، يعنى بتوضيح نظرة الإسلام إلى مستجدات الحياة المعاصرة وإجابته على تحدياتها.

إذاعة ميد راديو (MED RADIO):

*برنامج بشائر الصباح، يطل كل صباح ولمدة ساعتين ليتحدث في جميع المواضيع التي تبعث على الراحة الإيمانية.

*برنامج الدين والحياة، يث لمدّ جسر الرحمة بين الخالق والمخلوق.

*حديث الجمعة، يتناول قضايا ترتبط بالدين من أخلاق ومعاملات وتفسير قرآنية كل جمعة.

إذاعة إم إف إم (MFM):

*برنامج دين ومعاملات، يتخصص في الإجابة على استفسارات الناس وأسئلتهم المتعلقة بشؤون الدين والمعاملة.

*برنامج رتل تؤجر، يُعنى بتلاوة القرآن وقواعده وضبط أحكامه، وهو دعوة إلى جميع شرائح المواطنين للإقبال على كتاب الله وتدبره... يبتث مرتين في الأسبوع لساعة كاملة.

*برنامج استشارة فقهية، وهو برنامج ديني اجتماعي يهتم بقضايا الشأن الديني وخصوصاً المسائل الفقهية التي تشغل بال المواطنين.

*برنامج منابع الإيمان، ويهتم ببعض القضايا الدينية ويركز على علاقتها بالإيمان.

من خلال هذه القراءة في جميع البرامج التي ترتبط بالقرآن الكريم، في مجموع الإذاعات التي تبث من المغرب، يتبين الحاجة إلى إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، إذ إذاعة متخصصة تهتم بالقرآن الكريم قراءة، وتفسيراً، وتدبراً وتعليماً، ويؤكد الدور الذي تقوم به الإذاعة خدمة للقرآن الكريم.

إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم: دواعي التأسيس وخصائص البرمجة

تم إحداث إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم يوم 16 أكتوبر 2004م بعد أن أعطى انطلاقته جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وذلك بتعاون بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ووزارة الاتصال والإذاعة والتلفزة المغربية، بهدف تقديم الإذاعة لحصص من القرآن الكريم قراءة وترتيلاً وتعلماً وتعليماً ودروساً في التفسير لتقريب كتاب الله إلى كل المواطنين والمواطنات باللغة العربية والفرنسية واللهجات المحلية (تامازيغت - تاشلحيت - تاريفيت)⁹.

وقد جاء تأسيس هذه الإذاعة والقناة في ظلال الهيكلية التي عرفها الشأن الديني بالمغرب بداية من سنة 2004م، بهدف "تأهيل الحقل الديني وتجديده، تحصيناً للمغرب من نوازع التطرف والإرهاب، وحفاظاً على هويته المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح"، و"صيانة الحقل الديني من التطاول عليه من بعض الخوارج عن الإطار المؤسسي الشرعي"، والحفاظ على الوحدة المذهبية للمغرب والتشبث "بالمرجعية التاريخية الواحدة للمذهب المالكي"¹⁰، حيث شمل هذا الإصلاح إحداث مديرتين جديدتين بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (مديرية التعليم العتيق ومديرية

9 - انظر موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب: habous.gov.ma

10 - هيكلية الحقل الديني بالمغرب: المفهوم والسياق والمكونات والمرتكزات. نور الدين علوش. الحوار المتمدن. العدد 2656. تاريخ النشر 2009/05/24م.

المساجد)¹¹، وإحداث المجالس العلمية بأكثر من 30 إقليماً بعد أن كان عددها محصوراً في 16 مجلساً علمياً، قبل أن تتوسع بعد ذلك سنة 2009م فيصبح عددها بعدد أقاليم المملكة، وكذا إحداث وحدات خارجية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وتأسيس الرابطة المحمدية للعلماء لتحل محل رابطة علماء المغرب، وإحداث قناة وإذاعة محمد السادس لتواكب المشهد الإعلامي البصري والسمعي، وتخصص في المجال الديني وتواكب الإصلاح الذي يعرفه الحقل الدين برمته.

وإذا أردنا أن نبحت في ظروف تأسيس الإذاعة ودواعيها، فينبغي أن نستحضر مجموعة من المعطيات:

1- دواعي التأسيس:

يمكن الحديث عن دواعي تأسيس الإذاعة في العناصر الآتية:

أ- مواجهة الغلو والتطرف والفهم الخاطئ للدين

جاءت المبادرة بإطلاق إذاعة رسمية تشرف عليها مضمونا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في إطار هيكلة شاملة، تهدف إلى مواجهة التطرف والغلو، حيث ترمي السياسة التي انتهجها إصلاح القطاع الديني عموماً والتي وضع أسسها الخطاب الملكي ليوم 30 أبريل 2004م إلى "مواجهة الغلو والتطرف، تحصيناً للمواطن المغربي، سواء داخل الوطن أو خارجه، أي في المهجر، من آثارهما السلبية عليه، ولا يخفى في ذلك تأثير ما تعرض له المغرب من أعمال إرهابية مريعة منذ 16 ماي 2003م، وما أعقبها من أحداث مشابهة.

ومن هذا المنطلق، دعا الملك في خطابه الأخير إلى تحصين الشباب من استغلال الدخلاء والمتطرفين، ومواجهة النزعات الأصولية المتطرفة، منبهاً إلى أن عالم اليوم يجتاز ظرفية مطبوعة بنزوعات الأنانية والعنف واهتزاز المرجعيات، ومن ثم فإن وظيفة العلماء الأساسية، -يقول جلالة الملك نصره الله- هو العمل الدائم على إشاعة الطمأنينة والسلام والحث على التنافس في العمل البناء، ومحاربة التطرف والانغلاق والإرهاب، تحصيناً لبلادنا من الآفات المقيتة للغلو والتعصب"¹²، فكانت الإذاعة بمثابة صوت العلماء لمواجهة أي تطرف أو غلو قد يسيء إلى ديننا

11 - الظهير الشريف رقم 1.03.193 الصادر في 9 شوال 1424هـ الموافق لـ 4 دجنبر 2003م المتعلق باختصاصات وتنظيم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الجريدة الرسمية عدد 5172 بتاريخ فاتح ذو القعدة 1424هـ (25 ديسمبر 2003م).

12 - تدبير الشأن الديني في المغرب... مرتكزات وتحديات. إسماعيل حمودي. جريدة التجديد. تاريخ النشر 2008/10/07.

الحنيف، وكذا تنوير الشباب وتفقيهم في أمور دينهم وأيضاً خدمة القرآن الكريم الذي اعتنى به المغاربة سلفاً عن خلف.

ب- الدفاع عن الثوابت الدينية

مما لا شك فيه، أن بلد المغرب يتمتع بكونه من الدول الإسلامية التي ظلت وقية لثوابتها الدينية ومرتكزاتها الأساسية التي قامت عليها الدولة، ومن هذه الثوابت: المذهب المالكي، العقيدة الأشعرية، التصوف الجنيدي، وإمارة المؤمنين باعتبارها دعامة للأمن الروحي.

لذلك انصب اهتمام الإذاعة منذ نشأتها على خدمة هذه الثوابت، باعتبارها مرتكزات أساسية للانطلاق في سبيل خدمة الدين والقرآن الكريم.

ج- سياسة القرب

حيث يعتبر إطلاق الإذاعة، بمثابة تعزيز لمكانة العلماء ودورهم في تفقيه الناس وتعليمهم أمور دينهم بوسائل تمكنهم من خلق التواصل المنشود، ويرمي هذا المرتكز إلى تلبية الحاجيات الدينية للمواطنين، وتعزيز الأمن الروحي، من خلال صوت الإذاعة الرسمي للوصول إلى أكبر عدد من المواطنين الذين يستمعون للإذاعة باستمرار.

د- الحفاظ على الهوية الإسلامية

وهي إحدى مرتكزات السياسة الدينية عموماً، حيث يعتبر تأسيس إذاعة محمد السادس ركيزة أساسية ودعوة رسمية للأمة للحفاظ على هويتها الإسلامية في ظل الخصوصية المغربية، انطلاقاً من أسس الثقافة الإسلامية المشتركة، وقياماً لها بما يكفلها ويحفظها.

هـ- العناية بالقرآن الكريم وأهله

لا يختلف اثنان أن عناية المغاربة بالقرآن الكريم ليست وليدة اليوم، بل هي متجذرة في تاريخ هذه الأمة، يؤكد هذا انتشار الكتابات القرآنية بالمدن والبوادي انتشار الماء في العود الأخضر، حيث أصبح عدد هذه الكتابات يفوق 16960 كتاباً قرآنياً¹³، إضافة إلى القراء المهرة

13 - عدد الكتابات القرآنية برسم الموسم الدراسي 2012/2013م، (16960) كتاباً قرآنياً، 90.83٪ منها توجد داخل المساجد أو ملحقة بها في حين 9.17٪ فقط توجد خارج المساجد، كما أن 77.47٪ منها توجد بالوسط القروي. انظر الموقع الإلكتروني لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب. مقال حول إحصائيات الكتابات القرآنية على الصعيد الوطني ==

والحفظ لكتاب الله تعالى الذين تزدان بهم رحاب المساجد والمسابقات والأمسيات الوطنية والدولية، لذلك جاء تأسيس الإذاعة للاحتفاء بالقرآن الكريم وبأهله قراءةً وتدبراً وتعليماً وتكريماً.

2- خصائص البرمجة والبث الإذاعي

باعتبار أن إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم تنتمي للإعلام الرسمي الذي يخضع لهيكلية الدولة ممثلة إدارياً في الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة والمعروفة اختصاراً (SNRT)، فقد تم تحديد دفتر التحملات المتضمن لخصائص البرامج ومدة البث والبرامج الخدمية بالمرسوم رقم 2.12.596 الصادر في 25 من ذي القعدة 1433هـ (12 أكتوبر 2012م)¹⁴، حيث حدد خصائص البرمجة لجميع القنوات والإذاعات الرسمية التابعة للقطاع العام ومنها هذه الإذاعة، وفيما يلي قراءة في هذا النص القانوني، للاطلاع على خصائص البرمجة وتبين أهميتها في موازنة مع الأهداف المسطرة.

أ- مدة البث

نصت المادة 163 من المرسوم السالف الذكر أن إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم تبث برامجها يوميا وعلى مدار 24 ساعة، وهو معطى يوضح مدى الارتباط الوثيق بين الأهداف والواقع العملي، فلا يمكن تأطير الناس دينياً وإرشادهم وتعليمهم وتفقيهم دون مراعاة جميع أحوالهم وطيلة الزمن الذي يحتاجون فيه لهذا التأطير، كما أن خدمة القرآن الكريم وعلومه ينبغي ألا تقتيد بزمن ووقت معين.

ب- الخصائص العامة للبرمجة

ينص دفتر التحملات أن "إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم تعتمد برمجة متخصصة موجهة للجمهور الواسع بمختلف فئاته العمرية وشرائحه الاجتماعية، متمحورة أساساً حول تلاوة وتفسير القرآن الكريم وبث برامج ذات طابع ديني، تعكس توجهات المملكة المغربية في المجال الديني المبنية على الارتباط بقيم الإسلام وخاصة منها قيم الاعتدال والتسامح والانفتاح والحوار..."¹⁵.

== habous.gov.ma. وانظر بحث آليات ومناهج التعليم القرآني بالكتاتيب المغربية ودورها في إثراء الحركة العلمية. عبد الكريم بناني. بحث ألقى بالمؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، البيئة التعليمية للدراسات القرآنية.. الواقع وآفاق التطوير. الرياض. 2015م.

14 - الجريدة الرسمية عدد 6093 الصادرة بتاريخ 6 ذو الحجة 1433هـ (22 أكتوبر 2012م).

15 - المادة 164 من المرسوم رقم 2.12.596 الصادر في 25 من ذي القعدة 1433هـ (12 أكتوبر 2012م).

كما نصّ أيضاً أنّ مهمّة "إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم" تتمثّل في "بث البرامج التي تعمل على تشجيع قيم الإسلام وخاصة برامج تفسير القرآن الكريم وتسهيل حفظه وتعلمه والعمل به، وتعالج برامج التربية الدينية، من خلال النقاش والحوار والنقد، المواضيع التي تستأثر باهتمام الرأي العام، عموماً، والشباب، خصوصاً كالحريات الفردية والمعاملات المالية وعلاقة الدين بتدبير الشأن العام وغيرها، وتبث الدروس الدينية وبرامج حول الأسرة وتوجيه السلوك والمعاملات في الإسلام"¹⁶.

وقد حدّد دفتر التحملات، مدّة بث البرامج التي تعنى بتلاوة القرآن الكريم وتفسيره وتفسير الحديث النبوي الشريف في 40٪ من المدة الزمنية للبث¹⁷.

كما يبيّن دفتر التحملات، جميع البرامج التي يمكن للإذاعة أن تسهر على برمجتها وبثها، وهي:

- خطابات أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وكذا الأنشطة الدينية التي يترأسها؛

- الدروس الحسنية خلال شهر رمضان، كما تقوم بإعادة بثها على طول السنة؛

- وقائع صلاة الجمعة وصلاة العيدين وكذا صلاة التراويح؛

- ندوات وروبورتاجات تهدف إلى نشر القيم الدينية الإسلامية، وكذا التعريف بعلماء الإسلام وأعمالهم؛

- برامج تفاعلية في حدود ساعة كل يوم تجيب على أسئلة المواطنين؛

- أغاني وأناشيد دينية باللغة العربية؛

- التظاهرات الوطنية والدولية المنظمة ببلادنا بتنسيق مع الهيئات الدينية الوطنية؛

- برامج خاصة في المناسبات والأيام الوطنية والدولية بتنسيق مع الهيئات الحكومية المعنية؛

- برامج تهدف إلى التعريف بحقوق المرأة ومكانتها ودورها في المجتمع في حدود 6٪ من إجمالي ساعات البث؛

16 - المادة 164 من المرسوم رقم 2.12.596. مرجع سابق.

17 - المادة 164 من المرسوم رقم 2.12.596. مرجع سابق.

- وتنتج برنامجاً عن الأسرة والخدمات في حدود 13٪ من إجمالي ساعات البث؛
- برنامجاً أسبوعياً موجهاً للشباب من أجل تعزيز هويتهم الدينية والوطنية وتمكينهم من مناقشة قضايا اجتماعية وثقافية؛
- برنامجاً أسبوعياً موجهاً للأطفال من أجل تحسيسهم بالقيم الإسلامية؛
- برنامجاً يومياً للنقاش حول أحكام وقيم الإسلام وخاصة منها قيم التسامح والانفتاح والحوار؛
- نشرة إخبارية أسبوعية حول الأنشطة الدينية بالمغرب¹⁸.
- كما يسمح القانون للإذاعة أن تبث برامج ناطقة بالأمازيغية والحسانية لتبسيط وإبراز مكونات التراث الديني والثقافي الأمازيغي والحساني المغربي.
- كما تضمنت شبكة برامجها تنوعاً لسانياً من أجل التواصل مع مغاربة العالم، وتمتين روابطهم بأصولهم المغربية والإسلامية.
- وتمثل مجموع البرامج الدينية باللغة الأمازيغية 10٪ كحد أدنى، من حجم البرامج الدينية التي تبثها الإذاعة¹⁹.

فالخصائص التي نص عليها دفتر التحملات والتي ينبغي على الإذاعة أن تراعيها في إعداد برامجها، تبين بما لا يدع مجالاً للشك، النسق العام الذي ينبغي للإذاعة أن تواكبه في تفقيه الناس، وفق مقارنة تعني بالقرآن الكريم وتفسيره وعلومه بنسبة لا تقل عن 40 في المائة من ساعات البث اليومية، وهي نسبة تترك أثراً بالغاً في نفوس وقلوب المستمعين، وتؤثر تأثيراً إيجابياً يعكسه ما تحققه نسبة الاستماع مقارنة بباقي الإذاعات.

ج- البرامج الخدمية

ونعني بها البرامج التي تقدم خدمات للمواطنين، فرغم أن إذاعة محمد السادس متخصصة في القرآن الكريم وعلومه، إلا أن دفتر التحملات، يفرض عليها تقديم جهود أكبر لتوعية الناس بأمور دينهم في ارتباط وثيق بدينهم، بمعنى التأصيل للخدمات من زوايا ومقاربات دينية، وهو ما

18 - المادة 164 من المرسوم رقم 2.12.596 الصادر في 25 من ذي القعدة 1433هـ (12 أكتوبر 2012م).

19 - المادة 164 من المرسوم رقم 2.12.596 ، مرجع سابق.

أكدته المادة 165 من المرسوم حيث نصّت على ما يلي: "تحرص إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم على معالجة هذه القضايا من زاوية دينية"، لذلك وجدنا برامج متعددة تقدمها الإذاعة، تتحدث عن المحافظة على البيئة في القرآن الكريم، عن محاربة الرشوة وعن حسن المعاملة وأداء الأمانة وغيرها من الأمور التي يحتاجها الناس في حياتهم وتساعد على ممارسة المواطنة المسؤولة، وغالبا ما تبث في إطار محاضرة أو ندوة علمية، يستدعى لها متخصصون وعلماء يجتهدون في تأصيل هذه القضايا من رؤية شرعية، تلتمس الدليل من القرآن الكريم والسنة النبوية.

د-الإشهار والرعاية²⁰

ما يميز الإعلام الرسمي المتخصص في البرامج الدينية منعه من بثّ الوصلات الإشهارية، وكذا رعاية البرامج من طرف مستشهرين، تفاديا لاستغلال هذا التوجه والمنحى مع وصلات إشهارية قد تخالف ولا توافق التصوّر العام للإعلام الديني الذي يهدف لخدمة القرآن الكريم وعلومه.

وهكذا يتبين من دفتر التحملات الدور المنوط بإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم لرفع الوعي العام بالقرآن الكريم وقواعده وعلومه، وبيّن العِبء الذي أُلقي على عاتق العلماء والإذاعيين والإعلاميين بهذه الإذاعة لتحقيق الأهداف المسطرة.

أثر العلاقة بين إذاعة محمد السادس والمؤسسات المتخصصة في خدمة القرآن الكريم

لم يكن إصلاح الشأن الديني واقعا تفرضه الحاجة بقدر ما كان استراتيجية مهمة ترمي إلى وضع الشأن الديني في مرتكزاته الأساسية وبنيتة الفعلية المتجسدة في خدمة القرآن الكريم وعلومه، كما تؤكد ذلك البرامج الإعلامية عموما والإذاعية خصوصا، حيث تلتقي أهداف إحداث إذاعة رسمية متخصصة في القرآن الكريم وعلومه، مع باقي منظومات الإصلاح لتحقيق نفس الغاية، بل ليكون للإذاعة دور أساسي ضمن هذه المنظومة مجتمعة، فأى إصلاح لا يعتني بالإعلام المتخصص والهادف سيكون مآله الفشل، لذلك استطاعت المؤسسات والمعاهد والجوائز التي أحدثت في ظلّ هذا الإصلاح أن تنتشر وتعرف ويكتب لها الذيوع بفضل إذاعة وقناة محمد السادس للقرآن الكريم، وسأعرض في هذا المبحث أهم المؤسسات والمعاهد والجوائز التي أحدثت وكان لإذاعة محمد

20 - المادة 166 من المرسوم رقم 2.12.596 الصادر في 25 من ذي القعدة 1433هـ (12 أكتوبر 2012م).

السادس للقرآن الكريم دوراً كبيراً في نشرها والتعريف بها مما أسهم في تحقيق الأهداف المتوخاة منها، فأصبحت بذلك علاقة الإذاعة بهذه المؤسسات علاقة تكاملية وخدمائية، أذكر منها على وجه الخصوص:

✓ معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية

أنشئ المعهد بهدف "تكوين قراء متميزين، وعلماء متخصصين في القراءات وفي الدراسات القرآنية، ملمين بمناهج البحث العلمي وأدواته، وقادرين على إنجاز دراسات جادة ورصينة، تبرز عظمة القرآن الكريم وأسراره وحقيقته، وتوسع المعرفة الإنسانية بالتعريف به ونشر تعاليمه في أرقى صورة وبأنجع وسيلة"²¹.

وقد عهد لهذا المعهد - بناء على المادة الثانية من الظهير الشريف رقم 1.13.50 الصادر في 21 جمادى الآخرة 1434 هـ (02 ماي 2013 م)²²:

- "التكوين في مجال القراءات والدراسات العليا المتخصصة وبتنمية البحث العلمي في علوم القرآن.

- تأهيل المتخصصين في مجال علوم القرآن تأهيلاً يمكنهم من اكتساب المناهج والمعارف اللازمة لإنجاز الأبحاث والدراسات والمشاركة في الحركة العلمية.

- العمل على نشر الأبحاث والدراسات التي تدرج ضمن اهتماماته.

- تنظيم دورات للتكوين في مجال اختصاصه.

- إقامة شراكات وربط علاقات تعاون مع المؤسسات والهيئات العلمية الوطنية والأجنبية ذات الاهتمام المشترك.

- تقديم استشارات وإنجاز خبرات في مجال اختصاصه بناء على طلب."

وبتبيين مجال اختصاصات المعهد يتّضح أن القصد من إحداثه هو حفظ جانب مهم يرتبط بالحاجة إلى تكوين قراء متميزين بالمساجد، وعلماء متخصصين في مجال القراءات والدراسات

21 - مقتطف من ديباجة الظهير الشريف رقم 1.13.50 الصادر في 21 جمادى الآخرة 1434 هـ (02 ماي 2013 م) بإحداث معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية.

22 - الجريدة الرسمية عدد 6153 بتاريخ 9 رجب 1434 هـ (20 ماي 2013 م).

القرآنية عموماً، من شأنهم المساهمة في الارتقاء بالفهم الديني وتبيين الأسلوب المنهجي والفكري الملائم لقراءة وتدبر النص القرآني للعمل على نشره في أرقى صورة، وبذلك يتحقق التكامل بين المؤسسات الأكاديمية والمعاهد الشرعية التي تعني بتخريج العلماء والمتخصصين في الدراسات القرآنية والحديثية والفقهية.

✓ جائزة محمد السادس في حفظ وتجويد وترتيل القرآن الكريم وجائزة محمد السادس الدولية²³:

وتشمل المسابقة الوطنية فروعاً ثلاثة:

- جائزة محمد السادس الوطنية في حفظ القرآن الكريم وترتيبه.
 - جائزة محمد السادس الوطنية في تجويد القرآن الكريم بالطريقة المغربية.
 - جائزة محمد السادس الوطنية في تجويد القرآن الكريم بالطريقة المشرقية.
- فيما تتضمن المسابقة الدولية فرعين:

- حفظ القرآن الكريم وترتيبه وتفسيره
- وحفظ القرآن الكريم وتجويده.

ويتنافس فيها حفظة كتاب الله تعالى على مستوى محلي إقليمي وعلى مستوى وطني ودولي ليتم اختيار فائز عن كل فرع يتسلم جائزة نقدية ليلة القدر المباركة بالنسبة للوطنية، وليلة المولد النبوي الشريف بالنسبة للدولية²⁴.

✓ جائزة محمد السادس لأهل القرآن²⁵

وهي جائزة محدثة تهدف إلى مكافأة المؤهلات والقدرات الوطنية المتميزة في خدمة كتاب الله العزيز، نشرًا وأداءً، أو تبرزاً في علم من علومه. حيث ينال هذه الجائزة شخص يختاره أمير المؤمنين

23 - الظهير الشريف رقم 1.04.223 الصادر في 7 محرم 1426هـ (16 فبراير 2005م). الجريدة الرسمية عدد 5295 بتاريخ 28 فبراير 2005م.

24 - انظر موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب. habous.gov.ma

25 - ظهير شريف رقم 1.07.204 صادر في 19 ذي القعدة 1428هـ (30 نونبر 2007م). الجريدة الرسمية عدد 5595 بتاريخ 14 يناير 2008م.

نصره الله، إما مباشرة، أو بناء على اقتراح من وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وتسلم الجائزة بمناسبة إحياء ليلة القدر المباركة²⁶.

✓ جائزة محمد السادس للطفل الحافظ للقرآن الكريم

يتم تنظيم هذه الجائزة على هامش جائزة محمد السادس الوطنية في حفظ القرآن الكريم وترتيبه وتجويده التي يتم تنظيمها خلال شهر رمضان الأبرك من كل سنة، حيث يتبارى فيها مجموعة من الأطفال الحفاظ الذين يتم ترشيحهم بالتنسيق مع الأمانة العامة للمجلس العلمي الأعلى، فيتم اختيار الطفل الفائز الحافظ لكتاب الله، ليتم تسليم الجائزة له في ليلة القدر المباركة²⁷.

✓ الكراسي العلمية بصائر وبشائر

أطلق مشروع "الكراسي العلمية بصائر وبشائر"، سنة 2010م، تأسيساً بالمنهج الذي اشتغل عليه السلف وقدم خدمات جليلة للعلوم الشرعية، ولحاجة مدارس التعليم العتيق اليوم التي تدرس العلوم الشرعية وكذا الجامعات الإسلامية لهذه الكراسي، وجاءت هذه المبادرة لتشمل كراسي علمية في العقيدة والسلوك والتفسير والحديث والسيرة النبوية وأصول الفقه ومقاصد الشريعة، وتحمل هذه الكراسي العلمية أسماء علماء كبار في التاريخ الإسلامي، ككرسي الإمام بن عطية في التفسير، وكرسي الإمام السهيلي في السيرة النبوية، وكرسي الإمام مالك في الفقه، وكرسي الإمام أبي الحسن الأشعري في العقيدة، وكرسي الإمام الجنيد في التصوف، وكرسي الإمام ابن آجروم في النحو، وكرسي الإمام ورش في القراءات والتجويد، وكرسي الإمام الزقاق في القواعد الفقهية، وكرسي الإمام القرافي في أصول الفقه، وكرسي الإمام الشاطبي في القراءات السبع²⁸؛ ويتابعها عبر قناة محمد السادس للقرآن الكريم وإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم عدد لا يحصى من طلبة العلوم الشرعية والمهتمين والباحثين، وبذلك يظهر الأثر الكبير الذي يشكّله بث هذه الكراسي عبر أثر الإذاعة.

26 - ظهير شريف رقم 1.12.17 صادر في 27 من شعبان 1433هـ (17 يوليو 2012م)، بتغيير الظهير الشريف رقم 1.07.204 الصادر في 19 من ذي القعدة 1428هـ (30 نونبر 2007م) بإحداث جائزة محمد السادس لأهل القرآن. الجريدة الرسمية عدد 6067 بتاريخ 23 يوليوز 2012م.

27 - انظر موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على الشبكة العنكبوتية: habous.gov.ma
28 - انظر موقع الكراسي العلمية بصائر وبشائر على الشبكة العنكبوتية: www.alkarassi.com

إن ما تمّ عرضه هنا من جوائز ترتبط بالقرآن الكريم ومؤسسات لها علاقة بخدمة القرآن الكريم وعلومه، يوضح بجلاء الأثر الذي أحدثته الإذاعة بعد إنشائها، فهي تمثل آلية إعلامية من بين آليات أخرى تهم تأهيل الحقل الديني بالمغرب وإدماجه في الخطاب الإعلامي الوطني وجعله يسير ما يعبر عنه الدين الإسلامي السمح في عمقه من دعوة إلى التسامح والانفتاح واحترام الديانات الأخرى، والمستلهمة من الهدى القرآني والسنة النبوية. فالناظم الذي يجمع بين إحداث إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، وهذه الجوائز والمؤسسات هو "الحفاظ على الأمن الروحي للمواطنين، والذي يقتضي التواصل بشكل مباشر معهم، وذلك بالاستفادة من المزايا والدور الهام الذي تضطلع به وسائل الاتصال الحديثة، لاسيما الجماهيرية منها، بهدف إيصال خطاب ديني من مستوى مقبول إلى أكبر شريحة من المواطنين يؤهلها للتعرف على مقومات الدين وقيم النبيلة، في وقت وجيز وبأقل تكلفة"²⁹.

لقد أسهم تواجد الإذاعة ضمن الإعلام السمعي المغربي في تأسيس لبنات فكر ترتبط بالقرآن الكريم وتسعى لتطوير الدراسات القرآنية انطلاقاً من الحفظ والتعهد والتمكّن من قواعد التجويد والترتيل والاطلاع على التفاسير التي تهدي إلى سبل الاسترشاد بآيات الله عز وجل.

التنوع الموضوعاتي لبرامج إذاعة محمد السادس وأثره في خدمة القرآن الكريم وعلومه

حرصت إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، منذ نشأتها سنة 2004م على العناية بالقرآن الكريم وعلومه، حيث ركزت في برامجها المتنوعة والمرتبطة بالقرآن الكريم على وجه الخصوص - باعتبارها إذاعة دينية هادفة - على تحفيظ القرآن الكريم للناشئة، وتصحيح القراءات القرآنية للأطفال والكبار الذين يتعهدون القرآن بالطريقة التقليدية المعهودة عند المغاربة والتي تعتمد على العرض على الشيخ³⁰، إضافة إلى الاهتمام بتفسير القرآن الكريم وبيان معاني الألفاظ والإعجاز البلاغي والقصص القرآني، والجمال الذي يستنبط من تأمل وتدبر كتاب الله تعالى.

29 - في ذكراها العاشرة: إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، أسباب التألق، المصطفى الإسماعيلي. ahdath.info/3112. تاريخ النشر 6 يوليو 2014م.

30 - يعدّ الشيخ الحلقة الأهم في تعهد القرآن الكريم بالمغرب، وقطب الرحى الذي يرجع إليه الطالب ليملي عليه حصّة الحفظ اليومي، وليصحّحه معه اللوح من حيث الرسم والضبط ثم يراجع معه الحفظ، حيث تعتبر هذه الطريقة ذات أثر مهم على الطلبة، خاصة أن أغلب الشيوخ يُقدّمون طلبتهم لإمامة الناس خلال شهر رمضان، بقصد اختبار قوّة حفظهم ومدى تمكنهم من القرآن الكريم. آليات ومناهج التعليم القرآني بالكتاتيب المغربية ودورها في إثراء الحركة العلمية، عبد الكريم بناني. بحث ألقى بالمؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، البيئة التعليمية للدراسات القرآنية.. الواقع وآفاق التطوير. الرياض. 2015م.

إن هذه العناية، وهذا التنوع الذي تميزت به إذاعة محمد السادس هو الذي أسهم في زيادة الإقبال عليها من طرف المستمعين، حيث يؤكد هذا الإقبال، ما تحققه البرامج المباشرة التي تعني بتصحيح قراءة القرآن من نسب اتصال توافق دائماً ما هو متوقع وتؤكد أهمية الدور الذي أضحت تقدمه الإذاعة من خدمات جلية للمواطنين وللراغبين في حفظ القرآن الكريم، والأثر الذي بدأ يظهر في صفوف المستمعين، وخاصة الفئة المرتبطة بالإذاعة كسائقي سيارات الأجرة والحافلات، الذين يؤكدون من خلال ما تبيّنهُ نسب مقياس الاستماع من أهمية للإذاعة، في تغيير الكثير من السلوكيات السيئة لدى هذه الفئة وكذا الفهم السليم للقرآن الكريم ومراجعتها وحفظه³¹.

ويتأكد هذا التميز من خلال مراجعة للبرامج التي قدمتها الإذاعة وما زالت تقدم بعضها خدمة للقرآن الكريم، باعتبار أنها برامج مستمرة ترتبط بمشروع متكامل يجمع بين تعهد القرآن ومراجعة القواعد والتفسير والبيان:

أ- البرامج التي تعني بتعهد القرآن الكريم وبيان قواعد التجويد

تبث إذاعة محمد السادس برامج متعددة تهتم بالقرآن الكريم وتعني بحفظه، وتتواصل مع المستمعين لتبيين قراءته السليمة، إضافة إلى بيان الطريقة المتبعة في المغرب في قراءة القرآن وهي قراءة ورش عن نافع من طريق الأزرق.

من هذه البرامج:

-المسيرة القرآنية: حيث تقدم الإذاعة يومياً قراءة مرتلة لحزبين من القرآن الكريم من تلاوة القارئ العيون الكوشي³²، وهو من القراء المغاربة المشهورين، تعين المستمعين على حسن ترتيله، وتثبيت الحفظ للأحزاب المقروءة، والتي تتكرر شهرياً (حزبين يومياً).

31 - يصنف المركز المهني لقياس نسب الاستماع للمحطات الإذاعية بالمغرب (سيراد)، في كل دراساته لقياس نسب الاستماع لدى متبعي الإذاعات الوطنية، إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، في مركز الصدارة من حيث نسبة الاستماع ضمن مختلف الإذاعات المتواجدة على امتداد التراب الوطني، وذلك من خلال الجهود التي تبذلها بمواكبتها لكافة الأنشطة الثقافية والعلمية والدينية التي تنظمها المجالس العلمية المحلية، وتقديمها لمجموعة من البرامج الدينية والفقرات التي تهتم المواطن في دينه ودينه، وبإيلائها العناية اللازمة للتراث العريق والعمل على إحيائه ولعل ما يدعو إلى الاعتزاز بهذه المنشأة الإعلامية الدينية هو فتح الباب أمام المرأة العاملة أيضاً، وتكريس انخراطها في مشروع تأهيل الحقل الديني في شقه الإعلامي. انظر وكالة المغرب العربي للأنباء، الرباط. ahdath.info/3112، تاريخ النشر 6 يوليو 2014م.

32 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1167

- المسيرة القرآنية بصوت المقرئ محمد إراوي: تقدم إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم يومياً طيلة شهر رمضان قراءة مرتلة لحزبين من القرآن الكريم بصوت القارئ محمد إراوي³³، وهي قراءة مائعة تتميز بالعناية التي يوليها القارئ للقواعد.

- "المصحف المرتل الكامل"، و"قرآن كريم": وهي قراءات قرآنية تشمل الحزب الراتب للقرآن الكريم يومياً بعد الظهر.

- قراءة جماعية للحزب الراتب: حيث يتم نقل قراءة الحزب الراتب يومياً من أحد المساجد، والذي يقام بعد صلاة الصبح وصلاة المغرب يومياً، وقد أسهمت هذه القراءة الجماعية في حفظ الكثير من الناس للقرآن الكريم، أو تصحيح قراءتهم للقرآن الكريم.

- برنامج قراءات قرآنية مع الناشئة: وهو برنامج يهتم بتعليم قواعد تجويد وحفظ القرآن الكريم للناشئة مع تصحيح وتقويم قراءاتهم³⁴، موجه للأطفال يقرب القواعد ويشرح لهم كيفية تلاوة القرآن بطريقة مبسطة. وهو برنامج تفاعلي مع الأطفال لتعليمهم القراءة الصحيحة للقرآن الكريم.

- برنامج احفظ معي القرآن: وهو برنامج يهتم بتعليم قواعد وتجويد وحفظ القرآن الكريم³⁵، والتعرف على رسمه وتجويده³⁶، وذلك من خلال إرشاد المستمعين إلى كيفية قراءة القرآن وفق قواعد التجويد والرسم القرآني، ويختلف عن برنامج قراءات قرآنية مع الناشئة، لأن هذا البرنامج موجه للكبار، بينما قراءات قرآنية مع الناشئة يعتني بالأطفال.

- برنامج نساء من أهل القرآن: يعرض البرنامج تجربة بعض النساء المغربيات في حفظ القرآن الكريم³⁷، حيث تسهم تجاربهن مع القرآن الكريم في تحفيز وتشجيع النساء الأخريات على حفظ القرآن الكريم.

- في رياض تجويد القرآن الكريم: برنامج يتضمن عرضاً لقواعد التجويد بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة الإمام ورش³⁸؛ وهو برنامج يغوص في أصول رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق، باعتبارها الطريقة التي يعتمد عليها المغاربة في أخذهم للقرآن الكريم.

33 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1232

34 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1262

35 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=813

36 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1250

37 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1271

38 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=751

- تعالوا نقرأ القرآن: برنامج تعليمي يشرح أهم القواعد التجويدية للقرآن برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق³⁹.

- اقرأ وارفق: برنامج تفاعلي مع المستمعين لتصحيح قراءاتهم وتجويدهم للقرآن الكريم⁴⁰، يعتني بتصحيح القراءة لمن يريد حفظ القرآن الكريم حتى يكون تعهده للقرآن الكريم أسلم وأصح، خاصة أن البرنامج يشرف على تقديمه وإعداده أحد شيوخ حفظ القرآن الكريم.

- طفل يقرأ: لقاء مع الأطفال لدراسة طريقة تجويد القرآن الكريم⁴¹، حيث يركز البرنامج على اللقاء المباشر مع الأطفال بمعية أحد المتخصصين في القراءات القرآنية الذي يعمل على تصحيح قراءتهم للقرآن الكريم، وبيان الوجه الصحيح لهذه القراءة بما يكفل استفادة الطفل والمستمع من هذه القراءات الماتعة.

- تغريد البابل: إطلالة صباحية تخاطب القلوب والألباب، بلغة الحب والود فيسمو الخطاب، إطلالة تفتح للخير ألف باب وباب، وتنشد الرقي بالهمم علو السحاب، ضمن شعارات تحمل في طياتها الحكمة والصواب. ويركز هذا البرنامج في فقراته على قراءة القرآن للأطفال، حيث اختار شعار: أنا والقرآن صديقان⁴².

- في محراب القرآن الكريم: برنامج يحفز النساء والشباب على الاهتمام بالقرآن الكريم والإقبال عليه، كما يستعرض القراءات القرآنية مع التصحيح إن لزم الأمر⁴³.

ب- البرامج التي تعتني بتفسير القرآن الكريم وبيان معانيه وشرح مفرداته

لا يقتصر بث برامج إذاعة محمد السادس على العناية بتعهد القرآن الكريم، وتبيين القراءة السليمة من خلال البرامج التوعوية المفيدة، بل اعتنت عدد من برامج الإذاعة بتفسير القرآن الكريم إما كاملاً أو بعض الآيات المتخصصة، أو شرح بعض المفردات وكذا بيان المعاني البيانية والتأملية لآيات كتاب الله، ليستفيد المستمع ويقف عند المعاني ويتحقق له استجلاء الغموض الذي قد يكتنفه عند الغوص في القرآن الكريم.

39 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=855

40 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1248

41 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1316

42 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=935

43 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1292

من هذه البرامج:

- القرآن والتفسير للمكي الناصري⁴⁴: تقدّم إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم برنامج القرآن والتفسير للمرحومين المقرئ عبد الرحمان بن موسى وفضيلة الشيخ المكي الناصري، وتتضمن كل حلقة قراءة وتفسيراً لربع حزب من القرآن الكريم⁴⁵، ويتميز تفسير المكي الناصري رحمه الله (ت 1414هـ)⁴⁶ بصبغته التربوية وطابعه الإصلاحي البارز، وقد قسّم هذا التفسير إلى حلقات كل واحدة منها تشمل ربع حزب من القرآن، ليكون عدد حلقات "التيسير في أحاديث التفسير" مائتي وأربعين حلقة، ووضع لكل حلقة تمهيداً يتطرق فيه الشيخ لمضمون الربع أو موضوعه العام، ثم يعرض للسياق الذي ورد فيه وارتباطه بما قبله من القرآن، بأسلوب شيق وسهل، مبرزاً أوجه التناسب بين الآيات، فإذا تعلق الأمر ببداية السورة تكلم عن تسميتها، وقد احتزز من المصطلحات العلمية والفقهية التي يمكن أن تعيق عملية التواصل والفهم على عامة الناس، ولأن بعض التفاسير قد تكون حجباً لمعاني الآيات لما حشيت به من آثار وأخبار واهية أو موضوعة قد تفسد على الناس فهم كتاب الله، فقد كان في غاية التحري في صحة الروايات والالتزام بالصحيح من المنقول⁴⁷.

- جواهر من القرآن الكريم: يقدم البرنامج آيات قرآنية وما تتضمنه من فوائد أخلاقية وقصص نبوية وأحكام تعبدية يحتاج إليها المسلم في حياته اليومية⁴⁸، فالبرنامج ليس حوارياً بل يشكّل فيه المقدّم قطب الرحى، حيث يتكلم عن الدرر واللطائف والنكت من القرآن الكريم ويخاطب من خلاله المتخصّص بأسلوب عربي رصين، لذلك فالبرنامج موجّه للخاصة التي يمكن أن تعي تلك الدرر وتغوص في تلك المعاني، وتشكل إجابات شافية لما قد يكتنف المتأمل للقرآن الكريم من معاني وقضايا تفسيرية قد يعتقد بغموضها.

44 - عالم ومفسّر. ولد في الرباط ودرس في القاهرة، ثم باريس، ثم جنيف. رئيس رابطة العلماء، عضو مجلس الوصاية، عضو الأكاديمية الملكية بالمغرب، أحد رواد الحركة الوطنية فيها، عالم لم يتوقف عن نشر العلم والتعريف بحقائق الإسلام. شغل عدة مناصب، إلى جانب الخطابة في أكبر مساجد المغرب، والنشاط العلمي في مختلف الهيئات العلمية المغربية. عمل سفيراً للمغرب بليبيا، ووزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، ورئيساً للمجلس العلمي بولاية الرباط وسلا، وانتخب أميناً عاماً لرابطة علماء المغرب. توفي رحمه الله في 10 مايو 1994م، الموافق لـ 29 ذي القعدة 1414 هجرية. تقديم كتاب التيسير في أحاديث التفسير. دار الغرب الإسلامي. بيروت - لبنان. 1405هـ/1985م.

45 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1240

46 - تم طبع هذا التفسير بدار الغرب الإسلامي. بيروت - لبنان. سنة 1405هـ/1985م. في ستة أجزاء بعنوان: "التيسير في أحاديث التفسير".

47 - انظر بحث: الشيخ محمد المكي الناصري مفسراً. عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس. مجلة الإحياء، العدد 13. سنة 1419هـ.

48 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1221

- تأملات في معاني الآيات: سلسلة حلقات مميزة تفسّر سور القرآن الكريم بالأسلوب المبسط والسهل حتى يتمكن المستمع الكريم من فهم الآيات القرآنية وسبر أغوارها واستخراج معانيها بسلاسة⁴⁹، يقدمها أحد الشيوخ المميزين في القراءة القرآنية⁵⁰.

- من أسرار الوجود في آيات السجود: تأملات في آيات السجود التي يسجد القارئ لها سجود التلاوة والبحث عن علاقتها بالوجود وأسراره المتاحة وتقصي مقاربات العلماء لعلّة السجود عندها⁵¹، وهو برنامج يهدف إلى استجلاء الغموض وتوضيح الحقائق المرتبطة بعلّة السجود عموماً، وخاصة سجود التلاوة بالقرآن الكريم.

- برنامج قبس من القرآن الكريم بتأشيلحيت: وهو برنامج يتناول شرح معاني الآيات القرآنية واستخلاص الأحكام الواردة فيها بتأشيلحيت⁵².

- مفردات من القرآن الكريم: في البرنامج شرح لبعض مفردات القرآن الكريم في سياقها اللغوي والشرعي مع استخلاص بعض العبر والمواقف الداعية إلى الالتزام بها⁵³، حيث يعتني مقدم البرنامج ببعض مفردات القرآن الكريم ليبين للمستمعين الاستعمال اللغوي والشرعي وما يتوجّب فهم هذه المفردة من أمر أو نهي أو نذب أو غير ذلك.

- قبس من القرآن بالفرنسية: برنامج يشرح معاني الآيات القرآنية باللغة الفرنسية من أول آية إلى آخر آية في المصحف الشريف بطريقة سهلة ومبسطة، كي يتمكن المستمع الناطق باللغة الفرنسية من التعمق في معاني القرآن الكريم⁵⁴.

- لؤلؤ ومرجان: فقرة تعليمية توضح أهم أساليب البيان والبلاغة في القرآن الكريم⁵⁵.

49 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=744

50 - وهو المدرر الشيخ محمد العوني الزاوية، محفّظ للقرآن الكريم، تخرج على يده أزيد من 3360 حافظاً، أي بمعدل 80 طالباً في السنة.

51 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1289

52 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1144.

وتأشيلحيت هي إحدى اللغات الأمازيغية الأكثر انتشاراً في المغرب الأقصى. تنتشر هذه اللهجة خصوصاً في منطقة سوس. وتعتبر مدن أكادير والصويرة وتزنيت السياحية مهد هذه اللهجة، حيث جل سكان هذه المدن يتكلمون السوسية.

Ethnologue: Languages of the World, Eighteenth edition. Dallas, Texas: SIL International. Lewis, M. Paul. 2015

53 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1272

54 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=186

55 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1181

- في ضيافة آية: محطة تفسيرية لبعض آيات الذكر الحكيم⁵⁶، يستعرضها المعد بطريقة مبسطة وواضحة، تشد المستمع وتجلي الغموض.

- وقفات تأملية: برنامج يدعو إلى وقفة تأملية مع الذات لاستخلاص العبر⁵⁷ من الآيات القرآنية موضوع الدرس.

- أسرار من القرآن الكريم: برنامج يعنى بأسرار القرآن الكريم ومفاتيحه فهما وتدبرا، كما يشرح خبايا البيان القرآني وقضايا البلاغ الرباني وأسراره وبصائره⁵⁸، حيث يعتني البرنامج بالغوص فلسفيا في أسرار القرآن الكريم وأسرار التعبير القرآني المتفرد.

ج- البرامج التي تعتني بالقصص القرآني وبمواضيع مختلفة من القرآن الكريم

تعددت برامج الإذاعة التي اعتنت بالقصص القرآني، بل منها بعض البرامج التي تناولت هذه القصص بلغات مختلفة كالفرنسية والإنجليزية وتشليحيت، إضافة إلى برامج تناولت مواضيع تربوية واجتماعية وثقافية تقتبس من هدي القرآن الكريم ليستلهم المستمع الطريق الصحيح والنور الذي يعينه في حياته.

من هذه البرامج:

- قصص من القرآن بالإنجليزية: برنامج يشرح معاني الآيات القرآنية باللغة الإنجليزية بطريقة سهلة وواضحة كي يتمكن المستمع الناطق باللغة الإنجليزية من فهم معاني القرآن الكريم والتعرف على قصص الأنبياء⁵⁹، حيث يركز البرنامج على توضيح هذه القصص بأسلوب وبلغة إنجليزية راقية.

- قصص الأنبياء: ضمن برنامج فسحة واستفادة خلال الفترة الصباحية، يتم عرض هذه الفقرة التي تغوص بنا في درر أحسن القصص القرآني، وتستخرج منها الدروس والعبر⁶⁰.

- الجلال والجمال: برنامج يسلط الضوء على معاني الجلال والجمال في القرآن الكريم⁶¹، من خلال عرض قضايا قرآنية جميلة بأسلوب رائع يريح المستمع ويحفز النفوس لفتح كتاب الله والاستنارة بنوره.

56 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1214

57 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1263

58 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1223

59 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1030

60 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1139

61 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=516

- إشراقات: برنامج يعرض لمواضيع ثقافية واجتماعية وتربوية مختلفة من القرآن الكريم⁶².
- الدروس الحسنية الرمضانية: تعتبر مجالس الدروس الحسنية خلال شهر رمضان من كل سنة صيغة يتفرد بها المغرب، حيث تتميز بحضور صفوة من العلماء الأجلاء تحت الرئاسة الفعلية لمولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس دام له النصر والتمكين⁶³، وتتناول هذه الدروس مجموعة من المواضيع أهمها ما يرتبط بالقرآن الكريم وعلومه.
- الكراسي العلمية: برنامج يهتم بنقل دروس الكراسي العلمية التي تلقى بمساجد المملكة، ومنها تلك الكراسي التي تعنى بتفسير القرآن الكريم، ككرسي الإمام ابن عطية في التفسير.
- برنامج متابعات ومذكرة المستمع: وهو برنامج يعتني بالأنشطة والتظاهرات الدينية المرتبطة بالشأن الديني والتي تشرف عليه المجالس العلمية، كالمحاضرات والندوات والمؤتمرات، وخاصة ما يرتبط منها بالقرآن الكريم.

د- البرامج التي تعتني بأهل القرآن الكريم

- برنامج في ضيافة قارئ: يعرّف البرنامج بعدد من القراء المغاربة المتميزين ذوي الأصوات الشجية⁶⁴، وذلك من خلال التعريف بهم أولاً، ليعرف المستمع سيرهم وحياتهم وكيفية حفظهم للقرآن الكريم، وليكون قدوة للأجيال اللاحقة وللأطفال الذين يعتنون بالقرآن الكريم، ثم التعريف بقراءتهم وبمنهجيتهم التي بصموا بها طريقتهم الخاصة في قراءة القرآن الكريم.
- حباً في كتاب الله: فقرة تقربنا من تجارب بعض الذين كرسوا حياتهم لخدمة كتاب الله تعالى⁶⁵، حيث تعرض هذه الفقرة بشكل خاص تجربة ومسار القارئ مع القرآن الكريم.
- أصوات شجية: فقرة تستضيف أحد القراء أو المنشدين للتعريف بمسارهم القرآني أو الفني⁶⁶، خاصة أن بعض قراء القرآن الكريم، يشاركون في مجموعات للمديح والسماع النبوي، يأتي هذا البرنامج ليتناول جانباً من حياة هؤلاء القراء، ويعرض لأصواتهم الشجية في القراءة القرآنية والمديح النبوي.

62 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=199

63 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1231

64 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1235

65 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1283

66 - http://www.idaatmohammedassadiss.ma/detail_emission.php?em=1265

فهذه أهم البرامج التي قام عليها البث الإذاعي لإذاعة محمد السادس، يضاف إليها البث المباشر لبرنامج جمعة مباركة، الذي يضم مجموعة من الفقرات المباشرة يتفاعل فيها المستمعون مع الإذاعة وتتضمن قراءات قرآنية وأسئلة حول بعض القواعد التفسيرية والشرعية التي تؤكد الدور الهام الذي يقدمه الإعلام الرسمي ممثلاً في هذه الإذاعة، وكذا المحاضرات والندوات العلمية التي تبث على أثر الإذاعة بعد تسجيلها.

التميز الإعلامي لإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم وأثره في خدمة القرآن الكريم وعلومه

لاشك أن الحديث عن إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم كإذاعة متخصصة، وعن ظروف نشأتها وارتباطها بإصلاح الشأن الديني، وعن الدور المنوط بها لخدمة القرآن الكريم وعلومه، وعن تنوع برامجها يفتح الباب للحديث عن ما يميز هذه الإذاعة عن غيرها من الإذاعات الوطنية أو الدولية:

أ- التنوع اللغوي واللهجي للإذاعة

لا يخفى على الباحثين والعارفين بالفكر والثقافة المغربية، ما يميز بلد المغرب من خصوصية ثقافية تجمع بين التنوع اللهجي لمواطنيه، فكثير من ساكنة المغرب يتحدثون اللغة الأمازيغية بتنوعها (تشلحيت - تريفيت - تمزيغت)، إضافة إلى المغاربة الذين يقطنون بالخارج وخاصة بدول أوروبا، ويتحدثون الفرنسية والإنجليزية، أو الأجانب المسلمين القاطنين بالمغرب والذين يحتاجون إلى الاستفادة من البث الإذاعي، لذلك نجد إذاعة محمد السادس تراعي هذا التنوع في بث برامجها الإذاعية والمتخصصة، والمرتبطة بالقرآن الكريم على وجه الخصوص، وتحاول جاهدة الوصول إلى أكبر شريحة من المستمعين خدمة للقرآن الكريم وتحقيقاً للأهداف المتوخاة والتي من أجلها أنشئت.

فمن البرامج المتميزة التي تبين هذا المنهج: قبس من القرآن الكريم بتشلحيت، وقبس من القرآن بتريفت، وقبس من القرآن باللغة الفرنسية، وقبص من القرآن الكريم بالإنجليزية، وهي برامج تربط المستمعين بكتاب الله عز وجل تعليماً وتفسيراً وتدبراً في المعاني والقصص، حيث يسهر عدد من العلماء المتمكنين من هذه اللغات على إيصال المعاني بطريقة مبسطة وواضحة تسعف في إيصالها للمتلقي.

ويشكل هذا التنوع تميزاً إعلامياً كبيراً، يرفع من نسبة الاستماع، خاصة إذا علمنا أن بعض المواطنين لا يفقهون العربية كثيراً بل يتواصلون بالأمازيغية وخاصة بمناطق الأطللس المتوسط والريف الشرقي، مما يخلق لهم تواصلًا جيدًا مع الإذاعة وتجددًا مع كتاب الله سبحانه وتعالى.

ب- الاستعانة بالعلماء والمرشدين والقراء

لا يقتصر التميز الإعلامي لإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم على تنوع برامجها، بل يظهر جلياً في اعتمادها على علماء راسخين ومتمكنين يستطيعون إيصال رسالة القرآن بطريقة واضحة وجلية، حيث يشرف على إعداد برامج الإذاعة المتنوعة أساتذة متخصصون في العلم الشرعي، وإعلاميون لهم ثقافة شرعية تمكنهم من إيصال المعاني للمستمعين بطريقة سليمة، وعلماء يؤثثون فضاء الإذاعة بلقاءاتهم المباشرة وقراء متميزون يشنفون أسماع الناس بقراءاتهم الربانية.

- الأئمة المرشدون والمرشدات الدينيات

يشتغل بالإذاعة الأئمة المرشدون والمرشدات الدينيات الذين تخرجوا من معهد تكوين الأئمة المرشدين والمرشدات⁶⁷، والتابعين لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، حيث أسندت لهم مهمة الإشراف والإعداد لعدد من البرامج بالقناة، بناءً على تكوينهم العلمي والشرعي الذي خضعوا له بالمعهد، أو الذي اكتسبوه من دراستهم الجامعية التخصصية أو العليا، بعد تكوينهم ميدانياً للعمل في التنشيط الإذاعي وإنتاج البرامج وتقديمها⁶⁸، كبرنامج "جواهر من القرآن"، و"في رياض القرآن"، و"في محراب القرآن الكريم"...

تقول إحدى المرشدات بالإذاعة في تصريح لجريدة الصحراء المغربية، أنه بدلاً من أن تعمل في مجال اختصاصها، الذي هو المسجد والمدارس العلمية، اختيرت رفقة مجموعة من زملائها للالتحاق بالإذاعة، على اعتبار أن هناك بعض الأمور لا يمكن للصحافي أن يتفوق فيها رغم تكوينه الصحفي، كإتقان قواعد التجويد والعلوم الشرعية، مؤكدة أنها استفادت من العمل في الإذاعة من

67 - ظهر شريف رقم 1.14.103 صادر في 20 من رجب 1435هـ (20 ماي 2014م)، في شأن إحداث معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات. والمعهد يمثل رافداً أساسياً لتأهيل الحقل الديني وتجديده، في إطار استراتيجية مندمجة ومتكاملة، يعدد الإمام والخطيب أحد أركانها الأساسية، حيث يعمل المعهد على تزويد مساجد المملكة بـ 150 إماماً مرشداً ومؤطراً و 50 مرشدة دينية كل سنة، في إطار أفواج متتالية يؤكد مؤثر استمراريتها على نجاح برنامج التكوين الذي يخضع له الإمام المرشد والمرشدة الدينية.

68 - تجربة رائدة بين الإذاعات الإسلامية والأولى بين الوطنية (إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم تطفئ شمعها العاشرة). جريدة الصحراء المغربية. تاريخ النشر 04 يوليوز 2014م.

خلال توسيع معارفها الدينية، ومن خلال تواصلها مع العلماء والمقرئين والفقهاء وجمهور المستمعين"⁶⁹، حيث تمكنت هذه الفئة من تقديم خدمات جلية للقرآن الكريم؛ لأن شرط ولوج معهد تكوين الأئمة المرشدين والمرشحات الدينيات هو حفظ القرآن الكريم كاملاً بالنسبة للذكور ونصفه على الأقل بالنسبة للإناث.

- رؤساء وأعضاء المجالس العلمية

يشرف بعض علماء المجالس العلمية على بعض البرامج بالإذاعة، كبرنامج (مفردات من القرآن الكريم)، الذي يشرف على إعداده وتقديمه رئيس المجلس العلمي بتمارة، إضافة إلى حضور رؤساء المجالس العلمية والأعضاء بعدد من البرامج الأخرى كـ "في ضيافة قارئ" "قراءات قرآنية"، بصفتهم فاعلين في الشأن الديني.

- قراء وأئمة متميزون

يشرف عدد من القراء المتمكنون من قواعد التجويد على بعض برامج الإذاعة، حيث ينقلون تجربتهم مع القرآن الكريم للمستمعين الذين يتواصلون مع الإذاعة، كبرنامج "اقرأ وارتق" و"احفظ معي القرآن" و"في ضيافة قارئ"، إضافة إلى بعض القراء المشهورين بالعالم الإسلامي الذين يقدمون المسيرات القرآنية التي تبث على أثر الإذاعة، ويتم تسجيل القرآن الكريم بالإذاعة بأصواتهم لعرضها في المسيرة القرآنية.

ج- تخصيص حصص أكبر للقرآن الكريم

منذ انطلاق الإذاعة سنة 2004م، شكل القرآن الكريم المادة الأساسية للإذاعة، قبل أن يتم وضع دفتر التحملات الذي حدد الإطار الزمني لبرامج التربية الدينية بالإذاعة، ليتم تنويع برامج الإذاعة، دون إغفال النسبة الكبيرة التي تتجاوز 40 في المائة من مدة البث للقرآن الكريم وعلومه⁷⁰، خاصة أن ارتفاع نسبة الاستماع تعود لعناية الإذاعة بالقرآن الكريم، قراءة وتفسيراً.

كما يظهر التميز الإعلامي لإذاعة محمد السادس، في حسن اختيار البرامج التي تنفع الناس وتعينهم على فهم كتاب الله تعالى وتدبر آياته، فضلاً عن اختيار وقت البث والإعادة، الذي تظهر

69 - تجربة راشدة بين الإذاعات الإسلامية والأولى بين الوطنية. مرجع سابق.

70 - <http://www.assahraa.ma/journal/2014/188397>

أهميته في تثبيت الحفظ للناشئة، وتصحيح القراءة؛ فالمسيرة القرآنية، والقراءات الجماعية، والقراءات الفردية للقرآن الكريم تكون في جميع الأوقات (صباحاً وظهراً ومساءً)، وكذلك الأمر بالنسبة للبرامج التي تهتم بتصحيح القراءة، حيث تتوزع بين الظهيرة والمساء، لتصل إلى أكبر شريحة من الناشئة والمقرئين.

د- الإشراف الإذاعي على تسجيل القرآن الكريم

بعد انطلاق إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم، لم تكن تتوفر على نظام للمعلومات يمكنها من تسجيل قراءات قرآنية جديدة، بل اعتمدت على ما تتوفر عليه من أشرطة وأقراص مدججة بخزانة الأشرطة. لكن مع التطور التقني الذي سمح باعتماد نظام معلوماتي، أشرفت الإذاعة على تسجيل بعض الأشرطة الخاصة بالقرآن الكريم في نظام المعلومات، بحيث تم اختيار أشهر المقرئين وسجل مع مقرئين جدد أيضاً، فضلاً عن تسجيل المسيرات القرآنية والقراءات الجماعية للقرآن الكريم، ل يتم بثها يومياً بعد ذلك، حيث أصبحت الإذاعة غنية بالحصص القرآنية.

كما يتميز ارتباط الإذاعة بالقرآن الكريم، بالمراقبة اليومية للمادة القرآنية قبل بثها، حيث تقوم مصلحة البرمجة⁷¹ ببرمجة المادة القرآنية مع المراقبة اليومية لجميع الحصص القرآنية لتفادي التكرار أو التنكيس، وبالتالي، تقديم المادة القرآنية، عن طريق عمل جماعي محكم ومنظم.

هـ- التطور الإعلامي للإذاعة

يسهم في تميز إذاعة محمد السادس، وفي خدمتها للقرآن الكريم، تطورها الإعلامي والتقني، حيث تحرص الإذاعة على ترسيم دورها الإعلامي المتخصص، من خلال خلق قنوات للتواصل مع المستمعين بإعداد برامج تفاعلية كبرنامجي "احفظ معي القرآن، واقرأ وارثق، وفي ضيافة قارئ، وفي محراب القرآن الكريم"...

كما يكمن هذا التطور الإعلامي، في توسيع دائرة البث، للوصول إلى أكبر عدد ممكن من المستمعين، حيث يتم بث الإذاعة على موجات **Frequency Modulated** المعروفة اختصاراً (FM)، والتي تتميز بعدم تأثرها بالتشويش أثناء التغير بين المحطات ولا الخلط بين المحطات، وكذا البث

71 - تجربة رائدة بين الإذاعات الإسلامية والأولى بين الوطنية (إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم تطفئ شمعها العاشرة). جريدة الصحراء المغربية. تاريخ النشر 04 يوليوز 2014م.

الرقمي على موقع الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة (SNRT) على شبكة الإنترنت ضمن نطاق البث المباشر:

snrtlive.ma/idaatmohammedassadiss

كما يمكن متابعة برامج الإذاعة بشكل مباشر عبر التطبيق SNRT LIVE الذي خصّصته الشركة الوطنية في متجر التطبيقات التي تعمل بنظام الأندرويد أو الأيوس (android - ios).
كما تعمل الإذاعة على نشر برامجها باستمرار على موقع الشبكة عبر الرابط (idaatmohammedassadiss.ma/grille.ph)، لضمان متابعة فاعلة، ولتحقيق الأهداف المسطرة خدمة للقرآن الكريم.

خاتمة:

لقد قدمت إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم خدماتٍ جليّة ومنافع كبيرة للشأن الديني، حيث ظهر دورها جليّاً، ومقصدها واضحاً، في الحفاظ على الهوية الإسلامية والخصوصية المغربية، وفي خدمة القرآن وعلومه وأهله، كما عملت على نشر الفكر والثقافة، وتنوير الناس وتثبيت قيم الإسلام النبيلة القائمة على الأخلاق الطيبة.

فدواعي تأسيس الإذاعة ارتكزت على مجموعة من الأهداف، تتلخص في مواجهة الغلو والتطرف، والدفاع عن ثوابت الأمة، والحفاظ على الهوية الإسلامية، والعناية بالقرآن وأهله، باعتبارها أهدافاً ودعائم تقوّي ارتباط الناس بدينهم، وتؤكد العلاقة المتينة التي أسستها إذاعة محمد السادس وأثرت من خلالها في المؤسسات والمعاهد والجوائز المرتبطة بالقرآن الكريم، كمعهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية، والجوائز القرآنية الوطنية والدولية، والتي يعلن عنها بالإذاعة باستمرار، ويكون للإذاعة الدور الأساسي في التعريف بها، ونشرها بين القراء والمحبين والمستمعين.

إن ما تمّ الحديث عنه من أهداف ومقاصد ودواعي للتأسيس في ارتباط بهيكلية وإصلاح الشأن الديني أبرز الخصائص التي ميّزت عمل الإذاعة في خدمتها للقرآن الكريم، حيث شكل التنوع الموضوعاتي السمة البارزة التي استطاعت بفضلها الإذاعة أن تحقق نسب استماع كبيرة،

خولت لها الرتبة الأولى على جميع الإذاعات الوطنية والجهوية، فقد توسعت دائرة برامج الإذاعة، بين برامج اعتنت بحفظ وتعهد القرآن الكريم وتعليم قواعده، وبرامج اعتنت بتفسير القرآن الكريم وبيان معانيه وشرح مفرداته، وبرامج أخرى ركزت على القصص القرآني والعناية بأهل القرآن.

كما أن التميز الإعلامي لإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم قد ظهر جلياً، في تنوع برامجها بين اللغات واللهجات المحلية، وكذا من خلال استعانتها بالعلماء والأئمة المرشدين والمرشحات الدينيات، والقراء المتميزين والملمين بقواعد الترتيل والتجويد، إضافة إلى إشرافها على تسجيل القرآن الكريم وتطور مناهج الإعلام والبت، بما يواكب التطور الإعلامي العالمي، ويمكن العالم من متابعة برامجها.

أما النتائج التي تم التوصل إليها بعد التعريف بها وبرامجها، فيمكن الحديث عنها كالآتي:

- أن الإعلام الديني الرسمي، إعلام متميز لأنه يرتبط بمنظومة متكاملة يجمعها خيط ناظم وهو مواجهة الغلو والتطرف وإبراز خصوصية الإسلام السمح الحنيف.

- أن الإذاعات الخاصة تسعى جاهدة لتطوير برامجها التي ترتبط بالقرآن الكريم، بناء على ما تلمسه من ارتباط المستمعين بمثل هذه البرامج المتخصصة في قواعد التجويد والترتيل.

- أن خدمة القرآن الكريم في الإعلام الرسمي تتجلى منطلقاته في العناية بالمعاهد والمؤسسات القرآنية، والأنشطة المرتبطة بالقرآن الكريم وعلومه، كالمسابقات والمحاضرات والندوات.

- أن تنوع البرامج التي ترتبط بخدمة القرآن الكريم وخلق برامج تفاعلية مباشرة يرفع من نسبة الاستماع، ويحقق الأهداف المتوخاة.

- أن تجربة هذه الإذاعة وإن ارتبطت في نشأتها بتأهيل وإصلاح الشأن الديني بالمغرب في إطار متكامل، فإنها استطاعت أن تجد لها موطئ قدم في الساحة الإعلامية عموماً، انطلاقاً من قياس نسب الاستماع والتواصل المباشر في البرامج التفاعلية المباشرة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ديوان العدد

اللُّغَةُ الظَّافِرَةُ

الشاعر: محمد البلغمي
- فاس

وَعَيْثُكَ كَالْمَاءِ فِي الْهَاجِرَةِ
أَلْذُّ مِنْ النِّعْمَةِ السَّاجِرَةِ
وَقَاصُ بِالْأَيْدِيهِ الرَّاحِرَةِ
وَرَأَقَتْ بِلَاغَتُهُ الْآسِرَةِ
وَشَفَّتْ بِأَحْرِفِكَ النَّاضِرَةِ
بَلْفَظٍ فَصَّاحَتِكَ الْبَاهِرَةِ
وَهَامَتْ بِكَ الْأَنْفُسُ الشَّاعِرَةِ
وَحَلَيْتُهُ آيَاتِهِ الطَّاهِرَةِ
وَنَفَحَتُهُ سِيرَتِهِ الْعَاطِرَةِ
وَكُنْتُ لَهُ الْقَلْبَ وَالذَّاكِرَةِ
وَكَاثَبْتُ أَعْبَاءَهُ صَابِرَةِ
وَلَمْ تَهِنِي لِلْقَوَى الْغَادِرَةِ
وَيَحْمِي هُوَيْتِنَا الْحَاضِرَةِ
وَنُظُّوكَ عَنْ عِلْمِهِمْ قَاصِرَةِ
وَنَبَعْتُ أَلْفَظَهَا الدَّائِرَةِ
وَشَرَعْتُ بِقَافِيَةٍ نَافِرَةِ
يَعُجُّ بِأَخْيَلَتِهِ فَاتِرَةِ
وَلَا هُوَ بِالْحِكْمِ السَّائِرَةِ
بِسِرٍّ مِنَ الْقُدْرَةِ الْقَاهِرَةِ
وَمَا أَكْثَرَ الْخُطُوطِ الْمَاكِرَةِ
مَدَى الدَّهْرِ مَنْصُورَةً ظَافِرَةِ

عَطَاؤُكَ، كَالْعَيْمَةِ الْمَاطِرَةِ
وَوَقْعُكَ فِي السَّمْعِ يَا لُغَتِي
لَقَدْ ضَمَّ بِخُرْكَ سِرِّ الْبَيَانِ
وَمِنْكَ الْبَدِيعُ اكْتَسَى حُسْنَهُ
كَسَوَتْ الْمُعَانِي ثُوبَ الْجَمَالِ
وَأَفْصَحَتْ عَمَّا تَكُنُ النُّهَى
فَلَا غَرَوْا إِنْ عَشِقَتْ الْقُلُوبُ
فَأَنْتَ لِسَانُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ
وَأَنْتَ بَيَانُ نَبِيِّ الْهُدَى
حَفِظْتَ الثَّرَاثَ لَنَا مِنْ ضَيَاعِ
وَنَافَحْتَ عَنْهُ مِثْلَ السِّنِينِ
فَلَمْ تُسْلِمِي لِلْعَدُوِّ الْقِيَادِ
تُورَاثُ يُحَلِّدُ مَاضِيَنَا
تَقَاصِرَ عَنْ فَهْمِكَ الْعَاجِزُونَ
وَقَالُوا: نَجَدُّ فِي رُوحِهَا
فَجَاءُوا لَنَا بِتَنَاجٍ غَرِيبِ
وَأَذُوا مَسَامِعَنَا بِدَخِيلِ
فَلَا هُوَ يُعْزِي لِقَوْلِ الْفُحُولِ
فِي الْلُغَةِ تَتَحَدَّى الْعُصُورِ
سَنَحْمِيكَ مِنْ خُطُوطِ الْمَاكِرِينَ
وَتَبْقَيْنَ يَا لُغَةَ الْأَكْرَمِينَ

فهرس العدد:

افتتاحية 9

مقالات العدد

- سماعات المذهب المالكي وأسانيده إلى القرن السادس الهجري

ذ. عبد الحميد العلمي 11

- من الإمام سحنون (ت. 240هـ/854م) إلى الإمام ابن عرفة (ت. 803هـ/1401م)

ذ. نجم الدين الهنتاتي 25

- التعليل المقاصدي عند الإمام أبي عبد الله المازري المالكي (ت536هـ)

د. عبد الرزاق وورقية 41

- مناهج الفقه المالكي في معالجة قضايا الأسرة

ذ. فوزية احصاد 51

- مراعاة ظاهر القرآن عند مفسري مالكية الغرب الإسلامي

ذ. سعيد الشوية 61

- تدبير الخلاف بمراعاة الخلاف عند المالكية

ذ. محمد حسني 77

- فتوى الإسحاقى فى نازلة الأميرة خنائة بنت بكار المغافرى

89 ذ. محمد الأندلسى

مقالات داعمة

- المرأة المغربية وصيانة القيم الحضارية والوطنية

105 ذة. آمنة الراضى

- دور الإعلام الرسمى فى خدمة القرآن الكريم وعلومه

133 ذ. عبد الكريم بنانى

ديوان العدد

اللُّغَةُ الظَّافِرَةُ

163 الشاعر: محمد البلغمى

165 فهرس الموضوعات.

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

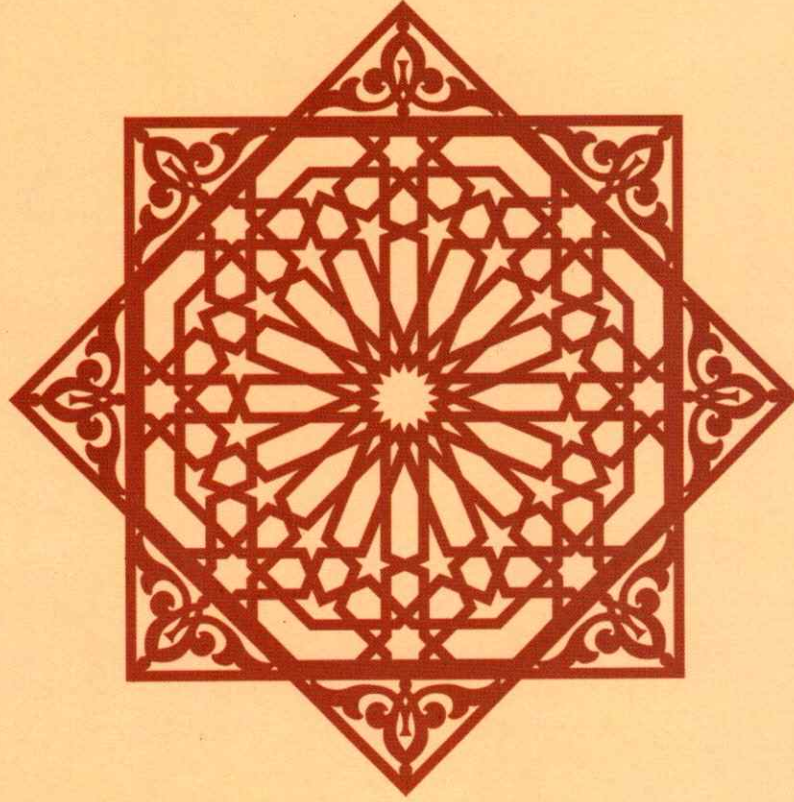
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاورين التاليين:

- 1- عيد العرش المجيد.
- 2- ثورة الملك والشعب.





دعوة الحق

مجلة شهرية نعتى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية